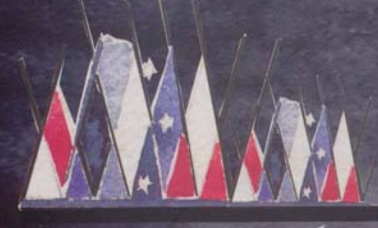
بُول أوسْتر

PAUL AUSTER

روايَـة



رجل في الظّلام

ترجَمَة: أحْمَد م. أحْمَد





دار الآداب

بول أوستر

رجل في الظلام

ترجمة أحمد أحمد

رواية

دار الآداب ـ بيروت

رجل في الظلام

رجل في الظلام

بول أوستر/ روائي من شمال أميركا

الطبعة الأولى عام 2010
ISBN 978-9953-89-142-2

دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير ـ بناية بيهم
ص.ب. 4123 ـ 11
بيروت ـ لبنان
هاتف: 861633 (01) ـ 795135 (01) ـ 861632 (03)
فاكس: 009611861633
e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb
ranaidriss@hotmail.com
Website: www.adabmag.com
Facebook: Dar al Adab

وحيدًا في الظلام، أقلِّبُ في رأسي العالَمَ من حولي بينما أغالبُ نوبةَ أرقٍ جديدةً، ليلةً بيضاءَ جديدةً في البراري الأميركيّة الشاسعة. في الطابق الأعلى، رقدتِ ابنتي وحفيدتي في غرفتيْ نومهما، وحيدتيْن أيضًا: ميريام ابنتي الوحيدة ذات الأعوام السبعة والأربعين، وقد نامت بمفردها طيلة السنوات الخمس الماضية، وكاتيا ذات الأعوام الثلاثة والعشرين، ابنة ميريام الوحيدة، التي اعتادت أن تنام مع شابٍّ اسمُه تايتوس سمول. لكنّ تايتوس ميّت الآن، لذلك تنام كاتيا وحيدةً بقلبها المكسور.

ضوء ساطع، يَعْقبه ظلام. الشمس تنسكب من كافّة أركان السماء، يليها سوادُ الليل، والنجومُ الخرساء، ثم الريحُ وهي تثير الأغصان. هذا هو الروتين. حتى الآن مضتْ سنة وأكثر على سكني في هذا البيت. فمنذ أن أخرجوني من المشفى، ألحّتْ ميريام على مجيئي إلى هنا. في البداية كان الأمر يقتصر علينا نحن الاثنين فقط، بالإضافة إلى ممرّضة النهار التي كانت تعتني بي عندما تعمل ميريام خارج البيت. وبعد ثلاثة أشهر، نزلتِ النازلةُ

بكاتيا، وتركت الدراسة في كلِّيّة السينما في نيويورك وجاءت لتعيش مع أمّها في ڤيرمونت.

•

أَطلق عليه والداه اسم ابنِ رامبراندت، صبيّ اللوحات الصغير، الولد ذي الشعر الذهبيّ بقبّعته الحمراء، تلميذ أحلام اليقظة، المرتبك في دروسه، الصبيّ الصغير الذي أصبحَ فتًى أتلفه المرضُ، ثم مات وهو في العشرين؛ وهو ما حدث تمامًا لتايتوس صديق كاتيا. إنّه اسمٌ مشؤوم، اسم كان ينبغي أن يتمّ حظر تداوله إلى الأبد. أُطيلُ التفكيرَ في موت تايتوس، في قصّةِ موته الرهيب، وانطباعاتِ هذا الموت، والآثارِ الساحقة التي خلّفها على حفيدتي الكسيرة، لكنّني لا أريد الدخولَ في ذلك الآن. لا أستطيع الدخول فيه الآن، عليّ أن أشيحه بعيدًا عنّي بقدر ما أستطيع. لا يزال الليل في أوجِهِ. وبينما أرقد هنا في الفراش أرقب الظلام، الظلامَ الحالك الذي لا يتيح لك مجرّد أن تتبيّن السقفَ، أَشْرع في استحضار القصّة التي بدأتُها ليلة البارحة. وهذا ما أفعله حين يجافيني النوم: أستلقي على فراشي وأقصّ على نفسي القصص التي قد لا تُجْدي نفعًا، لكنّها تمنعني ـ ما دمتُ مستغرقًا فيها ـ من التفكير في أشياء أرغب في نسيانها. قد يكون تكثيفُ الانتباه مشكلة، بكلّ الأحوال، فغالبًا ما ينحرف ذهني في النهاية عن القصّة التي أحاول سردَها لينحو باتّجاه أشياءَ لا أريد التفكيرَ فيها. وليس هناك ما يمكنني فعله. أُخفق المرّةَ بعد الأخرى، أُخفق أكثرَ ممّا أُفلح، لكنّ هذا لا يعني أنّني لا أبذل قصارى جهدي.

وضعتُهُ في حفرة؛ وهذا ما يبدو بدايةً موفّقة، طريقةً واعدةً لكي

تُطْلِقَ الأشياء. أن تضع رَجُلاً نائمًا في حفرة، ثم ترى ما يحدث له حين يستيقظ ويحاول أن يزحفَ خارجها. أتحدّث عن حفرة عميقة في الأرض، بعمق تسع أقدام أو عشر، حُفرتْ بطريقة تجعلها دائرةً مكتملة، بجدران داخليّة عموديّة، بأرضيّة كثيفة رُصَّتْ بقوّة، بسطحٍ صلدٍ له قوامُ الصلصال، بل ربّما قد يكون ضربًا من الزجاج. بمعنًى آخر، لن يكون الرجل في الحفرة قادرًا على تخليص نفسه منها حين يفتح عينيه، إلاّ إذا كان مجهَّزًا بعدّة متسلّقي الجبال ـ المطرقة والرّزّات المعدنيّة، على سبيل المثال، أو حبلٍ بكلاّبٍ يلتقط شجرة مجاورة ـ لكنْ ليس بحوزة هذا الرجل أيّةُ أدوات. وحين يستعيد الوعي، سيُدرك على الفور طبيعة ورطته.

وهذا ما سيحدث. يستعيد الرجلُ وعيَه ليكتشف أنّه مستلقٍ على ظهره، يحدّق في سماء المساء الخالية من النجوم. اسمه أوين بريك، ولا فكرة لديه عمّا حطّهُ في هذه البقعة، ولا يتذكّر أنّ قدمه زلّت ليقع في هذه الحفرة الأسطوانيّة، التي يقدّر قُطْرها بما يقارب الاثنتي عشرة قدمًا. ينهض، ليتفاجأ بأنه يرتدي زيَّ جنديٍّ مصنوعًا من صوفٍ خشنٍ كَمِيتِ اللون، ويعتمر قبّعةً على رأسه، وينتعل بوطًا قويًّا من الجلد الأسود البالي، برباطٍ معقودٍ مرّتين بشدّةٍ أعلى الكاحل. وعلى كمَّي السترة شارةٌ عسكريّة ذات شريطين تدلّ على أنّ البزّة تعود إلى شخصٍ ما برتبة عريف (كوربورال). قد يكون ذلك الشخص أوين بريك، لكنّ الرجُلَ في الحفرة، الذي اسمه أوين بريك، لا يسعه أن يتذكّر أنّه خدم في جيش أو قاتلَ في حربٍ في أيّ وقتٍ من حياته.

سيفترض، لافتقاره إلى أيّ تعليل آخر، أنّه ربما تلقّى صدمةً

على الرأس، وعلى أثرها فَقَدَ الذاكرة. وحين يمرِّر رؤوسَ أصابعه على فروة رأسه متحسّسًا إنْ كانت هناك نتوءاتٌ أو جروحٌ بليغة، لا يجد، في أيِّ حال، آثار انتفاخ، أو جروحًا، أو كدماتٍ. لا شيء يوحي أنّ ثمّة إصابةً لحقتْ به. ما الذي حدث إذًا؟ هل عانى رضّةً ما أوهنَتهُ وسوّدَتْ قطاعًا كبيرًا من دماغه؟ ربّما. ولكنْ ما لم يتذكّر تلك الرضَّة فجأة، فلن يجد سبيلاً إلى الحقيقة. بعدها، يحاول أن يتفحّص احتمال أنّه نائم في البيت على فراشه، عالقًا في حلم تَفوقُ واقعيّته الحدَّ الطبيعيّ، حلمٍ كثيفٍ بالغِ الشّبه بالحياة، حيثُ تذوب الحدودُ بين الحلم والوعي. إذا كان ذلك صحيحًا، فليفتحْ عينيه إذًا هكذا بكلّ بساطة. فليثبْ من الفراش، وليتّجهْ نحو المطبخ ليحضّر قهوةَ الصباح. لكنْ كيف لك أن تفتح عينيك إن كانتا مفتوحتين بالفعل؟ يرمش بعينيه مرّات عدّة، متسائلاً بطفوليّة إنْ كان ذلك سيكسر الدّوار ـ لكنْ لم يكن هناك دوارٌ لكي يُكسر، ولم يقيّضِ الظهورُ للفراش السحريّ.

يَعْبر سربٌ من طيور الزرزور في الأعلى، يدخل حقل الرؤيا لثوانٍ خمسٍ أو ستٍّ، ثم يتلاشى في الشّفَق. ينتصب بريك ليتفحّص ما يحيط به. وبينما يقوم بذلك ينتبه إلى انتفاخ في جيب بنطاله الأيسر. يتبيّن أنّها محفظة نقوده، محفظته هو، وبالإضافة إلى ستّة وسبعين دولارًا من العملة الأميركيّة، كانت تحتوي على رخصة سياقة صادرة عن ولاية نيويورك لصالح أُوين بريك، تولُّدِ ١٢ حزيران/ يونيو عام ١٩٧٧. ما يؤكّد ما يعرفه بريك: أنّه رجلٌ يقترب من الثلاثين ويعيش في جاكسون هايتس، كوينز. بالإضافة إلى أنّه يَعْلم بزواجه من امرأة اسمُها فلورا خلال السنوات السبع

الأخيرة التي اشتغل خلالها ساحرًا محترفًا، يقدّم عروضَه في حفلات أعياد ميلاد الأطفال في المدينة تحت اسم فنّيٍّ مستعار هو زاڤيللو الكبير. لكنّ هذه الحقائق تعمّق اللغز. فإذا كان متأكّدًا من هويّته، فكيف انتهى إلى قاع هذه الحفرة، مرتديًا أقلَّ ما يمكن: بزّةَ عريفٍ، بلا أوراقٍ، ولا صفيحةِ تعريفٍ معدنيّة، ولا بطاقةٍ عسكريّة تُبرز رتبتَه جنديًّا؟

لن يستغرق الأمرُ طويلاً لكي يدرك أنّ الخلاص مستحيل. الجدار الدائريّ شديد الارتفاع، وحين يركله ببوطه ليَحْفر سطحَه بغية إيجاد نقطة استنادٍ لقدمه تعينه في التسلّق، تكون النتيجة ألمًا مبرّحًا في إبهام قدمه. الليل وشيك، وثمّة برودة في الهواء، برودة ربيعيّة رطيبة تتدفّأ في جسده. وإذ بدأ الخوفُ يعتريه، كان الإحباط لا يزال يفوق الخوف. ومع ذلك، فإنّه لا يستطيع التوقّف عن الاستغاثة. حتى الآن، كلّ شيء ساكن حوله، وهو ما يدلّ على أنّه موجودٌ في امتدادٍ ريفيّ ناءٍ وغيرِ آهل، بلا أصواتٍ عدا زعيق طيور متقطّع وحفيف الريح. ومع ذلك، وكأنّه في موقع قيادة، وكما لو أنّ الأمر محكوم بمنطق أعوجِ العلّة والنتيجة، وفي اللحظة التي صرخ فيها بكلمة «*النجدة*»، اندلعتْ نيرانُ مدفعيّة في المدى، لتضيء سماءَ الليل الدامس بخطوطِ مذنّباتٍ متوهّجةٍ من آثار الدمار. ترامى إلى بريك أصواتُ بنادق آليّةٍ، انفجار قنابل يدويّة. وفي خلفيّة ذلك كلّه، على بعد أميال بلا شكّ، تردّدتْ أصواتُ كوْرسٍ واهنٍ من العويل البشريّ. إنّها الحرب؛ يدرك ذلك، وهو جنديّ في تلك الحرب، ولكنْ من دون سلاح تحت تصرّفه، لا وسيلةَ للدفاع عن نفسه في مواجهة هجوم. وللمرّة الأولى منذ

استيقظ ليجد نفسَه في الحفرة، يعتريه الخوفُ العميقُ إلى أبعد الحدود.

يستمرّ إطلاقُ النار أكثرَ من ساعة، ثم يخفت تدريجيًّا حتى يتلاشى. وبعد برهة ليست طويلة، يتناهى إلى أسماع بريك صوتُ صفّارات إنذار ضعيفة، يعتبر أنّه محرّكاتُ الإطفاء تسرع باتّجاه الأبنية التي تضرّرتْ إثر الهجوم. بعدها تتوقّف صفّاراتُ الإنذار، ويهبط السكونُ عليه من جديد. يشعر بريك بالبرد والخوف، ويشعر بالتعب. وبعد أن يمضي في معاينة ضيق سجنه الأسطوانيّ حتى تظهر النجومُ في السماء، يتمدّد على الأرضيّة، ويجد إلى النوم سبيلاً في النهاية.

باكرًا، صباحَ اليوم التالي، يوقظه صوتٌ يناديه من أعلى الحفرة. يتطلّع بريك إلى الأعلى ليرى وجهَ رجل يبرز عند الحافّة، ولمّا كان الوجه هو كلّ ما استطاع رؤيته، فقد افترض أنّ الرجل متمدّد على بطنه.

ـ يا عريف، قال الرجل، عريفْ بريك، حان الوقتُ لكي تتحرّك.

نهض بريك، والآن لا تبعد عيناه أكثرَ من ثلاث أقدام أو أربع عن وجه الغريب. يمكنه أن يرى أنّ الرجل شخصٌ داكنٌ مربّع الفكّ، ذو ذقنٍ لم تُحْلق منذ يومين، وأنّه يعتمر قبّعةً عسكريّة تشبه قبّعته. قبل أن يتمكّن بريك من إبداء ما يكفي من الشكوى فإنّه سيحتاج إلى تحريك أوصاله، مع أنّه ليس في موقع مَن يُمْكنه إبداءُ شيءٍ كهذا. ويختفي وجهُ الرجل.

ـ لا تقلق، يسمعه يقول، سننتشلكَ من هناك في أقصر وقت.

تمرّ لحظات، يَعْقبها صوتُ مطرقة أو ميتدةٍ[1] حديديّة تدقّ جسمًا معدنيًّا. ولأنّ الصوت يغدو أكثر كتمًا مع الضربات المتوالية، يتساءل بريك عمّا إذا كان الرجل يغرز وتدًا في الأرض. وإذا كان ما يغرزه وتدًا، فلا بدَّ أنّه سيكون ثمّة في الحال حبل ينعقد عليه، وبالاستعانة بذلك الحبل سيتمكّن بريك من التسلّق خارج الحفرة. تتوقّف القعقعة. ثلاثون أو أربعون ثانيةً أخرى. بعدها، كما تكهّن، يُلقى الحبلُ عند قدميه.

بريك ساحرٌ، لا رجلُ «كمال أجسام»، علمًا أنّ تسلّق ياردة أو بعضها على حبل لا يُعَدّ مهمّةً شاقّةً تتجاوز قدرةَ رجل ثلاثينيّ صحيح البدن. ومع ذلك فقد بذل قدرًا وافرًا من الجهد ليصل إلى الأعلى. لم يكن الجدار ذا فائدة بالنسبة إليه: فنعلا بوطه كانتا تنزلقان عن السطح الأملس؛ وحين يحاول أن يُطْبِقَ فردتَي البوط حول الحبل ذاته، يخفق في إيجاد نقطة استناد، وهو ما يعني أنّ عليه الاعتمادَ على قوّة ذراعيه لا أكثر. ونظرًا إلى أنّهما ذراعان غير مفتولتين وغير قويّتين، ونظرًا إلى أنّ الحبل مصنوع من موادّ خشنة، فإنّ ذلك سيؤدّي إلى حروق في باطن الكفّين، لتتحوّل هذه العمليّة البسيطة إلى ما يشبه المعركة. أخيرًا عندما يدنو بريك من الحافّة، ويقبض الرجلُ الآخرُ على يده اليمنى ويجذبه إلى مستوى الأرض، فإنّه سيعاني الأمرّيْن: تقطُّعَ الأنفاس، والشعورَ بالعار الذاتيّ. فبعد أداءٍ مخيِّبٍ كهذا، يتوقّع السخرية بسببٍ من عدم كفاءته. ولكنْ،

(١) مطرقة أسطوانيّة تستخدم لدقّ الأوتاد.

لمعجزةٍ ما، أمسك الرجلُ عن قول ما ينتقص من بريك.

وإذ يجهد بريك لكي ينتصب على قدميه، يَلْحظ أنّ بزّةَ منقذه تشبه تلك التي يرتديها هو، سوى أنّ هناك ثلاثة خطوطٍ على كمّي السترة، لا خطّين. كان الهواء يَعْبق بالضباب، فيجد بريك صعوبةً في تبيّن مكانه. إنّه على ما يبدو في بقعةٍ نائيةٍ من الريف، كما توقّع، لكنّ المدينة أو البلدة التي كانت تتعرّض للقصف ليلةَ البارحة لم تكن في المدى المنظور. الشيء الوحيد الذي استطاع تمييزَه بنوع من الوضوح هو الوتد المعدنيّ والحبل يلتفّ عليه وسيّارةُ جيب تناثر عليها الوحلُ ورُكنتْ على بُعد عشر أقدام من حافّة الحفرة.

ـ يا عريف، يقول الرجل، مصافحًا بريك بثبات، قابضًا على يده بحماسة. أنا سيرج توباك، السرجنت (الرقيب) المسؤول عنك. أُعرف أكثر بـ سيرج سيرج. أَعرف، يقول توباك، أنّه مضحك جدًّا. لكنّ الاسم التصق بي، ولا حيلة لي إزاء ذلك. إذا لم تستطع أن تهزمهم، اتبعهمْ، أليس كذلك؟

ـ ماذا أفعل هنا؟ يسأل بريك، محاولاً أن يكبتَ الكربَ في صوته.

ـ تماسكْ، يا ولد. أنت تخوض حربًا. ماذا كنتَ تحسبها؟ رحلةً إلى عالم الملاهي؟

ـ أيّة حرب؟ أيعني ذلك أنّنا في العراق؟

ـ العراق؟ من يكترث بالعراق؟

ـ أميركا تخوض حربًا في العراق؛ الكلّ يعلم بذلك.

ـ سحقًا للعراق. هنا أميركا، وأميركا تقاتل أميركا.

ـ ماذا تعني؟

ـ الحرب الأهليّة، يا بريك. ألا تعلم شيئًا؟ إنّها السنة الرابعة. ولكنْ ليكن في علمك، الآن، أنّها على وشك الانتهاء. وأنت الشخص الذي سيقوم بذلك.

ـ كيف عرفتَ اسمي؟

ـ أنتَ في فصيلتي، أيّها المغفّل.

ـ وماذا عن الحفرة؟ ماذا كنتُ أفعل هناك في الأسفل؟

ـ مجرّد تدريب عاديّ. كلّ المجنّدين الأغرار يأتون إلينا بهذه الطريقة.

ـ لكنّني لم أُوقّع. لم أتطوّع.

ـ بالتأكيد لم تفعل، ولم يفعل أحد ذلك. لكنْ هكذا هي الحال. فذات دقيقةٍ تعيش حياتَكَ، وفي الدقيقة التالية ستكون في الحرب.

كان بريك مرتبكًا من تصريحات توباك، ولم يدرِ ما يقول.

ـ إنّها كذلك، تابعَ السرجنت ثرثرته. أنتَ الحطبة التي التقطوها من أجل المهمّة الكبيرة. لا تسألني لماذا، لكنّ هيئة الأركان العامّة تظنّ أنّك أفضل رجل تُناط به المهمّة. ربّما لأنّ أحدًا لا يعرفك،

أو لأنّك تمتلك هذا الـ. . . ما هو؟. . . هذا المظهرَ العليلَ، ولن يشكّ أحد في أنّك ستقوم بالاغتيال.

ـ اغتيال؟

ـ بالضبط، اغتيال. لكنّني أحبُّ أن أستعمل مفردة «مُحَرِّر». أو «*صانع السلام*». لا يهمّ ماذا تسمّيها أنت، فمن دونك لن تنتهي الحرب.

كان بريك يريد الفرارَ من المكان. ولأنّه أعزل، لم يستطع أن يفكّر إلاّ في أن يماشي اللعبة.

ـ ومن الذي يُفترض أن أقتله؟ يسأل.

ـ الأمر ليس ***مَن*** بقدر ما هو ***ما***، يُجيب السرجنت بطريقة مبهمة. لسنا متأكّدين بعدُ من اسمه. قد يكون بليك. قد يكون بلاك. وقد يكون بلوش. لكنْ لدينا عنوان، وإذا لم يكن حتى الآن قد انسلّ هاربًا، فلن تواجهكَ عراقيلُ تُذكر. سنزوّدك بجهة اتّصال في المدينة. ستذهب متخفّيًا. وخلال أيّام قليلة يجب أن ينقضي الأمر.

ـ ولماذا يستحقّ هذا الرجلُ القتلَ؟

ـ لأنّه يمتلك الحربَ. هو مَن اختلقها. وكلُّ ما يحدث الآن، وما على وشك أن يحدث، من رأسه. ألغِ ذلك الرأسَ تتوقّفِ الحرب. هكذا بكلّ بساطة.

ـ أيّة بساطة؟ وأنت تجعله يبدو مثل الله.

ـ ليس الله، يا عريف، إنّه مجرّد رجل. يجلس طوال اليوم في غرفة ليكتبها، وكلُّ ما يكتبه يظهر إلى حيّز الواقع. تقاريرُ الاستخبارات تُفيد بأنّه منقادٌ في غيّه، ولا يمكنه أن يوقف نفسَه. لو انبرى الشجعانُ لابن الحرام هذا ونَسَفوا دماغَه، لما كنّا الآن نخوض هذا الجدال.

ـ تقول إنّها قصّة، ذلك الرجل يكتب قصّة، ونحن جميعًا جزء منها.

ـ شيء من هذا القبيل.

ـ وبعد أن يُقتل، ماذا سيحدث؟ ستنتهي الحرب، ولكنْ ماذا بشأننا؟

ـ سيعود كلّ شيء إلى مجراه الطبيعيّ.

ـ أو قد نختفي.

ـ ربّما. لكنّها المجازفة التي يجب أن نَقْبلها. افعلها أو مُتْ، يا صغيري. أكثر من ثلاثة عشر مليونًا قضوْا في الحرب حتى الآن. وإذا استمرّت الحال على ما هي عليه، فإنّ نصف السكّان سيلحقون بهم قبل أن تدري.

لم يكن في نيّة بريك أن يقتل أحدًا. وكلّما اشتدّ إصغاؤه إلى توباك، ازداد يقينُه أنّ الرجل معتوه منفلت. وفي كلّ الأحوال، لا خيار لديه سوى أن يتظاهر بأنّه يتفهّم، وبأنّه متحمّس لتنفيذ المهمّة.

يخطو سيرج باتّجاه الجيب. يُحْضر كيسًا بلاستيكيًّا من المؤخّرة، ويعطيه إلى بريك. «هذه أسمالك الجديدة»، يقول. وفي

ذلك الخلاء المكشوف أَوعز إلى الساحر أن يَخْلع بزّته العسكريّة ويرتدي الثيابَ المدنيّة التي كانت في الكيس: بنطالين من الجينز الأسود، قميصَ أكسفورد أزرق، كنزةً حمراء ذات قبّة V، حزامًا، سترةً جلديّةً بنّيّة، وحذاءين جلديّين أسودين. ثم يناوله حقيبةَ ظهر خضراء بلاستيكيّة فيها المزيدُ من الملابس، وعدّة حلاقة، وفرشاة أسنان، ومعجون أسنان، وفرشاة شعر، ومسدّس عيار ٣٨، وعلبة طلقات. وأخيرًا تسلّمَ بريك مظروفًا يحتوي عشرين ورقة من فئة الخمسين دولارًا، بالإضافة إلى قصاصةٍ ورقيّةٍ عليها اسمُ جهة الاتّصال وعنوانُها.

ـ لُوو فريسك، يقول الرقيب. رجل طيّب. امضِ إليه حالما تصل المدينة، وهو سيخبرك بكلّ ما تحتاج أن تعرفه.

ـ ما هي المدينة التي نتحدّث عنها؟ يتساءل بريك. لا فكرة لديّ أين أنا الآن.

ـ ويلينغتون، يقول توباك، وهو يستدير يمنةً ويشير باتّجاه ضباب الصباح الكثيف. عليك قطعُ اثنيْ عشر ميلاً إلى الشمال. وإذا لم تحدْ عن هذه الطريق، فستكون هناك قرابة منتصف الظهيرة.

ـ أعليَّ أن أسير؟

ـ كنتُ أودّ أن أُقلّك، لو لم أكن ذاهبًا في اتّجاه آخر. رجالي في انتظاري.

ـ وماذا عن الإفطار؟ اثنا عشر ميلاً بمعدةٍ خاوية...

ـ آسف بشأن ذلك، أيضًا. كان يجب أن آتيك بشطيرةِ بيضٍ وترموس قهوة، لكنّني نسيت.

قبل أن يغادر سيرج المكانَ للقاء رجاله، يَسْحب الحبلَ من الحفرة، ويَنتزع الوتدَ من الأرض، ويلقي بهما في مؤخّرة الجيب. ثم يصعد ويجلس خلف المقود ويدير المحرِّك، موجّهًا لبريك تحيّةَ الوداع، قائلاً: «كن متماسكًا هناك أيّها الجندي. لا أرى فيك سيماءَ القاتل إلى هذه الدرجة، لكن أنّى لي أن أَعْلم؟ فلم أكن مرّةً على صواب في أيّ شيء».

ومن دون أن يضيف كلمةً أخرى، يضغط بقدمه على مداس الوقود، ويُقْلع بأقصى سرعة، ليغيب خلال ثوانٍ في الضباب. لم يتزحزحْ بريك قيد أنملة. وانتصب لأكثر من دقيقة هناك، وسط الطريق، يعتريه البردُ والجوع، مرتعشًا وخائفًا، ومتفكّرًا في الخطوة التالية. أخيرًا، بدأتْ قشعريرةٌ تنتابه في الهواء الصقيعيّ، قشعريرةٌ حسمت القرارَ بدلاً منه. فعليه أن يبدأ بتحريك أطرافه، لكي يدفّئ نفسَه. ومن دون أدنى فكرة عمّا ينتظره، يستدير، يدسّ يديه في جيبيه، ويبدأ سيره باتّجاه المدينة.

للتوّ فُتح بابٌ في الطابق العلويّ، ويمكنني أن أسمع خطواتٍ تنزل إلى غرفة الجلوس. لا أستطيع التمييز إنْ كانت ميريام أو كاتيا. ينفتح بابُ الحمّام ثم ينغلق، بهدوء، بهدوءٍ بالغ. ألتقطُ موسيقا البول المألوفة حين تلامس الماء. لكنّ التي قامت بالتبوّل كانت من الحرص بحيث لا تُجري ماءَ التواليت بعد التبوّل فتوقظَ أهلَ البيت، رغم أنّ اثنين من الثلاثة مستيقظان بطبيعة الحال. بعدها يُفتح بابُ الحمّام. ومرّةً أخرى صوتُ الخطى المتأنِّية، وصوتُ إغلاق باب الحمّام. إذا كان عليّ أن أخمِّن، فسأقول إنّها كانت كاتيا. كاتيا الطيّبة المتألّمة، التي يجافيها النومُ كما يجافي جدَّها. ليتني كنتُ أستطيع أن أصعد الدرج، فأذهبَ إلى غرفتها، لأتحدّث إليها بعض الوقت، وأقصّ عليها شيئًا من نكاتي البذيئة، ربّما، أو قد أكتفي بمسح رأسها براحة كفّي حتى يُطْبق جفناها وتستسلمَ للنوم. لكنّه ليس بمقدوري صعودُ الدرج على كرسيّ العجلات، هل أستطيع؟ ولو لجأتُ إلى العكّاز، لربّما سقطتُ في الظلمة. سحقًا لهذه الرِّجل الغبيّة. الحلّ الوحيد هو أن أستنبتَ

جناحين، جناحين عملاقين ناعمين جدًّا. وبذلك سأكون عندها في لمح البصر.

طوال الشهرين الفائتين، أمضيتُ وكاتيا أيّامَنا نشاهد الأفلام السينمائيّة، جنبًا إلى جنب على صوفا غرفة الجلوس، مشدودَي الأنظار إلى جهاز التلفزيون، متجاوزَيْن فيلمين، أو ثلاثة، وأحيانًا أربعةً في الجلسة، ثم نقطعها للغداء مع ميريام. وإذ ننتهي من الغداء، نعود إلى الصوفا لنشاهد فيلمًا أو اثنين آخرين قبل المضيّ إلى الفراش. كان عليّ أن أشتغل على مخطوطي، المذكّراتِ التي وعدتُ ميريام بكتابتها منذ تقاعدتُ قبل ثلاث سنوات خلتْ: قصّة حياتي، تاريخ العائلة، تأريخ عالم بأكمله امّحى. لكنّني في حقيقة الأمر أفضّل أن أكون على الصوفا مع كاتيا، حاضنًا يدها، تاركًا لها أن تريح رأسَها على كتفي، مستشعرًا أنّ عقلي آخذٌ في الخدر من استعراض الصور والأخيلة اللامتناهيّة التي تتراقص على الشاشة. درجتُ على ذلك كلَّ يوم لما يزيد على السنة، لأُنشِئ كومةً هائلةً من الصفحات، ما يعادل نصفَ قصّةٍ فيما أظنّ، ربّما أكثر بقليل، لكنّني أحسبُ أنّي فقدتُ الشهيّة تجاهها. ربّما بدأ ذلك منذ ماتت سونيا، لا أدري، نهاية الحياة الزوجيّة، العزلة أثناء كلّ ذلك، العزلة العاهرة بعد أن فقدتُها، وبعدها حين دمّرتُ السيّارة المستأجرة، محطّمًا ساقي، حتى كدتُ أقتل نفسي خلال الحادث. لعلّ الآتي سيُضاف أيضًا إلى ذلك: اللامبالاة، الإحساسُ بأنّه بعد أن عشتُ اثنين وسبعين عامًا على هذه الأرض، مَنْ ذا يكترث إنْ كتبتُ عن نفسي أو لم أكتب؟ فلم يكن فيها ما يشدّني، ولا حين كنتُ شابًّا، وبكلّ تأكيد لم يتكوّن لديّ أيّ طموح في أن أؤلّف

كتابًا. أحببتُ قراءة الكتب، لا أكثر، قراءتَها ثم الكتابَةَ عنها بعد ذلك، لكنّني كنتُ دائمًا العدّاءَ ـ لا الرجلَ عدّاءَ المسافات الطويلة، بل الكلب السلوقي الذي يعمل بأقصى طاقته خلال أربعين عامًا، الخبير في تطويع مقالة من سبع مئة كلمة، ومقالة من ألف وخمسمائة كلمة، وعمود صحفيّ مرّتين في الأسبوع، وتكليفٍ عرَضيٍّ من المجلاّت. كم من آلافٍ منها قد تقيّأتُ؟ عقودٌ من ذباب أيّار، تلالٌ من الصحف المحروقة والمُعاد تكريرها. وعلى عكس معظم زملائي، لم يكن لديّ أدنى ميلٍ لاقتناء جيِّدها، إذا افترضنا أنّ ثمّة جيّدًا بينها، ثم إعادةِ نشرها في كتابٍ لن يتجشّم قارئٌ عاقلٌ مشقّةَ قراءته. فدعِ الغبار يتجمّع على مخطوطي نصفِ المكتمل في الوقت الراهن. لكنّ ميريام جادّة في ما يتعلّق بذلك: فقد أوشكتْ على إنهاء سيرة روزا هاوثورن. وهي تعتصر ساعاتِ ليلها، ونهاياتِ الأسبوع، والأيّامَ التي لا يتوجّب عليها أن تقود السيّارة إلى هامپتون لكي تعطي دروسها. وحيث إنّه في البيت كاتبٌ واحدٌ، فإنّ ذلك سيكون كافيًا.

أين كنتُ؟ مع أوين بريك... يبدأ أوين بريك سيرَه باتّجاه المدينة. الهواء البارد، الارتباك، الحرب الأهليّة الثانية في أميركا. فاتحةُ شيء ما. لكنْ قبل أن أتبيّن ما الذي سأفعله بساحري المشوّش، أحتاج إلى لُحَيْظاتٍ أُمعن خلالها التفكيرَ في كاتيا والأفلام، ما دمتُ عاجزًا عن البتّ في صحّة ذلك أو خطإه. عندما بدأتْ طلبيّاتها من الـ DVD عبر الإنترنت، استقبلتُ الأمرَ على أنّه بادرةُ تحسّن، خطوةٌ صغيرةٌ في الاتّجاه الصحيح. ولئن لم يكن لأمرٍ آخر، فقد بدا لي أنّها كانت ترجو لنفسها الاستغراقَ، والتفكيرَ

في أمرٍ آخر يطغى على تايتوس الميّت. إنّها طالبةُ سينما، في نهاية المطاف، تتدرّب لكي تصبح محرِّرة. وحين بدأتْ أقراصُ الـ DVD تتدفّق إلى البيت، تساءلتُ إنْ كانت تفكّر في العودة إلى المعهد أو أنّها في صدد تعميق ثقافتها بطريقتها الخاصّة. ومع ذلك، فقد بدأتُ، بعد مدّة، أرى أنّ هوسَ مشاهدة الأفلام نوعٌ من الاستشفاء الذاتيّ، عقارُ معالجةٍ مثْليّة homeopathic يخدّرها في مواجهة إلحاح التفكير في مستقبلها. الهروب إلى الفيلم يختلف عن الهروب إلى الكتاب. فالكتب تُرغمك على أن تردّ مقابلاً ما لها، أن تدرّب ذكاءك ومخيّلتك، في حين تُمْكنك مشاهدةُ فيلم ـ بل التمتّعُ به ـ في حالة من الغياب العقلي السلبي. وذلك لا يعني أنّي حَكَمْتُ على كاتيا بأنّها قد أحالت نفسها حجرًا: فهي تبتسم، بل إنّها أحيانًا تُطْلِق ضحكةً صغيرةً خلال المشاهد المضحكة في الأفلام الكوميديّة، وقد يَحْدث أن يَنْشط أنبوبا الدمع لديها أثناء المشاهد الانفعاليّة في الدراما. أضفْ إلى ذلك الوضعيَّة التي تتّخذها، كما أظنّ، طريقةُ استرخائها على الصوفا بقدميها المتمدّدتين على طاولة القهوة، بلا حراك لساعاتٍ حتى نهاية الجلسة، رافضةً أن تتزحزح لمجرّد الردّ على الهاتف، مبديةً أقلَّ ما يمكن، من علائم الحياة، أو ربّما لا شيءَ منها، إلاّ حين ألمسُها وأحضُنها. لعلّها غلطتي: فأنا الذي شجّعتُها على أن تعيش حياةً مسطّحةً كهذه، وربّما عليّ وضعُ حدّ ـ رغم شكّي في أنّها ستستجيب لي إنْ حاولتُ ذلك.

وفي المقابل، ثمّة أيّامٌ أفضلُ من الأخرى. فكلّما أنهينا مشاهدة فيلم، نتحدّث حوله لبعض الوقت، قبل أن تباشر كاتيا عرض الفيلم

التالي. عادةً ما أحبّ مناقشة القصّة ومدى براعة الأداء، في حين تنحو تعليقاتُها إلى التركيز على الجوانب التقنيّة في الفيلم: إعدادات الكاميرا، التحرير، الإضاءة، الصوت، وغيرها. الليلةَ الفائتةَ بالضبط، بعد أن شاهدنا ثلاثة أفلام أجنبيّة متتالية ـ *الوهم الكبير*، *لصّ الدرّاجة*، و*عالَم آبو* ـ قَدّمتْ كاتيا عدّة تعليقات ذكيّة وثاقبة، ترسم معالم النظريّة السينمائيّة التي أثّرت في نفسي لدقّتها وإبداعها.

ـ إحياء الأشياء، قالت.

ـ ما لها؟ سألتُ.

ـ إحياء الأشياء كوسيلة للتعبير عن عواطف الإنسان. تلك هي لغة الفيلم. المخرجون القديرون وحدهم يفهمون كيف ينجزونها. ويبقى رينوار، ودي سيكا، وراي، أفضل ثلاثة، أليسوا كذلك؟

ـ لا شكّ في ذلك.

ـ فكِّر في المشاهد الافتتاحيّة من *لصّ الدرّاجة*. يحظى البطل بفرصة عمل، لكنّه لن يتمكّن من القيام به إذا لم يخلّص درّاجته من الرَّهْن. يعود إلى البيت مفعمًا بالأسى على حاله. وهناك زوجته، خارج بنائهم السكنيّ، تنوء بحَملِ سطليْ ماءٍ ثقيليْن. كلّ فَقْرهم، كلّ معاناة هذه المرأة وعائلتها، تتكثّف في ذينك السطلين. والزوج، الذي تلفّه الأزماتُ إلى أقصى الحدود، لن يتجشّم عناءَ مساعدتها إلى أن يقطعا نصفَ المسافة إلى باب البيت. بل هنا أيضًا، لا يأخذ عنها إلاّ سطلاً واحدًا، تاركًا لها أمرَ السطل الآخر. كلّ الذي نحتاج أن نعرفه عن زواجهما قد وصَلَنا في ثوانٍ

قليلة. ثم يصعدان الأدراج إلى شقّتهما، لتأتي الزوجةُ بفكرة رهن بياضات السرير، وبذلك يمكنهما استردادُ الدرّاجة. تذكّر طريقَتَها العنيفةَ في رفس السطل في المطبخ، تذكّر طريقَتها العنيفةَ في فتح دُرْج الديوان. ذلك هو إحياءُ الأشياء، والمشاعر البشريّة. بعدها نأتي إلى متجر الخردوات، وهو ليس متجرًا بكلّ معنى الكلمة، بل مكانٌ واسع، يشبه مستودعًا لخزن البضائع الكاسدة. تبيع الزوجةُ الأغطية، لنرى بعدها أحدَ العمّال وهو يأخذ صرّتهما الصغيرة ليضعها على أحد الأرفف حيث تُخَزّنُ السلعُ المرهونة. بدايةً، لا تبدو هذه الأرفف عالية جدًّا، ثم تتراجع الكاميرا. وبينما يَشْرع الرجلُ في الصعود، نلحظ المزيدَ المزيدَ ثم المزيد منها، حتى تصل السقف، وكلُّ رفٍّ أو حجيرة تكتظّ حتى الامتلاء بصُررٍ مطابقةٍ للتي يضعها الرجلُ الآن على الرفّ. وسنُصدم بما يبدو أنّ كلّ عائلةٍ في روما باعت بياضاتها؛ فالمدينة برمّتها تعيش حالةَ البؤس أسوةً بالرجل وزوجته. في لقطةٍ واحدةٍ، يا جدّي. في لقطة واحدة، تلقّينا صورةً عن مجتمعٍ كاملٍ يعيش على شفا الكارثة.

ـ لا بأس، يا كاتيا. وتدورُ الدواليب...

ـ اكتشفتها الليلةَ فقط. لكنّني أظنّ أنّي موشكةٌ على أمرٍ ما، منذ شاهدتُ أمثلةً في الأفلام الثلاثة الأخرى. هل تتذكّر الأطباق في *الوهم الكبير*؟

ـ الأطباق؟

ـ تمامًا في نهاية الفيلم. يبوح غابين إلى المرأة الألمانيّة بحبّه، وبأنّه سيعود إليها وابنتِها عندما تنتهي الحرب. لكنّ الجيش يستعدّ

الآن للرحيل، ويجب عليه وعلى داليو أن يحاولا عبورَ الحدود إلى سويسرا قبل أن يفوت الأوان. أربعتُهم يتناولون آخر وجبة تجمعهم، وستأتي اللحظة التي سيقولون فيها كلمةَ الوداع. إنّها بالتأكيد لحظةٌ مؤثّرة جدًّا، غابين والمرأة واقفان في الممرّ المؤدّي إلى الباب، ومن المحتمل ألاّ يرى واحدُهما الآخرَ مرّةً أخرى، ثم دموعُ المرأة، بينما يتوارى الرجلان في عتمة الليل. يقطع رينوار المشهدَ لنرى غابين وداليو يركضان عبر الغابات، وسأُراهن بما لديّ من مال بأنّ أيّ مُخرج آخر في العالم كان سيبقى عند مشهد الباب حتى نهاية الفيلم. لكنّ رينوار يمتلك العبقريّة - وحين أقول «*العبقريّة*»، فإنّني أعني الدرايةَ، ورهافة القلب، والرحمة - التي تجعله يعود إلى المرأة وابنتها، إلى الأرملة الشابّة التي فَقدتْ للتوّ زوجَها في جنون الحرب. وماذا يجب عليها أن تقوم به؟ عليها أن تعود إلى داخل البيت، وتواجِهَ طاولةَ الطعام والأطباقَ المتّسخة عقب الوجبة التي تناولوها منذ هنيهات. لقد رحل الرجلان الآن؛ ولأنّهما رحلا، فقد تمّتْ إحالةُ تلك الأطباق إلى رمزٍ لغيابهما. المرأة الوحيدة المتألّمة عندما يغادر الرجال إلى الحرب، واحدًا تلو الآخر، من دون أن تنبس بكلمة، تَرْفع الأطباقَ وتنظّف الطاولة. كم كان طولُ هذا المشهد؟ عشر ثوانٍ؟ خمس عشرة ثانية؟ لم يستغرق شيئًا، لكنّه استلب منكَ الأنفاس، أليس كذلك؟ إنّه ليُحرِّضُ أحشاءك على أن تَخرج لتخرج منك!

- أنت فتاةٌ جريئة، قلتُ. يخطر لي تايتوس فجأةً.

- جدّي، توقّفْ. لا أريد أن أتحدّث عنه. ربّما في وقت آخر، لكنْ ليس الآن. اتّفقنا؟

ـ اتّفقنا. دعينا في موضوع الأفلام. لا يزال هناك فيلمٌ واحدٌ ثم ننتهي. الفيلم الهنديّ. أظنّ أنّني أحببته أكثر من سابقَيْه.

ـ لأنّه يدور حول كاتب، قالت كاتيا، بإيجازٍ قاطع، وابتسامةِ تهكّم.

ـ ربّما. لكنّ ذلك لا يعني أنّه ليس جيّدًا.

ـ لو لم يكن جيّدًا لما اخترتُه. لا أختار بشكل عشوائيّ. تلك هي القاعدة، ألا تذكر؟ من الرّقيع إلى الرّفيع، لكنْ لا عشواء.

ـ معكِ! لكنْ أين الشيء الذي تمّ إحياؤه في فيلم *آبو*؟

ـ فكِّر.

ـ لا أريد التفكير. إنّها نظريّتك. لذلك أنتِ التي ستقولين.

ـ الستائر وملاقط الشعر. التحوّل من حياة إلى أخرى، نقطة التحوّل في القصّة. يذهب آبو إلى الريف لكي يَحْضر عرسَ ابن عمّ صديقٍ له. زواج تقليدي مُدَبَّر. وحين يَظهر العريس، يتبيّن أنّه معتوه، مغفّل، مُصاب بالهذيان. يُلغى الزفاف. حالة من الذعر انتابت والدَيْ ابن عمّ الصديق، الذعر من أن تبقى ابنتُهما ملعونةً إلى أبد الآبدين إذا لم تتزوّج في تلك الظهيرة. آبو مستغرق في النوم في مكانٍ ما تحت الأشجار، غيرَ عابئ بالعالم من حوله، سعيدًا لكونه خارج المدينة لعدّة أيّام. عائلة الفتاة تقترب منه وتتحدّث إليه، وتشرح له بأنّه الرجل الوحيد غير المتزوّج المتوفّر حاليًّا، وبذلك سيكون الوحيدَ الذي يمكنه حلُّ مشكلتهم. آبو في حالة انشداه. يفكّر في أنّ بهم مسًّا، في أنّهم جماعةٌ من الريفيّين

المشوَّشين المتطيّرين، لذا يرفض مجاراتهم. ثم يقلّب الأمرَ في نفسه لوهلة، ويقرّر أن يَقْبل، كنوع من المعروف، لفتةَ إيثارٍ، من دون أن يكون في نيّته اصطحابُ الفتاة معه إلى كالكوتا. أخيرًا، بعد انتهاء مراسم الزفاف، وحين يخلوان أحدهما إلى الآخر لأوّل مرّة، يكتشف آبو أنّ تلك الصبيّة الوديعة أصعب مراسًا ممّا كان يتخيّل بكثير. أنا مُعْدَم، يقول، أريد أن أكون كاتبًا، لا أملك ما أقدِّمُه إليك. أعرف، تقول؛ لكنّ ذلك لن يثنيَها، فلقد حسمتْ أمرَها بالذهاب معه. وبين السخط والذهول، يستجيب قرارها، ويسلِّم على مضض. ينقطع المشهد وننتقل إلى المدينة. تتوقّف العربة أمام بناءٍ آيلٍ إلى السقوط حيث يعيش آبو، يترجّل وعروسه منها. يتجمّع الجيرانُ من كلّ حدب محدّقين ببلاهة إلى الفتاة الجميلة، يتقدّمها آبو، صاعدَيْن الدرجَ إلى السقيفة الصغيرة المزْرية. بعد لحظة، يستدعيه شخصٌ ما ويغادر. لا تزال الكاميرا تركّز على وجه الفتاة، وحيدةً في هذه الغرفة الغريبة، والمدينة الغريبة، متزوِّجةً من رجل لا تعرفه إلاّ بشقّ النفس. تخطو أخيرًا نحو النافذة، التي عُلّقتْ فوقها قطعةُ خيشٍ كريه بدلاً من الستارة. ثمّة ثقبٌ في الخيش. تنظر عبر الثقب إلى الفسحة الخلفيّة. هناك يَدْرج طفلٌ في الحفاظ بين الأتربة والأنقاض. ترتدّ زاويةُ الكاميرا، فنرى عينَها عبر الثقب. دموعٌ تسيل من تلك العين: مَن له أن يلومَها لشعورها بالإجهاد، والخوف، والضياع؟ يعود آبو إلى الغرفة ويسألها ما بها. لا شيء، تقول، وهي تهزّ رأسَها، لا شيء البتّة. بعدها تتلاشى الصورة لتصل بنا إلى السواد. وهنا السؤال الكبير: وماذا بعد؟ ما الذي ينتظر هذين الزوجين المختلفَين اللذين انتهيا

إلى الزواج بمحض المصادفة؟ بحركاتٍ قليلةٍ متقنةٍ وحاسمة، سيتكشّف لنا كلُّ شيء في أقلّ من دقيقة. الموضوع رقم واحد: النافذة. تأخذ الصورةُ في الإعتام، بدايةَ الصباح، أوّلُ ما رأيناه هو النافذة التي كانت الفتاة في المشهد السابق تنظر من خلالها. لكنّ الخيشة الرثّة قد ذهبتْ، وحَلّت محلَّها ستارتان مخطّطتان نظيفتان. تتراجع الكاميرا قليلاً، وهنا الموضوع رقم اثنين: أصصُ الزهر على حافّة النافذة. تلك إشاراتٌ مبشِّرةٌ، ولكنْ لا يمكننا التأكّدُ حتى الآن ماذا تعني. أُلفة الحياة المنزليّة، الولاء، اللمسة الأنثويّة. لكنّ ذلك ما يُفترض أن تفعله الزوجات، ولمجرّد أنّ زوجة آبو قامت بواجباتها على أحسن وجه لا يعني بالضرورة أنّها تحبّه. تتابع الكاميرا التراجعَ، لنرى الاثنين نائمين في الفراش. يرنّ منبّهُ الساعة، ثم تنزل الزوجة من على الفراش، بينما يهمهم آبو متذمّرًا ويدفن رأسَه في المخدّة. الموضوع رقم ثلاثة: ساريها[1]. فبعد أن تترك الفراشَ لتبدأ السير بعيدًا عنه، تتوقّف فجأةً ـ لأنّ بعضَ ثوبها قد عَلِقَ بثوب آبو. غريب جدًّا. مَن يمكنه أن يفعلها ـ ولماذا؟ الأثر الذي يتركه ذلك على وجهها هو مزيجٌ من الانزعاج والسرور، وحينها ندرك على الفور أنّ آبو كان المسؤول. تعود إلى السرير، تصفع قفاه برقّة، ثم تحرّر ثوبها. ماذا تريد هذه اللقطة أن تقوله لنا؟ أنّهما قد مارسا الجنسَ بشكل جيّد، وهو ما جعل حسَّ المداعبة ينمو بينهما، وبذلك يكونان متزوّجين. وماذا عن الحبّ؟

---

(١) الساري، ثوب ترتديه الهندوسيّات، مؤلّفٌ من بضع ياردات من النسيج الرقيق يُلَفُّ بها الجسم بحيث يشكّل أحد طرفيها تنّورة ويشكّل الآخر غطاءً للرأس أو الكتف. **المورد**.

يبدو أنّهما راضيان. ولكنْ ما مدى قوّة مشاعر أحدهما تجاه الآخر؟ هنا يبرز الموضوع رقم أربعة: دبّوس الشعر. تغادرُ الزوجةُ الكادرَ لتحضِّر الإفطار، وتُغْلِقُ الكاميرا على آبو، الذي تمكّن أخيرًا من أن يفتح عينيه. وبينما هو يتثاءب ويتمطّى متلوّيًا في السرير، تقع عيناه على شيءٍ ما في ثنيّةٍ بين المخدّتين. يمدّ يده ويلتقط أحد دبابيس شعر زوجته. تلك هي اللحظة الذروة. حين يمسك دبّوسَ الشعر ويطيل التأمّلَ فيه، وإذ تنظر إلى عينيْ آبو، تلقى العذوبة والافتتان، وستدرك بما لا يدع مجالاً للشكّ أنّه غارق في حبّها حتى الجنون؛ فهي إذًا امرأتُه الأبديّة. ويتوصّل رايْ إلى ذلك دون أن يستعمل كلمةَ حوارٍ واحدة.

ـ بالضبط مثل الأطباق، قلتُ. بالضبط مثل صرّة البياضات. لا كلمات.

ـ لا ضرورة للكلمات، ردّتْ كاتيا. ليس حين تدرك ما تقوم به.

ـ ثمّة أمر آخر يتعلّق بتلك المشاهد الثلاثة. لم أكن أعيهِ ونحن نشاهد الأفلام. لكنّ الإصغاء إليكِ، وأنت تقومين بوصفها الآن، جعله يقفز إلى ذهني.

ـ وما هو؟

ـ كلّ الأفلام كانت عن المرأة، وكيف أنّ العالم يقع على عاتق المرأة. فالنساء يُعنين بالقضايا العميقة، بينما يتعثّر رجالُهنّ قليلو الحظّ مخلِّفين الارتباك، أو يختلقون الأكاذيبَ ولا ينجزون شيئًا. هذا ما حصل بعد الدبّوس. ينظر آبو إلى زوجته في الطرف الآخر

من الغرفة، وهي منكبّة على إبريق تحضّر الإفطارَ، فلا ينبري لمساعدتها. وكذلك الأمر بالنسبة إلى الرجل الإيطاليّ الذي لم ينتبه إلى مدى القسوة التي كانت زوجته ترزح تحتها جرّاء ثقل سطلَيْ الماء.

ـ وأخيرًا، قالت كاتيا وهي تلكزني بلطف، ثمّ رجلٌ ذلك!

ـ دعينا لا نشطّ. أنا أضيف حاشيةً إلى نظريّتك لا أكثر، نظريّتكِ البالغةِ الفطنةِ، إنْ كان لي أن أضيف ذلك.

ـ وأيُّ صنفٍ من الأزواج كنتَ، يا جدّي؟

ـ خَمُولٌ ومشتَّتٌ مثل المهرّجين في تلك الأفلام. جدّتكِ كانت تقوم بكلّ شيء.

ـ ليس صحيحًا ما تقوله؟

ـ بلى، صحيح. عندما كنتِ تأتين إلينا، كنت أتصرّف دائمًا على أكمل وجه. كان عليكِ أن تشاهدينا بينما نحن وحيدان.

أتأنّى لوهلةٍ لكي أُصْلحَ وضْعيّةَ استلقائي على الفراش. أعدِّل الوسادة، وآخذ رشفةَ ماءٍ من كوبٍ على الطاولة الجانبيّة. لا أريد الشروع في التفكير في سونيا. فذلك من المبكر جدًّا. وإذا تركتُ لنفسي العنانَ، فلن أكفَّ عن التفتّق لساعات. فلأبقَ في القصّة. هذا هو الحلُّ الوحيد. فلأبقَ في القصّة، ولنرَ ماذا يحدث إذا بلغتُ الخاتمة.

أوين بريك. أوين بريك في طريقه إلى مدينة ويلينغتون، التي لا يعرف لأيّة ولايةٍ تَتْبع، ولا في أيّ شطر من البلاد تقع، ولكنْ بسبب رطوبة الهواء وبرودته، يخمّن أنّه في الشمال، ربّما نيو إنغلاند، ربّما ولاية نيويورك، ربّما مكان ما في ولايات الشمال الغربي. ومن ثم يتساءل، مستعيدًا حديثَ سيرج سيرج حول الحرب الأهليّة، عن سبب القتال ومَن يقاتلُ مَن. أهو الشمالُ ضدّ الجنوب من جديد؟ الشرقُ ضدّ الغرب؟ الأحمرُ ضدّ الأزرق؟ الأبيضُ ضدّ الأسود؟ مهما يكن الباعثُ على الحرب، كما يحدِّث نفسَه، ومهما تكن القضايا والرؤى التي يُراهَن عليها، فليس لأيٍّ

منها معنى. كيف يمكن أن تكون هذه أميركا إذا كان توباك لا يدري شيئًا عن العراق؟ بكلّ مشاعر الخسارة، يَنْكص بريك إلى ظنّه السابق بأنّه رهينُ حلم؛ فعلى الرّغم من كلّ الدلائل الحسِّيّة التي تحيط به، فإنّه لا يزال مستلقيًا على السرير إلى جوار فلورا في البيت.

الرؤية شحيحة، لكنّ بريك استطاع بصعوبة، عبر الضباب، أن يتبيّن أنّ الغابات تحفّ به على جانبي الطريق، وأنّه لم تكن هناك بيوتٌ أو أبنيةٌ في أيّ مكانٍ في المدى المنظور. لا أعمدة هاتف، لا إشارات مرور، لا دليل على حضور الإنسان باستثناء الطريق نفسه، وهو عبارةٌ عن امتداد من القار والإسفلت لم يُعَبَّدْ بشكلٍ متقن، ويشوبه الكثيرُ من الحفر والصدوع، وهو ما يدلّ بلا أدنى شكّ على أنّه لم تتمّ صيانتُه منذ سنوات. يتابع السير ميلاً، فميلاً آخر، وحتى الآن لم تَعْبر أمامه سيّارةٌ واحدة، ولم ينبثق آدميٌّ من الفراغ. أخيرًا، بعد عشرين دقيقة أو نحوها، يسمع شيئًا يقترب منه، صوتَ قعقعةٍ مندفعًا لم يَسمح له الألمُ المبرّحُ بأن يتبيّن ماهيّته. ومن الضباب يَظهر رجل على درّاجة محرّكًا دوّاستيْها بقدميه متّجهًا صوبه. يرفع بريك يده لكي يلمحه الرجل، مناديًا «*مرحبًا، من فضلك يا سيّدي*»، لكنّ راكب الدرّاجة يتجاهله ويَعْبره بسرعة الريح. بعد برهة، يبدأ المزيدُ من راكبي الدرّاجات بالظهور، بعضُهم في اتّجاه، والبعضُ في اتّجاه آخر. وإذ يحثّهم بريك على التوقّف فإنّهم لا يُبْدون ما يشير إلى أنّه مرئيّ.

بعد أن يقطع خَمسة أميال أو ستّةً من الطريق، تبدأ علاماتُ

الحياة في الظهور ـ أو بالأحرى علاماتُ حياةٍ سابقة: بيوتٌ محترقة، متاجرُ طعام متداعية، كلبٌ ميت، وبضعة سيّارات منفجرة. سيّدة عجوز ارتدتْ أسمالاً تدفع عربةُ تسوُّقٍ ملأى بمقتنياتها الخاصّة تلوح أمامه على نحو مفاجئ.

ـ أستميحكِ العذر، يقول بريك، هل لكِ أن تقولي لي إنْ كان هذا هو الطريقَ إلى ويلينغتونِ؟

تتوقّف المرأة وتحدّق في بريك بعينين غير مدركتين. يلحظُ خصلات شَعرٍ متفرّقةً تنبت على ذقنها، وفمَها المتغضّن، ويديها المليئتين بالعُقد والمصابتين بالتهاب المفاصل.

ـ ويلينغتون؟ تقول. مَن سألكَ عنها؟

ـ لم يسألني أحد، قال بريك، أنا مَن يسألك.

ـ أنا؟ وما شأني بها؟ ثم إنّي لا أعرفك.

ـ وأنا أيضًا لا أعرفك. كلُّ ما أسألك عنه هو إنْ كان هذا الطريق يؤدّي إلى ويلينغتون.

تتفحّص المرأة بريك للحظة وتقول:

ـ سيكلّفك ذلك خمسةَ دولارات.

ـ خمسة دولارات لمجرّد نعم أو لا؟ لا بدّ أنّكِ فقدتِ عقلك.

ـ الكلّ هنا فقد عقلَه. هل تحاول أن تقول لي إنّك لم تفْقد عقلك؟

ـ أنا لا أحاول أن أقول لك أيَّ شيء. أريد فقط أن أعرف أين أنا.

ـ أنت تقف على الطريق، أيّها المغفّل.

ـ نعم، رائع، أنا أقف على الطريق، لكنّ ما أريد معرفته هو إنْ كان هذا الطريق يؤدّي إلى ويلينغتون.

ـ عشرة دولارات.

ـ عشرة دولارات؟

ـ عشرون دولارًا.

ـ انسَي الأمر، يقول بريك، موشكًا أن يفقد صبرَه. سأعرفُ بنفسي.

ـ ستعرف ماذا؟ تسأل المرأة.

وبدلاً من أن يجيبها بريك، فقد شرع بالسير من جديد. وبينما راح يوسع خطاه في الضباب، يسمع المرأة وهي تنفجر بالضحك خلفه، كما لو أنّ أحدًا قال لها نكتةً ظريفة...

شوارع ويلينغتون. يدخل المدينة ما بعد الظهيرة، مرهقًا وجائعًا، تؤلمه قدماه بسبب مشقّات الرحلة المضنية. تُلهِبُ الشمسُ ضباب الصباح الباكر. وبينما يتجوّل متسكّعًا في الطقس الصافي البالغة حرارتُه ستّين درجةً، يلتفت إلى تفحّص الأضرار المتفاوتة التي لحقتْ بالمكان، عدا المنطقة التي دكّتْها الحربُ وخَلّفتْ أكوامًا من الأنقاض وجثث المدنيّين. يرى عددًا من الأبنية المهدّمة، والشوارع التي أُحْدثت فيها الحُفَر، وبضعة متاريس مدمَّرة. وباستثناء ذلك تبدو ويلينغتون مدينةً نابضةً، بالمشاة الذاهبين والآيبين، والبشر الذين يدخلون ويخرجون من المتاجر،

ولا نذير لتهديدٍ يلوحُ في الأفق. والشيء الوحيد الذي يميّزها من حواضر المدن الأميركيّة الاعتياديّة هو أنْ لا سيّارات، لا شاحنات، ولا حافلات فيها. فالكلّ تقريبًا يمشي، والذين لا يمشون يعتلون درّاجاتهم. من المستحيل بالنسبة إلى بريك أن يَعْلم أنّ ذلك نتيجةٌ لِنقص الوقود الحادّ، لسياسة البلديّة، لكنّ عليه الاعتراف بأنّ للهدوء آثارًا طيّبة، مقارنةً بفوضى نيويورك وضوضائها. ثم إنّ هناك المزيدَ ممّا يدفع المرء إلى تزكيتها. فهي مكان جائر، موغلٌ في الانحطاط، أبنيتُها وضيعةٌ بشعةُ الإنشاء، بلا شجرة واحدة في المشهد، أكوام من القمامة التي لم تُرفع تغطّي الأرصفة. قد تكون مدينة كئيبة، لكنّها ليست قادمةً من قاع الجحيم كما كان بريك يتوقّع.

أُولى المهمّات أن يملأ معدته، لكنّ العثور على مطعم في ويلينغتون يبدو عسيرًا. يطوف لبعض الوقت قبل أن يقع على مطعم صغير في زقاق جانبيّ يتفرّع عن أحد الشوارع الرئيسة. الساعة تقارب الثالثة. مضت ساعةُ الغداء منذ وقت طويل. وحين يدخل المكان يجده خاليًا. إلى يساره نضدٌ تصطفّ أمامه ستّةُ كراسٍ خالية مرتفعة بلا مسند. إلى يمينه، على الجدار المقابل، تنتظم أربعُ طاولاتٍ تتّصل كلٌّ منها بمقعدين، وهي خالية أيضًا. يقرّر بريك أن يجلس إلى النضد. ثوانٍ تمرّ بعد أن يستقرّ على أحد الكراسي المرتفعة، تظهر امرأة شابّة من المطبخ فتُلقي أمامه لائحةَ الوجبات. عمرُها يتراوح بين أواسط العشرينات وأواخِرها، نحيلة، شاحبةُ الشقار، تطلّ من عينيها نظرةٌ ضجِرَةٌ، وعلى شفتيها طيفُ ابتسامةٍ ضئيل

ـ ما الشهيّ اليوم؟ يسأل بريك، دون أن يتكبّد فتحَ لائحة الوجبات.

ـ الأنسب هو، ماذا *لدينا* اليوم، تجيبُ النادلة.

ـ آه؟ حسنًا، ما هي الخيارات؟

ـ سَلَطةُ التونا، سلطةُ الدجاج، بالإضافة إلى البيض. سلطة التونا حُضِّرتِ البارحة، وسلطةُ الدجاج مضى عليها يومان. والبيضُ وصل هذا الصباح، وسنقوم بطهوه بالطريقة التي تختارُها: مقليًّا، مخفوقًا، مسلوقًا من دون قشر، قاسيًا، متوسّطًا، ليّنًا. ما تشاء، كيفما تشاء.

ـ أثمّة أيّ لحم خنزيرٍ أو سجق؟ أيُّ خبزٍ محمّص أو بطاطا؟

تُدَوِّرُ النادلةُ عينيها بازدراء اللامصدِّق:

ـ احلمْ، يا حبيبي، تقول. هناك البيض أو البيض، لا البيض مع أيّ شيء آخر. فقط البيض.

ـ حسنًا، يقول بريك. وعلى الرّغم من شعوره بالخيبة فإنّه سيحافظ على مظهره الطيّب. دعينا نتحدّث عن البيض.

ـ كيف تريده؟

ـ فلأفكِّرْ... كيف أريده؟ أريده مخفوقًا.

ـ كم بيضةً؟

ـ ثلاث بيضات. لا، فلتكن أربعًا.

ـ أربع بيضات؟ هذا سيكلّفك عشرين دولارًا، كما تعلم. تزمّ

النادلةُ عينيها، وتتطلّع إلى بريك كأنّها تراه للمرّة الأولى. ثم تضيف وهي تهزّ رأسَها: ماذا تفعل بعشرين دولارًا في جيبك في مَقْلبِ نفاياتٍ كهذا؟

ـ لأنّني أريد بيْضًا، يجيب بريك. أربع بيضاتٍ مخفوقة، تقدّمُ إليَّ من قِبَل...

ـ مولي، تقول النادلة، بابتسامة. مولي وولد.

ـ ... من قِبل مولي وولد. أثمّة اعتراضٌ على ذلك؟

ـ ولا مجرّد التفكير في الاعتراض.

وبذلك يكون بريك قد أَكمل طلبيّة البيضات الأربع المخفوقة، جاهدًا في أن يحتفظ بالنبرة المازحة، المعتدلة، مع مولي وولد النحيلة غير الشديدة العدائيّة. لكنْ، في خلفيّة كلّ ذلك، كان يحْسب أنّ النقود التي أعطاه إيّاها توباك هذا الصباح لن تدوم طويلاً وسط أسعارٍ كهذه ـ تصل البيضةُ إلى خمسة دولارات حتى من دون إضافة ما يعادل ملءَ ملعقة من الزيت. وبينما تستدير مولي لتُمْلي الطلبيّة على مَن في المطبخ خَلْفَها، يتساءل بريك إذا كان يمكنه الشروعُ في سؤالها عن الحرب أمْ ينسى الأمر ويبقي فمَه مغلقًا. ومن غير أن يصل إلى قرار بذلك، يطلب كوبًا من القهوة.

ـ مع الأسف، لا أحد يستطيع تقديمَ ذلك، تقول مولي. لقد نفدت القهوة لدى الجميع. ثمّة فقط الشايُ الساخن. أستطيع أن أحضّر بعضَ الشاي الساخن إنْ أحببتَ.

ـ فليكن، يقول بريك. كوب من الشاي. وبعد هنيهة من التردّد، يستجمع شجاعته ويسأل:

ـ لمجرّد الفضول فقط، كم ثمنُه؟

ـ خمسة دولارات.

ـ خمسة دولارات؟ يبدو أنّ كلّ شيء هنا يكلّف خمسة دولارات.

سيرتدّ تعليقُه عليه بوضوح، إذ تميل مولي إلى الأمام، وتعتمد بيديها على النضد، وتهزّ رأسَها:

ـ أنتَ مغفّل نوعًا ما، أليس كذلك؟

ـ ربّما، يقول بريك.

ـ لقد توقّفنا عن استعمال فئة الدولار الواحد، وكذلك النقود المعدنيّة، منذ ستّة أشهر. أين كنتَ، يا صديقي؟ أأنت أجنبيّ أو ما شابه ذلك؟

ـ لا أدري. أنا من نيويورك. أيجعلني ذلك أجنبيًّا؟

ـ مدينة نيويورك؟

ـ كوينز.

ندّتْ عن مولي ضحكةٌ صغيرةٌ حادّة، بدا أنّها تمرِّر عن طريقها الازدراءَ والرثاءَ معًا تجاه زبونها الذي «لا يعرف ـ شيئًا».

ـ إنّه ترَفٌ، تقول، ترفٌ حقيقيّ. شخصٌ من نيويورك لا يدرك الفرقَ بين طيزه ومرفقِه.

ـ أنا... أوه...، يتلعثم بريك، كنتُ مريضًا. غير مؤهَّل. تعلمين، في المشفى، ولم يتسنَّ لي أن أتابعَ مجرياتِ الأحداث.

ـ حسنًا، لمعلوماتك، يا سيِّد أحمق، تقول مولي، نحن في حالة حرب، ونيويورك بدأتْها.

ـ أوه؟

ـ نعم، *أوه*. الانفصال. ربّما سمعتَ به. عندما تعلنُ ولايةٌ استقلالَها عن باقي البلاد. هناك ستَّ عشرة معنا الآن، والله يعلم متى ستنتهي. لا أقول إنه شيء سيّئ، لكنْ كفى، لقد طَفَحَ الكيلُ. إنّها تهلكنا، وقريبًا سنسأمُ القضيّةَ برمّتها.

ـ كان هناك الكثيرُ من إطلاق بنادق ليلةَ البارحة، يقول بريك. فلأسألْكِ يا عزيزتي سؤالاً مباشرًا: مَن انتصر؟

ـ الاتّحاديّون هاجمونا، لكنّ قوّاتنا تصدّت لهم. وأشكّ في أنّهم سيعيدون الكرّةَ في القريب.

ـ هذا يعني أنّ الأمور آخذةٌ في الهدوء النسبيّ في ويلينغتون.

ـ الآن على الأقلّ، نعم. أو هذا ما يقولونه. لكنْ مَن يدري؟

يُعلِنُ صوتٌ من المطبخ: *أربعُ بيضات مخفوقة*. وبعد هنيهة يَظهر طبقٌ أبيض على رفٍّ خلفَ مولي. تستدير، ترفع وجبةَ بريك، وتضعها أمامه. وتبدأ بإعداد الشاي.

يتّضح أنّ البيض جافٌّ ومطهوٌّ أكثرَ ممّا ينبغي، ولن تسعفَ رشّةٌ صحِّيّةٌ من الملح والفلفل في إضفاء النكهة عليه. نصفَ ميّتٍ من الجوع بعد مسير اثنيْ عشر ميلاً، يَغْرف بريك ملءَ شوكته إلى فمه واحدة بعد الأخرى. يلوكِ بصعوبةٍ البيضَ الذي له قوامُ المطّاط، ثم يغسله برشفات متناوبة من الشاي ـ الذي لم يكن ساخنًا كما

قالتْ، بل فاتر. لا يهمّ، يقول في سرّه. فبوجود العديد من الأسئلة غير المُجابة التي ينبغي التعاملُ معها، فإنّ نوعيّة الطعام هي آخرُ ما يقلقه. يستريح لوهلةٍ في منتصف صراعه مع البيض. يستعرضُ بريك مولي، التي لا تزال تقف خلف النضد، تراقبه وهو يأكل، ويداها معقودتان على صدرها. تريحُ ثقلَ جسدها على رجلها اليسرى حينًا، وعلى اليمنى حينًا آخر. ترمش عيناها الخضراوان بما يبدو مرحًا تحاولُ إخفاءه.

ـ ما المضحِكُ؟ يسأل.

ـ لا شيء، تقول، وهي تهزّ كتفيها باستهجان. إنّك فقط تأكل بسرعة غريبة، تُذَكِّرُني بكلبٍ اقتنيناه عندما كنتُ طفلة.

ـ آسف، يقول بريك، أنا أتضوّر جوعًا.

ـ هذا ما توصّلتُ إليه.

ـ لعلّكِ توصّلتِ أيضًا إلى أنّي حديثُ العهد بهذا المكان، يقول. لا أعرف أحدًا في ويلينغتون، وأحتاج إلى مكانٍ آوي إليه. أتساءل إذا كانت لديك أيّة فكرة.

ـ كم المدّة؟

ـ لا أعرف. ربّما ليلة، ربّما أسبوع، ربّما إلى الأبد. من المبكّر أن أبتَّ في ذلك.

ـ أنتَ غير واضح أبدًا بشأن ذلك، ألستَ كذلك؟

ـ لا حلّ بيدي. أنا في وضعٍ، كما ترين، شاذّ، وكمن يتعثّر في

الظلام. الواقع أنّني لا أدري في أيّ يومٍ نحن.

ـ الخميس، التاسع عشر من نيسان/ أبريل.

ـ التاسع عشر من نيسان. جيّد. ها قد قلتُها لتوّي. ولكنْ في أيّ عام؟

ـ أتمزح؟

ـ أبدًا، لسوء الحظّ. ما هو العامُ؟

ـ ألفان وسبعة.

ـ غريب.

ـ لماذا غريب؟

ـ لأنّه العام الصحيح، لكنّ كلّ ما سواه خطأ. أَصْغِي إليّ يا مولي...

ـ أنا أُصغي، يا صديقي. كلّي آذانٌ صاغية.

ـ رائع. الآن، إذا تلفّظتُ لكِ بكلمات *الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر*، هل ستعني لكِ شيئًا؟

ـ لا تَحْمل أيّة خصوصيّة.

ـ *ومركز التجارة العالميّة*؟

ـ البرجان التوأمان؟ هذان البناءان العاليان في نيويورك؟

ـ بالضبط.

ـ ماذا بشأنهما؟

ـ أما يزالان قائمَين؟

ـ طبعًا قائمان. ماذا دهاك؟

ـ لا شيء، يقول بريك، مدمدمًا لنفسه بصوتٍ لا يكاد يُسمع. ثم يهمس، وهو ينظر إلى وجبة البيض التي أكل نصفَها: من كابوسٍ إلى آخر.

ـ ماذا؟ لم أسمعك.

يرفع رأسه وهو ينظر مباشرةً في عينيْ مولي، ويسألها سؤالاً أخيرًا:

ـ ولم تقعْ حربٌ في العراق، هل وقعتْ؟

ـ إذا كنتَ تعرف الجوابَ، فلماذا تسألني؟

ـ كان عليَّ أن أتأكّد. سامحيني.

ـ انظرْ يا سيّد...

ـ أوين، أوين بريك.

ـ حسنًا يا أوين. لا أدري مشكلتك بالضبط، ولا أدري ماذا حدث لك في ذلك المشفى. لكنْ لو كنتُ مكانك، لأنهيتُ هذه البيضات قبل أن تَبْرد. سأعود إلى المطبخ لأجريَ اتّصالاً. أحدُ أبناء عمّي هو المدير الليليّ لفندقٍ يقع على الناصية. ربّما عندهم مكانٌ شاغر.

ـ لماذا أنتِ طيّبة معي إلى هذا الحدّ؟ لا تكادين تعرفينني.

ـ أنا لستُ طيّبة. هناك اتّفاق بين ابن عمّي وبيني. فعندما أُرسِلُ

زبونًا إليه، يعطيني عشرة بالمائة من أجرة الليلة الأولى. إنّه بزنس محض، يا رائد الفضاء. إذا وَجَد غرفةً لك، فلن تكون مَدينًا لي بأيّ شيء.

إنّه مدينٌ كما يبدو. ففي الوقت الذي ازدرد فيه آخرَ لقمة من طعامه (مستعينًا برشفة الشاي الذي أصبح الآن باردًا)، عادت مولي من المطبخ لتُبْلِغَه النبأ السّارّ. هناك ثلاثُ غرفٍ متوفّرة، تقول، اثنتان مقابل ثلاثمائة دولار للّيلة، والثالثة بمائتين. ومن دون أن تعلمَ كم يمكنه أن يدفع، أَخذتْ على عاتقها حجزَ غرفة المائتي دولار. وهذا مؤشّر واضح، كما يلاحظ بريك بامتنان، على الرّغم من حديثها الصارم عن *البزنس* المحض، على أنّها قَلّصتْ أجرة طريدتها عشرة دولارات كمعروفٍ يُسدى إليه. ليست الفتلة بهذا السوء، يفكّر، ولا يهمّ كم تَجْهدُ في إخفاء ذلك. يشعر بريك بأنّه وحيد، مفكّك بسبب أحداث الساعات العشرين التي مضت. يتمنّى لو أنّها تترك موقعها خلف النضد وترافقه إلى الفندق. يعلم أنّها لا تستطيع، وأنّه أكثر جبنًا من أن يَطْلب إليها أن تقوم بشيء غير اعتيادي لأجله. بدلاً من ذلك، ترسم مولي مخطّطًا على منديلٍ ورقيّ، يمثّل الطريقَ الذي يجب أن يسلكه إلى فندق إكسيتر، الذي يقع على بعد شارع واحد. ثم يدفع الحساب، ملحًّا أن تَقْبل إكراميّةَ عشرة دولارات. يصافحها مودّعًا.

ـ آمل أن أراكِ ثانيةً، يقول، فجأةً وبسذاجة والدمع يكاد يطفر من عينيه.

ـ أنا دائمًا هنا، تُجيب. من الثامنة وحتى السادسة، من الاثنين

إلى الجمعة. متى رغبتَ في وجبة كريهة، تعرف أين تجدها.

يقع فندق إكسيتر، ذو الطبقات الستّ، المبنيّ من الجير، وسطَ كتلة تضمّ متجرًا لبيع الأحذية بأسعار مخفّضة وحانات شحيحة الإنارة. ربّما كان مكانًا ساحرًا منذ ستّين أو سبعين سنة خلتْ. لكنّ نظرةً واحدةً إلى الرّدهة، بكراسيّها الغائرة ذاتِ المخمل الذي أكله العثُّ، والنخلات الميتة في الأصص، تُنْبئ بريك بأنّ مائتي دولار لن تشتري شيئًا ذا قيمة في ويلينغتون. اِنْشَدَهَ نوعًا ما حين أصرّ موظّفُ الاستقبال على أن يدفَع أجرةَ الليلة مقدّمًا. ولأنّه لم يألفِ العاداتِ المحلّيّة، فإنّه لم يُقْدم على الاعتراض. يعدّ الموظّف، الذي قد تظنّه الأخَ التوأمَ لسيرج توباك، أربعَ أوراق من فئة الخمسين دولارًا، يدسّها في درج تحت النضد ذي الرخام المشقّق، ويسلّم بريك مفتاحَ الغرفة ٤٠٦. لا توقيع أو إثبات هويّة مطلوب. حين يسأله بريك أين يجد المصعد، يخبره الموظّف بأنّه معطّل.

يتوقّف هنيهةً ليستردّ أنفاسه بعد صعود أربعة أدراج. يفتح الباب ويدخل الغرفة. يرى أنّ الفراش قد سُوّيَ. تبدو الجدران البيضاء وبالرائحة التي تنبعث منها وكأنّها قد طُليتْ منذ عهد قريب. كلّ شيء نظيف نسبيًا. ولكنْ ما إنْ يجول بنظره في الأرجاء متفحّصًا، حتى يسيطر عليه إحساسٌ قابضٌ بالرهبة. الغرفة مقزّزة وتبعث على الكآبة الشديدة. يتخيّل أنّ دزّيناتٍ من البشر الفاقدي الأمل قد استأجروا هذا المكانَ على مدى السنين بلا هدفٍ سوى الانتحار. من أين يأتي هذا الإحساس؟ أذلك ما يجول في ذهنه الآن،

يتساءل، أمْ أنّه وليدُ الوقائع؟ قلّة المفروشات، مثلاً: سرير واحد وخزانة واحدة محطّمة تنتصب في فراغٍ متّسع. لا كراسي، لا هاتف. غياب الصور عن الجدران. الحمّام الكئيب الخالي، وقطعة صابون ضئيلة ملقاة في غلافها على المغسلة البيضاء. منشفة يد واحدة بيضاء تتدلّى من على الرفّ. مينا المغطس الأبيض الصدئة. يذرع المكان جيئةً وذهابًا، والرهبةُ تتنامى فيه. يقرّر بريك أن يفتح التلفاز الأبيضَ والأسودَ القديم قرب النافذة. لعلّ ذلك يبعث فيه بعضَ السكينة، يفكّر. أو ربّما، إذا حالفه الحظّ، ستكون القناة الإخباريّة قيد البثّ، وبذلك سيفهم شيئًا ما عن الحرب. أزيزٌ ذو صدًى أجوف ينبعث من الصندوق حينما يضغط الزرّ. إشارة واعدة، يقول في سرّه، لكنْ، بعد انتظار طويل إلى أن يَحْمى الجهاز، لا تظهر صورةٌ على الشاشة. لا شيء إلاّ الثلج، والهسيسُ الحادّ للكهرباء الساكنة. يبدّل القناة. المزيد من الثلج، المزيد من الكهرباء الساكنة. يلجأ إلى مولِّف الأقنية، ولدى كلّ توقّفٍ يعطي النتيجة نفسَها. وبدلاً من إغلاق التلفاز بالطريقة الاعتياديّة، ينزع بريك السلكَ من الحائط. ثم يجلس على السرير العتيق، الذي أصدر صريرًا تحت ثقل جسده.

قبل أن يتسنّى له أن ينتقع في عفن رثاء الذات العبثيّ، يَقرع أحدُهم الباب. لا شكّ أنّه موظّف الفندق، يفكّر بريك. لكنّه في داخله يأمل أن تكونِ مولي وولد؛ فلعلّها تدبّرتْ بطريقة أو بأخرى أمرَ انفلاتها من المطعم لدقيقتين لتطمئنّ عليه وتتأكّد أنّ كلّ شيء على ما يرام. بالطبع، ليس ذلك مؤكّدًا، ولا يكاد يفتح الباب حتى يخيبَ أملُه العابر. لم يكن زائره مولي، ولا موظّف الفندق. بل

وجد نفسه واقفًا أمام امرأةٍ ممشوقة، جذّابة، ذات شعر داكن وعينين زرقاوين، ترتدي جينزًا أسود وسترةَ جلدٍ بنّيّة ـ ثيابًا كتلك التي تَسَلَّمها من سيرج سيرج ذلك الصباح. وبينما يتمعّن بريك في وجهها، يزداد يقينُه أنّه التقاها من قبل، لكنّ عقله يأبى أن يستحضر ذكرى المكان والزمان.

ـ مرحبًا، أوين، تقول المرأة، وقد أَشرقت له بابتسامة صافية خاطفة. ينظر إلى فمها، فيلمح مسحة كثيفة من أحمر الشفاه.

ـ أعرفك، أليس كذلك؟ يجيب بريك. أو، على الأقلّ، أظنّ أنّني أعرفك. أو لعلّك تذكّرينني بأحدٍ آخر.

ـ فرجينيا بلاين، تعلنُ المرأةُ بتهليل، ورنّةُ النصر في صوتها. ألا تتذكّر؟ كنتَ مغرمًا بي في الصفّ العاشر.

ـ يا إلٰهي الرحيم، يغمعم بريك، وهو أكثر ضياعًا من أيّ وقتٍ مضى. فرجينيا بلاين. كنّا نجلس متجاورَين في صفّ الهندسة الذي كانت تُدَرِّسُه الآنسة بلَنْتْ.

ـ ألن تدعني أدخل؟

ـ بكلّ تأكيد، يقول، فاسحًا لها مدخلَ الباب، ومتأمّلاً خطوتها وهي تجتاز العتبة.

حين جالتْ بعينيها في أرجاء الغرفة المجْدبة، الكالحة، التفتتْ إليه قائلةً:

ـ يا لَه من مكان فظيع. لماذا اخترتَ من بين أمكنة الأرض أن تنزل هنا؟

ـ إنّها قصّة طويلة، يُجيب بريك، لم آتِ إليها بإرادتي.

ـ هذا لا يصحّ، يا أوين. يجب أن نجدَ لك شيئًا أفضل.

ـ ربّما غدًا. لقد دفعتُ أجرة الليلة، وأشكّ الآن في أنّهم سيردّون لي نقودي.

ـ لا يوجد وإنْ كرسيٌّ لتجلس عليه هنا.

ـ أُدرك ذلك. يمكنكِ الجلوسُ على السرير إذا أردتِ.

ـ شكرًا، تقول فرجينيا، وهي تلقي نظرةً خاطفةً على أغطية السرير الخضراء المهترئة. أظنّ أنّني سأقف.

ـ ماذا تفعلين هنا؟ يسأل بريك، مغيِّرًا الموضوعَ على نحوٍ أبتر.

ـ رأيتكَ تدخل الفندق، فصعدتُ لكي ـ

ـ لا، لا، لم أقصد ذلك، يقول، مقاطعًا إيّاها في منتصف الجملة. أنا أتكلّم عن *هنا*، في ويلينغتون، المدينة التي لم أسمع ولو باسمها من قبل، في هذه البلاد، التي يُفترض أن تكون أميركا لكنّها ليست أميركا، على الأقلّ ليست أميركا التي أعرفها.

ـ لا أستطيع أن أقول لك. ليس بعد، على أيّة حال.

ـ أمضي إلى الفراش مع زوجتي في نيويورك. نمارس الحبّ، نستسلم للنوم، وعندما أستيقظ أجد نفسي مستلقيًا في حفرة وسطَ لامكانٍ ملعون، في بزّة عسكريّةٍ عاهرةٍ. بحقّ الجحيم ما الذي يحدث؟

ـ أوين، تمالكْ أعصابك. أعرف أنّ الأمر مُربِكٌ بعضَ الشيء

في البداية، لكنّك ستعتاده. أَعِدكَ.

ـ لا أريد أن أعتادَه. أريد العودة إلى حياتي.

ـ سوف تعود. وبأسرع ممّا تتوقّع.

ـ حسنًا. على الأقلّ هذا أمرٌ جديرٌ بالتأمّل، يقول بريك وهو غير متأكّد إنْ كان عليه أن يصدّقَها أم لا. لكنْ إذا كان بمقدوري أنا أن أعود، فماذا بشأنك؟

ـ لا أريد العودة. أنا هنا منذ وقت طويل، وأحبّ هذا المكان أكثر من ذلك الذي كنتُ فيه.

ـ وقت طويل... متى توقّفتِ عن المجيء إلى المدرسة إذًا، لم يكن ذلك لأنّك وأهلكِ انتقلتم إلى مكان آخر؟

ـ لا.

ـ كنتُ في غاية الشوق إليكِ. لما يقارب الأشهر الثلاثة، كنتُ أستجمع شجاعتي لكي أطلب إليك موعدًا. وبعدها، حين أصبحتُ مستعدًّا لذلك تمامًا، كنتِ قد رحلتِ.

ـ لم يكن في اليد حيلة. لم يكن لديّ أيُّ خيار.

ـ ما الذي يبقيكِ هنا؟ هل أنتِ متزوّجة؟ ألديكِ أيُّ أطفالٍ؟

ـ لا أطفال، لكنّني كنتُ متزوّجة. وقد قُتلَ زوجي في بداية الحرب.

ـ آسف لذلك.

ـ وأنا آسفة أيضًا. كما أنّي آسفة بعضَ الشيء لسماع أنّك

متزوّج. لم أنسَكَ، يا أوين. أعرف أنّه مضى وقت طويل، لكنّني كنتُ أرغب في الخروج في هذا الموعد تمامًا كما أنتَ أردْتَ.

ـ تقولين ذلك الآن.

ـ إنّها الحقيقة. أعني، فكرةُ مَنْ تظنّ كان يفكّر في إحضارك إلى هنا؟

ـ أنتِ تمزحين. كفاكِ، فرجينيا، لماذا ترتكبين هذا الفعلَ الشنيعَ بحقّي؟

ـ أردتُ أن أراكَ من جديد. كما أنّي ظننتُ أنّك الرجلُ المثاليّ لهذا العمل.

ـ أيّ عمل؟

ـ لا تتظاهر بالخجل، يا أوين. أنت تَعْلم عمَّ أتحدّث.

ـ توباك. المهرِّج الذي يسمّي نفسَه سيرج سيرج.

ـ وكذلك لوو فريسك، الذي كان من المفترض أن تذهب إليه مباشرةً. أتذكر؟

ـ كنتُ منهكًا. فلقد مشيتُ طوال اليوم بمعدةٍ خاوية، واحتجتُ أن آكل شيئًا ما وآخذَ قيلولة. كنتُ على وشك أن أصعد إلى السرير عندما قرعتِ الباب.

ـ لسوء الحظّ. نحن نعمل وفق جدولٍ مُحْكَم، وعلينا أن نمضي إلى فريسك الآن.

ـ لا أستطيع. أنا في غاية الإرهاق. دعيني أنمْ ساعتين، وبعدها سأذهب معك.

ـ في الحقيقة، يجب ألاّ . . .

ـ أرجوكِ، فرجينيا. إكرامًا لصحبة الأيّام الخوالي.

ـ ليكنْ، تقول، ثم تُحني رأسَها لتنظر إلى ساعة معصمها. سأعطيك ساعة. إنّها الآن الرابعة والنصف. توقّعْ طرْقًا على بابك في تمام الخامسة والنصف.

ـ لكِ الشكر.

ـ لكنْ لا أعمال صبيانيّة، يا أوين. مفهوم؟

ـ بالتأكيد لن يكون ذلك.

بعد أن تبتسم له ابتسامةً دافئةً، ذات مغزى، تفتح فرجينيا ذراعيها وتعانق بريك مودِّعةً. «جميل أن أراكَ من جديد»، تهمس في أذنه. يلتزم بريك الصمت، يداه مسبلتان على جانبيه، ومئاتُ الأفكار تتقافز في رأسه. أخيرًا، تقول فرجينيا إنّها ستغادره، تُرَبِّتُ على وجنته، وتتّجه صوب الباب، الذي تفتحه بنقرة سريعة، نحو الأسفل، على المقبض. وقبل أن تُصبح في الخارج، تلتفتُ قائلةً:

ـ الخامسة والنصف.

ـ الخامسة والنصف، يردّد بريك. ثم ينطبق الباب، وهكذا تتوارى فرجينيا.

لدى بريك مشروع ـ في طيّاته أدواتٌ مبدئيّة. فهو لا يريد أن يلتقي فريسك تحت أيّ ظرف، ولن ينفّذ العملَ الذي أناطوه به. لن يقوم بقتل أيٍّ كان، لن ينصاعَ إلى مزايدات الآخرين، سيبقى

متواريًا عن الأنظار طوال المدّة التي يراها مناسبةً. ولأنّ فرجينيا تعلم أين يقيم، فإنّ عليه مغادرة الفندق في الحال، وإلى غير رجعة. لكنْ إلى أين سواه؟ تلك هي المشكلة المُلِحّة الآن، ويمكنه أن يفكّر في ثلاثة حلول ممكنة لا غير: أن يعود إلى المطعم ويطلب إلى مولي وولد العونَ. وإذا لم تُبْدِ استجابة، فما الحلّ؟ أن يتسكّع في الشوارع باحثًا عن فندقٍ آخر. أو ينتظرَ حلولَ الليل ثم ينسلّ خارجًا من ويلينغتون.

يمنح نفسَه عشر دقائق، وهذا وقتٌ أكثرُ من كافٍ لكي تنزل فرجينيا الأدراجَ الأربعة وتغادر إكسيتر. قد تكون في الانتظار في الردهة، بالطبع، أو تُبقي عينًا على مدخل الفندق عبر الشارع. لكنْ إنْ لم تكن في الردهة، فسوف يتّخذ من الباب الخلفيّ مَخرجًا، على افتراض أنّ ثمّة بابًا خلفيًّا وأنّه يستطيع العثورَ عليه. وإذا حدث أن كانت في الردهة، بعد كلّ العناء؟ سيلوذ إذّاك بالفرار جريًا، بكلّ بساطة وبراءة. قد لا يكون بريك أسرعَ رجل في العالم، لكنّه انتبه خلال حديثه مع فرجينيا إلى أنّها كانت تحتذي بوطين بكعبين عاليين، وبكلّ تأكيد يمْكن رجلاً بحذاءين مسطّحين أن يَسْبق امرأةً ببوطين عاليي الكعبين في أيّ يوم من أيّام الأسبوع.

أمّا في ما يتعلّق بالمعانقة والابتسامة ذات المغزى، والاعترافِ بأنّها قصدتْ أن تراه ثانيةً، وندمِها لأنّها لم تخرج للقائه في المدرسة الثانويّة، فلا شيء يسكن بريك إلاّ الريبة حيالها. ڤرجينيا بلاين، حبيبةُ قلبه وهو في الخامسة عشرة، كانت أجمل بنت في صفّه، وكان كلّ صبي يُصاب بدُوار الشهوة والرغبة الخرساء كلّما

مرّت بجانبه. لم يكن يقول الحقيقة عندما قال إنّه كان يوشك أن يطلب منها الخروج معه في لقاءٍ غراميّ. لم يكن هناك شكّ في أنّه تمنّى أن يطلب ذلك؛ لكنْ، في تلك المرحلة من حياته، لم يكن ليجرؤ على الإطلاق.

بسحّاب السترة الجلديّة مرفوعًا، وبحقيبة الظهر المعلَّقة على كتفه اليمنى، يَنزل بريك، سالكًا الدّرَج الخلفي، ثم مخرجَ النجاة، الذي ـ لحسن الحظّ ـ يجنّبه كليًّا المرورَ بالردهة ويؤدّي به إلى باب معدنيّ ينفتح على شارعٍ موازٍ لمدخل الفندق. لا شيء يدلّ على أنّ فرجينيا في الجوار، وهذا ما يثلج صدرَ بطلنا المنهك في هروبه الموفَّق. تغزوه دفقةُ تفاؤل، مستشعرًا أنّه يمكنه أخيرًا أن يضيف كلمة *أمل* إلى قاموس آلامه. يغذّ خطاه، متلاشيًا بين كتل المارّة، متفاديًا صبيًّا ينطّ على عصا البوغو. ثم يبطئ وتيرةَ سيره قليلاً لدى اقتراب أربعة جنود مسلّحين ببنادقهم، مصغيًا إلى قعقعة الدرّاجات الحاضرة أبدًا وهي تذرع الطريق. انعطافة أولى، فانعطافة أخرى، ثم انعطافة أخيرة، وها هو يقف في مواجهة مطعم پولاسكي، المطعم الذي تعمل فيه مولي.

يدخل بريك. ومن جديد كان المكان فارغًا. ولأنّه الآن يفهم الظروف، فإنّ الأمر لا يكاد يشكّل مفاجأةً بالنسبة إليه؛ فمنذ متى يتجشّم المرءُ عناءَ الذهاب إلى مطعم لا طعام فيه؟ لذلك، لا تقع العينُ على زبون. والأكثرُ إيلامًا منْ ذلك هو غيابُ مولي أيضًا. وإذ يتساءل بريك ما إذا كانت قد غادرتْ بشكل مبكّر، فإنّه ينادي اسمَها، وعندما لا تظهر، يناديها من جديد. بعد عدّة ثوانٍ مليئة

بالترقّب، يشعر بالانفراج وهو يراها تدخل، ولكن حين تتعرّفه، ينقلب السأمُ على وجهها إلى قلق، وربّما إلى غضب.

ـ أكُلُّ شيء على ما يرام؟ تسأل، بصوتٍ صارمٍ ودفاعيّ.

ـ نعم ولا، يقول بريك.

ـ ماذا يعني ذلك؟ هل سبّب لك أحدٌ أيّة مضايقة في الفندق؟

ـ لا مضايقة. كانوا في انتظاري. دفعتُ لِليلةٍ واحدة، وصعدتُ إلى الغرفة.

ـ ماذا عن الغرفة؟ هل من مشكلة فيها؟

ـ مولي، دعيني أُخبرْكِ، يقول بريك، دون أن يتمكّن من إخفاء الابتسامة التي ارتسمت على شفتيه. لقد جبتُ العالم، وحين يتعلّق الأمر بتجهيزات أمكنة الدرجة الأولى، أقصد ذروة هذه الفئة من حيث الراحة والأناقة، فلن يضاهي الغرفةَ رقم أربعة ـ صفر ـ ستّة في فندق إكسيتر في ويلينغتون.

تبتسم مولي ابتسامةً عريضةً لملاحظته الطريفة، وفي الحال تتّخذُ مظهرَ شخصٍ آخر.

ـ نعم، أعرف، تقول. إنّه مكانٌ فخم، أليس كذلك؟

حين يرى بريك ابتسامتها، يعي سببَ تحفّزها بادئ الأمر: إنّه افتراضها الأوّليّ بأنّه عاد أدراجَه سيرًا ليشتكي، ليتّهمها بأنها احتالت عليه. لكنّها الآن تدرك شيئًا آخر، فتتخلّى عن وضعيّة الدفاع وتَرْكن إلى سلوكٍ أكثر ودِّيّةً.

ـ الأمر لا يتعلّق بالفندق، يقول، بل بالظَّرف الذي ذكرتُه لك سابقًا. الشلّة التي تلاحقني. يريدونني أن أفعل شيئًا لا أريد فعله، ويعلمون أنّي أُقيم في إكسيتر. وهذا يعني أنّني لن أستطيع البقاء هناك بعدها. لذلك عدتُ. لأطلب منك العون.

ـ لماذا أنا؟

ـ لأنّك الشخص الوحيد الذي أعرفه.

ـ أنتَ لا تعرفني، تقول مولي، وهي تبدّل اعتمادَ وزن جسدها من رجلها اليمنى إلى اليسرى. قدّمتُ لك بعضَ البيض، وجدتُ غرفة لك، تجاذبنا الحديثَ قرابة دقائق خمس. أكاد لا أدعو ذلك «معرفةً بي».

ـ أنتِ على حقّ. لا أعرفُكِ. لكنّني لم أستطع التفكير في مكانٍ آخر أذهب إليه.

ـ لماذا عليَّ أن أرهنَ نفسي وأجازفَ لأجلكَ؟ ربّما كنتَ غارقًا في مشاكل ما، مشاكل مع الشرطة أو مشاكل مع الجيش، أو ربّما فررتَ من ذلك المشفى، مصحّةِ الأمراض العقليّة أغلب الظنّ. أعطني سببًا وجيهًا واحدًا يُلزمني بمساعدتك.

ـ لا أستطيع. ليس ثمّة سببٌ واحد، يقول بريك، والقنوطُ يعتريه لأنّه أخطأ في تقدير هذه الفتاة. ما كان أشدّ حمقَه لمجرّد التفكير في أنّه يمكن أن يتّكل عليها. الشيء الوحيد الذي أستطيع أن أقدِّمه إليكِ هو المال، يضيف، وقد تذَكَّر مظروفَ أوراق الخمسين دولارًا في حقيبة الظهر. إذا كنتِ على علمٍ بمكانٍ يُمْكنني

أن أختبئ فيه لبعض الوقت، فسأكون سعيدًا بأن أدفع لك في المقابل.

ـ آه، حسنًا، اختلف الأمر الآن، أليس كذلك؟ تقول مولي الشفّافة، المتواضعةُ الدهاء. أيُّ مبلغ من المال تَقْصد؟

ـ لا أدري. قولي أنتِ.

ـ ربّما يمكنني استضافتُكَ في شقّتي لليلةٍ أو اثنتين. أعتقد أنّ الصوفا طويلة بما يكفي لتسعَ جسدًا مثلَ جسدك. لكنْ إيّاك أن تفكّر في أيّة حماقة؛ فصديقي يعيش معي، وطبعُه حادّ، إنْ كنتَ تفهم ما أعنيه. لذلك لا يخطرنّ في بالك أيّةُ أفكار طائشة.

ـ أنا متزوّج. ولا أهتمّ لأمور كهذه.

ـ ردٌّ جيّد. ليس في هذا العالم من رجلٍ متزوّجٍ يفوِّتُ نزوةً إضافيّةً إذا اعترضتْ طريقه.

ـ ربّما لا أعيش في هذا العالم.

ـ نعم، ربّما لم تعترضك. هذا يفسِّر أشياء كثيرة، أليس كذلك؟

ـ إذًا، كم تطلبين؟ يسأل بريك، متلهّفًا لأن ينهي الصفقة.

ـ مائتا دولار.

ـ مائتان، ثمن باهظ جدًّا، ألا تظنّين ذلك؟

ـ يبدو أنّك لا تدرك الخراءَ الذي هنا، يا سيّد. هنا الحضيض، أسفل سافلين. اقبلْهُ أو اتركْهُ.

ـ حسنًا، يقول بريك، مطأطئًا رأسه مُفْلِتًا أنّةً طويلةً كسيرةً. سأقبَلُه.

فجأةً، تبدر حاجةٌ ملحّةٌ لأن أفرغ مثانتي. ما كان ينبغي أن أحتسي كأسَ النبيذ الأخيرة، لكنّ الإغواء لم يكن ليقاوَم، الحقّ أنّي أحبُّ أن أذهب إلى الفراش منتشيًا بعض الشيء. زجاجة عصير التفاح ملقاة على الأرض إلى جوار السرير، لكنْ عندما أمدّ يدي متحسّسًا الزجاجةَ في الظلام، لا يبدو أنّني سأجدها. كانت الزجاجةُ فكرةَ ميريام ـ أن توفّر عليّ ألمَ وعناءَ الاضطرار إلى مغادرة الفراش لكي أبولَ في الحمّام في منتصف الليل. فكرة رائعة، لكنّ الجدوى تتمثّل في أن تكون الزجاجةُ في متناول اليد؛ وفي هذه الليلة على وجه الخصوص، لا تتحسّس أصابعي، التي تجوسُ ممدودةً، الزجاجة. الحلّ الوحيد هو أن أُضيء المصباحَ الجانبي؛ لكنْ ما إنْ يحدث ذلك، حتى يتلاشى أيُّ أمل في الاستغراق في النوم بشكلٍ نهائيّ. طاقة المصباح خمسة عشر واطًا فقط، لكنْ أن أُنيرَه في ظلام الغرفة الدامس، كحبر أسود، يعني كأنني أعرّض نفسي لفورةٍ ناريّةٍ صاعقة التوهّج. سيبهرني الضوءُ لثوانٍ، بعدها. وحين سيأخذ بؤبؤاي بالاتّساع، سأكون مستيقظًا

تمامًا. وإن أطفأتُ المصباح، فسيستمرّ دماغي بالتمخُّض حتى الفجر. خبرتُ ذلك من خلال التجربة الطويلة. حياةٌ بأكملها وأنا أصارع نفسي في ثغور الليل. آه حسنًا، ليس في اليد حيلة، ليس أمرًا رهيبًا. أضيءُ المصباح. أنبهر. أرمشُ ببطء حتى تألفَ عيناي الضوء، ثم ألمحُ الزجاجة تنتصب على الأرض مسافةَ بوصتين عن موضعها المعتاد. أنثني، أمطّ جسدي أبعدَ قليلاً، وأقبض الشيءَ اللعين. ولذ أُلقي عنّي الأغطيةَ، أتزحزح لأَبْلغ وضعيّة الجلوس ـ بحذر، بحذر شديد، لكي لا أثير غيظَ ساقي المهشّمة ـ أُديرُ السّدادة عن رأس الزجاجة، وأدسُّ قضيبي في الفتحة، تاركًا البول يخرج متدفّقًا. لا يخيِّب ظنّي أبدًا، تلك اللحظةَ عندما يبدأ التدفّق، ثم حين أرى شلاّل السائل الأصفر الرغويّ يرتطم بالعبوة ليغدو ملمسُ زجاجها دافئًا في يدي. كم من مرّة يبول الشخصُ في مدى اثنين وسبعين عامًا؟ يمكنني أن أقوم بإحصاء ذلك، لكنْ لِمَ أُقلِقُ نفسي بذلك والمهمّةُ توشك أن تنتهي؟ وإذ أسحب عضوي من الفتحة، أُلقي نظرةً إلى رفيقي القديم هذا وأتساءل إن كان سيُكتب لي أن أمارسَ الجنسَ من جديد، وإنْ كنتُ سأصادفُ امرأةً أخرى ترضى بأن أصطحبَها إلى الفراش لتمضي ليلةً بين ذراعيّ. أزيحُ الفكرة، سائلاً نفسي الكفَّ، أنّ ذلك سيودي إلى الجنون. لماذا كان يجب أن تموتي، يا سونيا؟ لماذا، لماذا لم أرحلْ قبلك؟

أسدُّ الزجاجة، أعيدها إلى مكانها الاِعتيادي على الأرض، وأشدّ البطّانيّة لتغطّيني. ماذا بعد؟ أن تُطفئ الضوء أو لا تطفئ الضوء؟ أريد أن أعود إلى قصّتي لأعرف ما سيحدث لأوين بريك. لكنّ الفصول الأخيرة من كتاب ميريام ملقاة على الرفّ الأدنى من

طاولة السرير، وكنتُ وعدتُها بقراءتها وإبداء تعليقاتي. بعد هذا الكمّ من الأفلام التي كنتُ أشاهدها وكاتيا، أُصِبتُ بالتقصير، ويؤلمني التفكير في أنّني خذلتُها. امنحْ نفسَك هنيهة، ثم، فصلٌ أو اثنان ـ لأجل عينيْ ميريام.

روز هاوثورن، أصغرُ أولادِ ناثانيِل هاوثورن الثلاثة، وُلدتْ سنة ١٨٥١. كانت في الثالثة عشرة عندما مات والدُها. روز ذات الشعر الأحمر، المعروفة لدى عائلتها باسم «روزْبَدْ» ـ برعم الوردة، المرأة التي عاشت حياتين: أولاهما كانت بائسةً، مضنيةً، مخفقةً، والثانية كانت رائعة بشكل لافت. وطالما تساءلتُ عن سبب تبنّي ميريام هذا المشروع، لكنّني أظنّ أنّي قد بدأتُ أفهم الآن. كان آخر كتبها عن حياة جون دَنّ، أميرِ الشعراء، نابغةِ النابغين. وبعدها ستنكبُّ على استقصاء حول امرأةٍ طال تخبُّطُها في هذا العالم خمسةً وأربعين عامًا، وهي شخصيّة عدوانيّة وصعبة المراس، لا تعترفُ في سرّها بأنّها «غريبة عن نفسها»، مُطْلِقةً يديها في عالم الموسيقى بادئ الأمر، ثم الرسم؛ وإذ لم تُحقّق إنجازًا في أيّ من الحقلين، التفتتْ إلى الشِّعر والقصّة القصيرة، التي توصّلتْ إلى نشر بعضها (بسبب وزن اسم أبيها المهمّ من دون أدنى شكّ). لكنّ العمل كان سمجًا ومرتبكًا، ربّما تحت الوسط في أفضل الأحوال ـ باستثناء سطرٍ واحدٍ من قصيدةٍ استشْهَدتْ بها ميريام في مخطوطها، سطرٍ أحبُّه بلا حدود: «*كأنّما العالم الغريب يهيمُ دون مُسْتَقَرٍّ له*».

أضفْ إلى الصورة الشائعة تلك الوقائعَ الخصوصيّةَ لهروبها، وهي في عشرينها، مع كاتبٍ شابّ هو جورج لاثروب، وهو رجل

ذو موهبة لم يكمل طريقه. الخلافات المريرة في ذلك الزواج، الانفصال، التصالح والعودة، موت طفلهما الوحيد في عمر الرابعة، ثم الانفصال النهائيّ، خصام روز الأبديّ مع شقيقها وشقيقتها؛ كلُّ ذلك يجعل المرءَ يفكّر: ما الجدوى، لماذا مضيعة الوقت هذه في استكشاف ذاتِ تلك الشخصيّةِ البائسة والباهتة؟ لكنْ بعد ذلك، في منتصف العمر، أَجْرتِ انقلابًا جذريًّا. تحوّلت إلى كاثوليكيّة، نَذرتْ نفسها للعمل المقدّس، وأَسّستْ أخويّةَ راهباتٍ سُمّيتْ «خادمات الإغاثة لمرضى السرطان المستعصي»، منقطعةً آخر ثلاثين سنة من حياتها للعناية بالفقراء من مرضى المراحل الأخيرة، منافِحةً متحمّسةً عن حقِّ كلِّ إنسان في أن يموتَ بشكلٍ كريم: «*كأنّما العالم الغريب يهيمُ دون مُسْتَقَرّ له*». بمعنًى آخر، وبالاستناد إلى دَنّ، كانت حياة روز هاوثورن قصّةَ التحوّل في الاعتقاد، وهنا مكمنُ الإثارة بلا شكّ، الأمر الذي ولّدَ اهتمامَ ميريام بها. أمّا لماذا كان لذلك أن يولِّد اهتمامَ ميريام فهو سؤال آخر، لكنّني أعتقد أنّه يأتي مباشرةً من والدتها: الإيمان الراسخ بقدرة البشر على التغيير. ذلك كان تأثير سونيا، لا تأثيري، ولعلّ ميريام هي الشخصُ الأمثلُ لِتَلَقّيه. لكنْ بالنسبة إلى متألِّقةٍ كابنتي، يبقى ثمّة شيء ساذج وهشّ لديها، وأسأل الله أن تتعلّمَ أنّ السلوكيّات المنحطّة التي ترتكبها الكائناتُ البشريّة بعضها ضدّ بعض لا تعني الانحلال المطبق ـ بقدر ما هي جزء لا يتجزّأ ممّا نكُونُه نحن. لعلّها تتخفّف من بعض ألمها. إذ لن يتداعى العالم كلّما أصابها مكروه، وبذلك لن ترثي حالها قبيل النوم كلّ ليلة.

لستُ بصدد القول إنّ الطلاق ليس فعلاً بغيضًا، ألمًا أخرس،

قنوطًا مُعْطِبًا، غيظًا شيطانيًّا، وسحابةً لازمةً من الأسى تسكن الرأس، الذي ينقلب تدريجيًّا إلى نوعٍ من الحِداد، كأنّما المرء يتشهّى الموت. لكنّ ريتشارد تخلّى عن ميريام منذ خمس سنوات. قد يجول في خلدك أنّها الآن قد تكيّفتْ مع ظروفها الجديدة، فأعادتْ تموضعها في التيّار، وحاولتْ إعادة صياغة حياتها. لكنّ كلّ حيويّتها قد هُدرتْ في التدريس والكتابة، وكلّما أوردتُ ما يمتُّ إلى رجالٍ آخرين، وقف شعرُ رأسها. لحسن الحظّ، كانت كاتيا قد أتمّتْ الثامنة عشرة وهي في المعهد حين وقع الانفصال، وكانت ناضجة بما يكفي ومتماسكةً بما يكفي لكي تمتصّ الصدمةَ من دون أن تتفتّت. عانتْ ميريام أقسى من ذلك بكثير عندما انفصلنا، سونيا وأنا. لم تكن حينها تتجاوز الخامسة عشرة، وهي السنّ القابلة للعطب والتأثّر إلى أقصى الدرجات. وعلى الرّغم من ذلك فقد عدنا، سونيا وأنا، واحدنا إلى الآخر، بعد تسع سنوات، بعد أن لحق بنا أذًى جسيم. منَ العسير على راشدَين أن يعيشا تجربةَ الطلاق، لكنّ الأعسرَ يقع على الأولاد. فلا حولَ لهم أبدًا، وسيقاسون مُرَّ الآلام.

ارتكبتْ ميريام وريتشارد الخطأ ذاتَه الذي ارتكبَناه أنا وسونيا: زواجهما في عمرٍ مبكّر. بالنسبة إلينا، كنّا كلانا في الثانية والعشرين ـ وهو حدثٌ ليس على هذه الدرجة من الغرابة في عام ١٩٥٧. لكنْ عندما خَطَتْ ميريام وريتشارد في رواق الكنيسة بعد ربع قرنٍ من ذلك، كانت في مثل سنّ أمّها. وكان ريتشارد يَكْبرها بقليل. إذ كان في الرابعة والعشرين أو الخامسة والعشرين على ما أظنّ. لكنّ العالم كان قد تغيّر حينذاك، وكانا لا يزالان أكبر قليلاً

من طفلين، طالبَين صغيرين متميّزين يستعدّان للتخرّج من جامعة ييل، وفي غضون سنتين رُزقا بطفلتهما. ألم تفهم ميريام أنّ ريتشارد قد يضيق ذرعًا في نهاية المطاف؟ ألم تُدرك أنّ أستاذًا جامعيًّا في الأربعين يقف في قاعة محاضراتٍ مكتظّةٍ بطالبات المرحلة الأولى قد يُفْتن بتلك الأجساد الفتيّة؟ إنّها الحكاية الأقدم في العالم! لكنّ ميريام الجادّة في عملها، الوفيّة، المفرطة الحساسيّة، لم تكن تلقي بالاً، على الرّغم من أنّ قصّة أمّها لا تزال ماثلةً، بل تكوي عميقًا باطنَ عقلها، لحظةَ أَقْدَم الصعلوكُ والدُها، بعد زواجٍ دام ثمانية عشر عامًا، على الفرار مع امرأة في السادسة والعشرين من عمرها. كنتُ حينها في الأربعين. فاحذرنَ الرجال في أربعينهم.

لماذا أفعلها؟ لماذا أصرّ على الإيغال في الوراء، في تلك المسالك العتيقة المضنية؟ لماذا هذا الإكراه على نكْءِ الجراح القديمة والتسبّب بنزفٍ يصيبني من جديد؟ إنّه لمن المستحيل المبالغة في حجم الخزي الذي أُحسّه تجاه نفسي. كان يُفترضُ بي أن أنظر في مخطوط ميريام، لكنْ ها أنا ذا أحدّقُ في صَدْعٍ على الجدار وأجترفُ خرائبَ الماضي: حطامَ أشياء لن أجد إلى ترميمها سبيلاً. هاتِ قصّتي. هذا كلٌّ ما أريده الآن ـ قصّتي الصغيرة لكي تُبقي الأشباح في منأًى عنّي. قبل أن أطفئ المصباح، أنتقلُ إلى صفحةٍ عشواءَ في المخطوط لأقع على: الفقرتين الختاميّتين في مذكّرات روز عن والدها، كُتبتا سنة ١٨٩٦، وتَصِفان المرّةَ الأخيرةَ التي رأتهُ فيها.

«بدا لي أمرًا مريعًا أن يمسي رجلٌ شديدُ البأس، مرهفٌ، نيِّرٌ

كأبي، ضعيفًا وواهنًا، وفي النهاية هامدًا وأبيضَ مثلَ شبح. وحتى حين كانت خطوته تتعثّر وقامتُه تَؤول خيالاً، فقد كان لا يزال يحتفظ بهيبته كما كان أيّامَ الزهو، متماسكًا، بأوامر عسكريّة ذاتيّة، بل أكثر نهوضًا من ذي قبل. لم يتوانَ عن المجيء إلى طاولة العشاء في أبهى معطفٍ أسود لديه، حيث الطعام الذي تعافه النفسُ لم يشكّل فرقًا يُذْكر في وجبته. كان يكره الإخفاق، والاتّكال، والفوضى، وكسر الأعراف، والانضباط المضجر، كما كره الجبنَ. لا يسعني التعبير عن مدى جسارته بالنسبة إليّ. المرّة الأخيرة التي رأيتُه فيها، كان يهمّ بمغادرة البيت في رحلة الاستشفاء التي أدّتْ به فجأةً إلى العالم الآخر. كان على أمّي أن تذهب برفقته إلى المحطّة ـ هي التي، لحظةَ قيلَ إنّه مات، تهاوتْ وهي تئنّ، على الرّغم من بُعدها عنه. كانت تقول إنّ شيئًا ما بدا وكأنّه يَسْلبها كلَّ قواها. بصعوبة استطعتُ أن أحتمل وأترك عينيّ تركّزان على ورقة تأبينها له في يوم الوداع. لقد أدرك والدي وبلا شكّ ما أحسّتْ به على نحوٍ مبهم، وهو أنّه لن يعود.

كصورة ثلج لرجلٍ غير محنيّ، لكنّه عجوز، رجل عجوز، لوهلةٍ انتصب محدّقًا إليّ. انتحبتْ أمّي وهي تسير إلى جواره نحو العربة. لقد افتقدناه تحت ضوء الشمس، في العاصفة، وفي الشفق، منذ ذلك الحين».

أُطفئ النور، وها أنا في الظلام من جديد، غارقًا في الظلام اللانهائيّ، الظلام الذي يهدّئ الروعَ. في مكانٍ ما من المدى، يترامى إليّ ضجيجُ شاحنة تنحدر على طريقٍ ريفيّة مهجورة. أُصغي إلى الهواء الداخل والخارج من فتحتيْ أنفي. بحسب الساعة على منضدة السرير الجانبيّة، التي تَفقّدتُها قُبيل إطفاء المصباح، كان الوقت يشير إلى الثانية عشرة وعشرين دقيقة. ساعات وساعات حتى ينبلج الصباح. لا يزال جلُّ الليل أمامي... لم يعبأ هوثورن. قال إنّه إذا شاء الجنوبُ الانفصالَ عن البلاد، فدعهم يذهبوا والخلاصُ خيرٌ. العالم المشؤوم، العالم المقصوم، العالم الغريب يهيم دون مُسْتَقرّ له، ولهبُ الحرب يلفّنا: الأوصال المقطوعة في أفريقيا، الرؤوس المقطوعة في العراق. وفي رأسي حربٌ أخرى، حربٌ من بنات الخيال تدور رحاها على أرض الوطن، أميركا التي تتصدّع وتتفتّت، المثال النبيل قد مات أخيرًا. يرتدّ تفكيري إلى ويلينغتون. وفجأةً أتمكّن من رؤية أوين بريك مرّةً أخرى، جالسًا على أحد مقعدَي الطاولة في مطعم پولاسكي، يراقب مولي وولد

تَمْسح الطاولاتِ والنضد، والساعة تدنو من السادسة. بعدها ها هما في الخارج، يسيران معًا صامتيْن، وهي تدلّه على مكان سكناها. الأرصفة تغصّ برجال ونسوة يبدو عليهم الإنهاكُ، يجرّون الخطى نحو بيوتهم عائدين من العمل، وبجنودٍ مسلّحين ببنادق يحرسون التقاطعات الرئيسة. سماء الغسق القرنفليّة في الأعلى.
كان بريك قد فقد كلّ ثقته بمولي. وإذ أَيقن أنّها لا يمكن أن تكون محلَّ ثقة، بل لا أحد يمكن أن يكون محلَّ ثقة، فقد توارى عشرين دقيقةً في حمّام الرجال في المطعم قبل أن يغادرا، لينقلَ ما في المظروف من أوراق الخمسين دولارًا من حقيبة الظهر إلى جيبِ بنطاله الجينز الأماميّ الأيمن، لعلّه بذلك يقلّل من فرص السلب، كما تصوّر. وحين يَمضي إلى فراشه في تلك الليلة، ستكون له كلُّ النيّة أن يبقى مرتديًا بنطالَه. في مرحاض الرجال، جازفَ أخيرًا بتفحّص النقود، وكان من الجرأة أن يرى وجهَ يوليسيس س. غرانت منقوشًا على الوجه الأماميّ لسائر الأوراق. هذا ما برهن له أنّها أميركا، أميركا الأخرى، التي لم تعشْ الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر ولا حربَ العراق، على الرّغم من أنّها ترتبط بحلقاتٍ تاريخيّةٍ قويّة بأميركا التي يعرفها. والسؤال الآن: في أيّة مرحلةٍ بدأ انشعابُ القصّتين؟

- مولي، يقول بريك، كاسرًا صمتَ دقائقَ عشرٍ من مسيرهما، هل تمانعين إذا سألتك شيئًا؟

- هذا يتوقّف على ماهيّة الشيء، تُجيبُ.

- هل سمعتِ بالحرب العالميّة الثانية؟

تُطْلِقُ النّادلةُ نخرةً قصيرة تدلّ على تعكّر المزاج:

ـ ماذا تظنّني؟ تقول. متخلّفة؟ بالطبع سمعْتُ بها.

ـ وماذا عن ڤييتنام؟

ـ كان جدّي أحدَ أوائل الجنود الذين أُرسلوا إلى هناك.

ـ إذا قلتُ «*يانكي نيويورك*»، فماذا تقولين؟

ـ خلِّصْنا، الكلّ يعلم ما تعنيه.

ـ ماذا تقولين؟ يكرّر بريك.

بزفرة سخطٍ، تلتفتُ مولي نحوه وتعلنُ بصوتٍ تهكّمي:

ـ يانكي نيويورك؟ هنَّ الفتيات اللآئي يرقصن في قاعة موسيقى إذاعة المدينة.

ـ جيّد جدًّا. والروكيترز هم فريق البيسبول، صحيح؟

ـ بالضبط.

ـ حسنًا. سؤال أخير، وبعده سأتوقّف.

ـ أنتَ وجعٌ حقيقيّ في المؤخّرة، أَتعلم ذلك؟

ـ آسف. أعرف أنّك تحسبينني أحمق، لكنّها ليست غلطتي.

ـ لا، لا أظنّها غلطتك. المسألة أنّه حدث وخُلِقْتَ على هذه الطريقة.

ـ من هو الرئيس؟

ـ الرئيس؟ عمَّ تتحدث؟ ليس لدينا رئيس.

ـ لا رئيس؟ فمن هو المسؤول في الحكومة؟

ـ رئيس الوزراء، يا مخَّ العصفور. يا يسوع المسيح، من أيّ كوكبٍ أتيتَ؟

ـ أفهم. هناك رئيس وزراء للولايات المستقلّة. لكنْ ماذا عن الفدراليّة؟ هل لا يزال لديهم رئيس؟

ـ بالتأكيد.

ـ ما اسمه؟

ـ بوش.

ـ جورج دبليو؟

ـ هذا صحيح. جورج دبليو بوش.

التزامًا بكلمته، يمسك بريك عن طرح المزيد من الأسئلة، ومن جديد يتابع الاثنان سيرهما بصمتٍ عبر الشوارع. بعد دقيقتين، تشير مولي إلى بناءٍ مؤطّرٍ بالخشب من أربع طبقات يقع ضمن كتلة سكنيّة مخفّضة الإيجار تُجاور نسقَ أبنية ذات أربع طبقات شبيهة به، وجميعُها تحتاج إلى الطلاء. ٦٢٨، شارع كمبرلاند. ها قد وصلنا، تقول، وهي تُخرج مفتاحًا من حقيبة يدها وتفتح الباب الخارجيّ، وبعدها يرتقي بريك خلفها درَجيْن متهالكيْن إلى الشقّة التي تستأجرها مع صديقها الذي لم يَعرف بريك له اسمًا بعد. شقّة صغيرة لكنّها أنيقة، تحتوي على غرفة نوم، وغرفة جلوس،

ومطبخ، وحمّام بدشٍّ لكنْ بلا مغطس. يجيلُ نظره في المكان، مصدومًا بحقيقة أنْ لا تلفزيون فيه بل ولا راديو. وحين يلمّح بذلك إلى مولي، تخبره بأنّ كافّة أبراج الإرسال في كافّة أنحاء الولاية قد نُسفتْ في الأسابيع الأولى للحرب، ولا تملك الحكومةُ ما يكفي من الأموال لإعادة بنائها.

ـ ربّما بعد أن تنتهي الحرب، يقول بريك.

ـ نعم، ربّما، تجيب مولي، وهي تجلس على صوفا غرفة الجلوس ثم تشعل لُفافةً. لكنَّ الأمر هو أنْ لا أحد يبالي بعد الآن كما يبدو. كان رهيبًا بادئ الأمر ـ *يا إلهي*، لا *تلفزيون* ـ لكنّها ستعتادها لاحقًا بشكلٍ ما، وبعد سنة أو اثنتين ستبدأ تحبّ ذلك. أقصدُ السكون. لا مزيد من الأصوات تزعق حولك طيلة أربع وعشرين ساعة في اليوم. يُعتبَرُ ذلك الآن نمطَ حياةٍ عفّى عليه الزمنُ، فيما أظن، ما كان يجب أن تكون عليه الأشياءُ لمئاتِ السنين التي خلتْ: تريد معرفةَ الأخبار، اقرأ الصحيفة؛ تريد مشاهدة فيلم، اذهبْ إلى السينما؛ لا بطاطا بعد الآن على الكنبة. أعلمُ أنّ الكثيرين ماتوا، وأعرف أنّ الأمور عسيرة حقًّا حولنا، لكنْ ربّما كانت النتيجة تستحقّ ما حدث. *ربّما*. بالضبط أعني *ربّما*. إذا لم تنتهِ الحربُ في القريب، فسينقلب كلُّ شيء إلى خراء.

بريك مرتبك حيال تفسير الأمر، لكنّه يدرك أنّ مولي لم تعد تخاطبه بوصفه مغفّلاً. كيف يعلّل التغيُّرَ في النبرة؟ هل الحقيقة تكمن في أنّها أتمّتْ عملها لهذا اليوم وها هي تجلس مسترخية في شقّتها تنفثُ لفافة التبغ؟ أم الحقيقة أنّها بدأتْ ترثي لحاله؟ أمْ أنّ

الحقيقة، على عكس كلّ ذلك، إذ جَنَتْ مائتي دولار تفيضُ عن توقّعاتها، ما حدا بها إلى الكفّ عن الغمز من قناته؟ مهما كان السبب، يفكّر بريك، فإنّها فتاة متعدّدة الأمزجة، لعلّها ليست صعبة المراس كما تشي ملامحُها، والمقابل ليست على هذا القدر من التألّق. ثمّة مائة سؤال إضافيّ يودّ طرحه عليها، غير أنّه يقرّر أن لا يجرّب حظّه ويقامر بما لديه.

تنهض مولي، وهي تسحق عقبَ لفافتها، تنهض مولي وتُخبر بريك بأنّها ستلتقي صديقها على العشاء في الطرف الآخر من البلدة في غضون أقلّ من ساعة. تتّجه نحو خزانةٍ جداريّةٍ بين غرفة النوم والمطبخ، تسحب ملاءتين، ولحافين، ومخدّة، ثم تعود بها إلى غرفة الجلوس وتلقي بها فوق الصوفا.

ـ هاك، تقول. شركاء لسريرك، الذي ليس سريرًا حقيقيًّا. آمل أنّه ليس مليئًا بالكُتَلِ.

ـ أنا مرهق، يجيب بريك، يمكنني النوم على كومة أحجار.

ـ إذا شعرتَ بالجوع، فثمّة بعضُ الأشياء التي تؤكل في المطبخ. علبة حساء، رغيف خبز، وبعض شرائح الديك الرومي. يمكنك أن تُعِدَّ لنفسك شطيرة.

ـ بِكَمْ؟

ـ ماذا تعني؟

ـ كم سيكلّفني ذلك؟

ـ كفاك. لن أجعلك تدفع مقابل القليل من الطعام. لقد دفعتَ لي ما يكفي.

ـ وماذا عن إفطار صباح الغد؟

ـ لا مشكلة لديّ. رغم أنّه ليس عندي الكثير. فقط قهوة وخبز محمّص.

ومن غير أن تنتظر جوابًا من بريك، تهرول إلى غرفة النوم لتبدّل ملابسها. ينطبق الباب، ويشرع بريك في تسوية السرير الذي ليس سريرًا. وحين ينتهي، يجول الغرفةَ باحثًا عن صحف ومجلاّت، آملاً أن يجد شيئًا ما يتحدّث عن الحرب، شيئًا ما يعطيه مفتاحًا لِلُغْزِ أين يكون، بعضَ فتات معلومات تعينه على أن يفهم قليلاً المزيدَ حول البلاد المُحيِّرة التي يطؤها. لكنْ لم تكن هناك مجلاّتٌ ولا صحفٌ في غرفة الجلوس ـ فقط رفٌّ كتبٍ صغير مكتظّ بكُتب الجَيْب الخاصّة بالخفايا والإثارة، والتي لم يكن لديه أيّةُ رغبة في قراءتها.

يعود إلى الصوفا. يجلس، يريح رأسه على المسند المُنَجَّد. وسرعان ما يغفو.

حين يفتح عينيه بعد ثلاثين دقيقة، يجد بابَ غرفة النوم مواربًا، ومولي قد خرجتْ.

يفتّش غرفة النوم بحثًا عن صحفٍ ومجلاّت ـ دون جدوى.

بعدها يتّجه إلى المطبخ لكي يسخّن علبةً من حساء الخضار ويحضِّر لنفسه شطيرةً من الديك الروميّ. يلاحظ أنّ الأسماء التجاريّة مألوفة لديه: بروغريسو، بورز هِدْ، أرنولدز. وإذ يغسل الصحون بعد تناوله هذا الطعام الذي تعافه *النفسُ*، ينظر إلى

الهاتف الأبيض المعلَّق على الجدار ويتساءل عمّا سيحدث لو حاول الاتّصالَ بفلورا.

يتناول السمّاعة عن الحامل، يُدخِلُ رقم هاتف شقّته في جاكسون هايتس، وعلى الفور يأتيه الجواب: الرقم ليس في الخدمة.

يجفّف الصحونَ ويعيدها إلى الخزانة. ثم يسير، بعد إطفاء ضوء المطبخ، نحو غرفة الجلوس ويفكّر بفلورا، شريكةِ فراشه الأرجنتينيّة ذاتِ الشعر الداكن، بركانِه الصغير، زوجتِه طوال السنوات الثلاث الماضية. ماذا يمكن أن تكون الظروفُ التي تمرّ بها الآن، يتساءل في سرّه؟

يطفئ أضواءَ غرفة الجلوس. يحلّ رباطيْ حذائه. ينسلّ تحت الأغطية. يغطّ في النوم.

بعد ساعات، يوقظه صوتُ مفتاح يُدَسُّ في قفل باب الشقّة. يصغي بريك، وهو مطبقُ العينين، إلى حفيف خطوات، دمدمةٍ خافتةٍ لصوتٍ ذَكَرٍ، وإلى صوتٍ رنّان، أكثرَ حدّةً يعود لمرافقته. مولي بلا شكّ، نعم، إنّها في الحقيقة مولي، التي تدعو الرجلَ بـ دووك. ثم يُضاء الضوءُ، الذي ينعكس وهجًا قرمزيًّا على سطوح جفنيه. كلاهما يبدو ثملاً، وبينما يُطفأ الضوء، يمشيان متثاقلَين إلى غرفة النوم ـ هناك يُضاءِ الضوءُ على الفور. يَخْلص بريك إلى أنّهما يتشاجران حول أمرٍ ما. قبل أن ينغلق الباب، يلتقط كلماتِ: «لا أحبّ ذلك، *مائتان*، *مجازفة*، *غير مؤذٍ*»، ويفهم أنّه هو موضوع المجادلة، وأنّ دووك غيرُ راضٍ عن وجوده في البيت.

تتبخّر آمالُ النوم مرّةً أخرى بعد المشادّة في غرفة النوم (أصوات المضاجعة: دووك وهو يَنْخر، عواءُ مولي، طقطقة المرتبة وصريرُ النوابض). بعدها، سيطفو في حلمٍ مُرَكَّبٍ عن فلورا. في البدء، وهو يتحدّث إليها عبر الهاتف. إنّه ليس صوت فلورا، بأيّة حال، بلفظها الـ «ر» الكثيفة المدوّرة والإيقاع الرخيم، بل صوتُ ڤرجينيا بلاين، وڤرجينيا/ فلورا يلتمس منه أن يطير ـ لا أن يسير، فقط أن يطير ـ إلى ركنٍ معيّنٍ في بافالو، نيويورك، حيث ستقف عاريةً في ممطرٍ شفّاف، تحمل مظلّةً حمراء في يد وزهرةَ توليب بيضاءَ في الأخرى. يأخذ بريك في البكاء، قائلاً لها إنّه لا يعرف كيف يطير، فتنفجر فرجينيا/ فلورا غاضبةً عبر الهاتف قائلةً إنّها لا تريد رؤيته من جديد وتغلق الخطّ. مصدومًا من اتّقاد عنفها، يهزّ بريك رأسَه ويدمدم لنفسه: «لكنّني لستُ في بافالو اليوم، أنا في ورشيستر، ماساتشوستس». ثم ها هو يسير في أحد شوارع جاكسون هايتس، في لباس زاڤيللو الكبير ورداء أسود طويل، يبحث عن البناء الذي تقع شقّته فيه. لكنّ البناء لم يعد موجودًا، وحلّ مكانَه كوخٌ خشبي ذو طبقة واحدة ولافتة فوق بابه تقول: عيادة كل الأميركيّين السّنيّة. يدخل العيادة، هناك فلورا، فلورا الحقيقيّة، ترتدي زيّ ممرّضة أبيض. «أنا في أوج سعادتي لأنّكَ تمكّنْتَ من المجيء، يا سيّد بريك»، تقول، فيما يبدو من الواضح أنّها لم تتعرّفه. ثم ترشده إلى المكتب وتومئ إليه أن يجلس على كرسيّ معالجة الأسنان. «يا للعار»، تقول، وهي تلتقط كمّاشةً كبيرة لامعة، «يا للعار، يبدو أنّ علينا أن نقتلع كلّ أسنانك». كلّها؟ يسأل بريك، والذعر يباغته. «نعم»، تجيب فلورا،

«كلّها. لكنْ لا تقلق. بعد أن ننتهي، سيعطيك الطبيب وجهًا جديدًا».

هنا يتوقّف الحلم. أحدُهم يهزّ كتفَ بريك وينبح الكلام في وجهه بصوتٍ جهوريّ. وحين يفتح الحالمُ المتثاقلُ عينيه أخيرًا، يرى رجلاً ضخم الجثّة، بكتفين عريضتين، وساعدين مفتولين، ينتصب قربه. إنّه من صنف رجال كمال الأجسام، يفكّر بريك، صديقها دووك، الرجل ذو المزاج العصبيّ السيّئ، يرتدي تي ـ شيرتًا أسود ملتصقًا بالجسم وسروالَ بوكسر أزرق، طالبًا إليه أن ينقلع خارج الشقّة.

ـ دفعتُ مبلغًا جيّدًا، يبدأ بريك.

ـ لليلةٍ واحدة، يصرخ دووك. والليلة انتهت الآن، وعليك أن تكون في الخارج.

ـ دقيقة، فقط دقيقة، يقول بريك، رافعًا يده اليمنى علامةً على النوايا السليمة. مولي وعدتْني بإفطار، وقهوةٍ وخبزٍ محمّص. دعني آخذ بعضَ القهوة فقط، وسأغادر بعدها على الفور.

ـ لا قهوة، لا خبز، لا شيء.

ـ وماذا إذا دفعتُ لك مقابلَها؟ أعني، زيادةً.

ـ ألا تفهم الإنكليزيّة؟

ومع هذه الكلمات، ينحني دووك، قابضًا على سترة بريك، ويجذبه حتى يقف على قدميه. إنّه واقف الآن. بريك يرى باب الحمّام بوضوح. وفي تلك اللحظة، تخرج مولي، وهي تشدّ حزامَ روب حمّامها، وتمسح شعرها بيدها.

ـ توقَّفْ، تقول موجِّهةً كلامها إلى دووك. لا شيء يدفعك إلى العنف.

ـ كفّي عن الصياح، يجيبها. أنتِ تسبّبتِ في هذه الفوضى، وها أنا الآن أُعيدُ الأمور إلى نصابها.

تهزّ مولي كتفيها باستهجان، وتنظر إلى بريك بابتسامةٍ صغيرةٍ مفعمةٍ بالاعتذار.

ـ أنا آسفة، تقول. أظنّ من الأفضل أن تغادر الآن.

وإذ بريك يدسّ قدميه في فردتيْ حذائه من دون أن يتجشّم عقدَ رباطيهما، ثم يستردّ سترته الجلديّة الملقاة عند قدم الصوفا ويرتديها، فإنّه يوجّه كلامه إليها:

ـ لا أفهم الأمر. دفعتُ لكِ كلّ ذلك المبلغ، والآن تلقينني خارجًا. لا يصحّ ذلك أبدًا.

وبدلاً من أن تجيبه مولي، تُطْرق نحو الأرض وتهزّ كتفيها من جديد. تلك الإيماءة المحايدة كانت تنطوي على مُطْلق التخلّي، والخيانة. يقرِّر بريك، بعد غيابِ كلّ ما يشدّ أزره، الانصرافَ من غير أن يبدي مزيدًا من الاحتجاج. ينحني ويلتقط حقيبةَ الظهر الخضراء من على الأرض، وما كاد يستدير ليخرج حتى يخطفَها دووك من يده.

ـ ما هذه؟ يسأل.

ـ أغراضي، بكلّ وضوحٍ. يقول بريك.

ـ أغراضك *أنتَ*؟ يردّد دووك. لا أظنّ ذلك، أيّها المُسَلّي.

ـ عمَّ تتحدّث؟

ـ إنّها لي الآن.

ـ لك؟ لا يمكنك أن تفعل ذلك. فكلُّ ما أملكه موجودٌ فيها.

ـ إذًا حاول أن تستردّها.

يفهم بريك أنّ دووك يستجرّه إلى عراك، وأنّ الحقيبة هي مجرّد ذريعة. كما يعلم أنّه إذا اشتبك مع صديق مولي، فسيمزّقه إرْبًا. أو ذلك ما يُنْبئه به عقلُه لحظةَ يسمع دووك ينبس بتحدّيه.. لكنّ بريك لم يعد يفكّر بعقله، بسبب الغضب الذي يطفح في داخله وقد طغى على كلّ المنطق. وإذا ما تَرك هذا القوّادَ يتمادى، من دون أن يُبدي نوعًا ما من المقاومة، فسيخسر ما تبقّى من احترام لا يزال يكنّه لنفسه. لذلك يتّخذ بريك وضعيّة المقاوِم، ويشدّ الحقيبةَ على حين غرّة من قبضة دووك. وتوًّا، يبدأ الضرب. هجوم لم يدم طويلاً من طرف واحد بكلّ تأكيد، حين يلقي الرجلُ الكبير بريك أرضًا في ثلاث ضربات: يساريّة على الأحشاء، ويمينيّة على الوجه، وركلة ركبة على الخصيتين. يفور الألمُ من كلّ أركان جسد الساحر. وبينما راح يتلوّى فوق البساط البالي لاهثًا يستجدي الهواء، بيدٍ تقبض البطنَ، وأخرى تشدُّ منطقةَ الخصيتين بإحكام، يرى الدمَ يسيل قطراتٍ من الجرح الذي أُحْدِثَ على وجهه. وفي بُريكة الأحمر المتجمّعة، ثمّة شظيّةُ سنٍّ ـ هي النصفُ الأسفلُ من إحدى القواطع اليسرى. كلُّ ما يراه وعيُه الغائم هو صرخاتُ مولي، وكأنّها آتية عن بُعْدِ عشرة شوارع. لحظةٌ تليها، ثم يغيب عن الوعي.

حين يستعيد بريك وعيَه، يجد نفسه على قدميْه، يناور جسده نازلاً الأدراج، وهو يتشبّث بالدرابزين بيديه كلتيهما، هابطًا ببطءٍ إلى الطابق الأرضيّ، درجةً درجة. لقد فُقدتْ حقيبةُ الظهر، وهو ما يعني أنّ المسدّس والطلقات ضاعت هي أيضًا، عدا الأشياء الأخرى التي كانت في الحقيبة. لكنْ حين يتوقّف بريك لكي يتحسّس جيبَ بنطاله الجينز الأيمن، يرتسم على فمه المثخن بالكدمات طيفُ ابتسامة ـ ابتسامة مرارة لما تبقّى من غير أن يُقْهَرَ بعدُ. لا تزال النقود هناك. لم تعد ألفًا تلك التي أعطاه إيّاها توباك الصباح الفائت، لكنّ خمس مئة وخمسة وستّين أفضلُ من لا شيء، يفكّر، أكثرُ من كافيةٍ لكي تؤمّن له غرفةً في مكانٍ ما ولقمةً يأكلها. وهذا بعيد المنال، وأقصى ما يمكن أن تقودَه أفكارُه إليه الآن: أن يختبئ، أن يغسل الدمَ عن وجهه، أن يملأ معدَته إنْ عادت إليه الشهيّة.

مهما تكن هذه الأفكارُ متواضعةً، فإنّها ستُحْبَط لحظةَ يغادر بريك البناءَ ويخطو على الرصيف. مباشرةً أمامه، تقف ڤرجينيا بلاين وهي تشبك يديها مسنِدةً ظهرها على بابِ جِيبٍ عسكري، وترمق بريك بنظرة اشمئزاز تلوح على وجهها.

ـ لا ألعاب قرديّة، تقول. لقد وعدْتني.

ـ ڤرجينيا، يجيب بريك، محاولاً ما أمكن أن يتغافل، ماذا تفعلين هنا؟

متجاهلةً كلامَه، تهزّ ملكةُ الجمال السابقة في فصل الآنسة بلانت للهندسة، وتردُّ مزمجرةً:

ـ كان من المفترض أن نلتقي بعد ظهر البارحة في الخامسة والنصف. وأنتَ خذلتني.

ـ حدثَ طارئ ما، وكان عليّ المغادرة في الدقيقة الأخيرة.

ـ تعني *أنّي أنا الطارئ الذي حدث*، وجعلك تلوذ بالفرار.

لم يستطع بريك أن يستحضر جوابًا، فالتزم الصمت.

ـ لا تبدو على ما يرام، يا أوين، تتابع ڤرجينيا.

ـ لا، ولا يُفترض بي أن أكون كذلك. أنا خارجٌ للتوّ من علقةٍ ساخنة.

ـ كان عليك الحذرُ من الشلّة التي ترافقها. ذلك الـ روثشتاين شخصٌ قاسي القلب.

ـ من هو روثشتاين؟

ـ دووك، صديقُ مولي.

ـ هل تعرفينه؟

ـ إنّه يعمل لصالحنا. إنّه أحد أفضل رجالنا.

ـ إنّه حيوان. ساديٌّ بغيض.

ـ ما حدثَ كان تمثيليّة، يا أوين. لنلقّنك درسًا.

ـ آه؟ يشخر بريك، والسخطُ يتنامى في داخله. أيُّ درسٍ هذا؟ لقد كَسَر ابنُ العاهرة إحدى أسناني.

ـ يجب أن تكون مسرورًا لأنّه لم يكسرْها كلّها.

ـ رائع جدًّا، يغمغم بريك، بنبرة تهكّمٍ في صوته، ثم يرتدُّ الجزءُ الأخير من الحلم إليه دفعةً واحدةً: عيادة كلّ الأميركيّين السَّنيّة، فلورا والكمّاشة، الوجه الجديد. حسنًا، يفكّر بريكُ، وهو يتحسّس الجرحَ على وجنته، حصلتُ على وجهي الجديد، أليس كذلك؟ كلُّ الشكر لقبضة روثشتاين.

ـ لن يُكتَبَ لك الفوزُ، تقول ڤرجينيا. أنّى ذهبتَ، سيكون هناك مَن يراقبك. لن تُفْلت منّا.

ـ هكذا تحسبين. يقول بريك، غيرَ عازمٍ على الاستسلام، لكنّه يدرك في قرارة نفسه أنّ ڤرجينيا على صوابٍ.

ـ إذًا، يا عزيزي أوين، فصل تبديد الوقت «وأضعْني ـ ثم ـ جِدْني» الموجَز هذا، قد أوشك على الانتهاء. نُطَّ إلى الجيپ. آن الأوانُ لكي تتحدّث إلى فريسك.

ـ ليست لعبةَ نردٍ، لن أقامر، يا ڤرجينيا. لا أستطيع أن أنطّ، ولا أستطيع الجري، ولا أستطيع الذهاب إلى أيّ مكان. وجهي ينزف، وخصيتاي تلهبانني، وكلُّ عضلة في بطني تمزّقتْ إربًا. يجب أن أضمِّدَ نفسي أوّلاً. بعدها سأتحدّث إلى رَجُلِكِ، لكنْ على الأقلّ أعطيني فرصة لكي آخذ حمّامًا ملعونًا.

لأوّل مرّة منذ بدأتْ مناقشتُهما، تبتسم ڤرجينيا. يا صغيري الطيّب، تقول، بابتسامة تعاطفٍ متكلّفة. وسواءٌ أكان هذا الحرصُ عليه حقيقيًّا أمْ زائفًا، فهذا ما لن يتأكَّدَ بريك منه.

ـ هل ستكونين معي؟ يسأل.

ـ اصعدْ، تقول، وهي تربّت على باب الجيپ. طبعًا سأكون معك. سأعود بكَ إلى بيتي، وسنُصْلح من شأنك هناك. الوقت لا يزال مبكّرًا، وبوسع لوو أن ينتظر لبعض الوقت. ما دمت ستلتقيه قبل حلول الظلام، فسيكون الأمرُ على ما يرام.

وبهذا التعهّدِ، يَعْرجُ بريك باتّجاه الجيپ مجرجرًا قوامَه المنهكَ ويجلس على المقعد اليمينيّ، بينما تستقرّ ڤرجينيا خلف المقود. لحظةَ تدير المحرِّك، ستُسهبُ في بيانٍ مستطردٍ مطوّل حول الحرب الأهليّة. لا شكّ أنّه حسُّها بالواجب ذاك الذي يقضي بتزويده بالخلفيّات التاريخيّة للصراع. لكنّ المشكلة تكمن في أنّ بريك ليس في حالٍ تسمح له بتتبّعِ ما تقول، وهما يهتزّان مع ارتجاج الجيپ فوق شوارع ويلينغتون المخدّدة. كان كلُّ ارتجاج ومطبٍّ يبعثُ هجمةَ ألمٍ جديدةً تسري في جسده. وما يزيد الطينَ بلّةً هو ضجيجُ المحرِّكٍ المرتفع الذي يبتلع صوتَ ڤرجينيا. ولكي يسمع بريك أقلّ قدرٍ ممكن، كان عليه أن يلوي نفسه باذلاً كلّ طاقاته، التي استُنْزِفتْ إلى أقصى الحدود، إنْ لم تكن بالفعل قد انعدمتْ. متشبّثًا بأسفل المقعد بكلتا يديه، ضاغطًا نعليْه على الأرضيّة لكي يحصِّنَ نفسه في مواجهة صدم الهيكل، يُبقي عينيه مغمضتين خلال رحلة العشرين دقيقة. ومن بين الوقائع العشرة آلاف التي انهالت عليه ما بين شقّة مولي وبيت ڤرجينيا، هذا ما استطاع أن يحتفظ به:

الانتخابات سنة ٢٠٠٠... تمامًا بعد قرار المحكمة العليا... مظاهرات... شغب في المدن الرئيسيّة... حركة لإبطال المجمّع الانتخابي... إحباط المشروع في الكونغرس... حركة جديدة... تحت قيادة العمدة ورؤساء البلديّات التابعة لمدينة

نيويورك... الانفصال... صادقتْ عليه سلطةُ الولاية التشريعيّة في العام ٢٠٠٣... القوّات الاتّحاديّة تشنّ هجومًا... ولايات ألباني... بافالو... سيراكيوز... روتشيستر... نيويورك سيتي تُقصفُ، ثمانون ألف قتيل... لكنّ الحركة تتعاظم... في سنة ٢٠٠٤ تنضمّ ولاياتُ ماين، ونيو هامشر، وفيرمونت، وماساتشوستس، وكونيتيكت، ونيو جيرسي، وبنسلڤانيا إلى نيويورك في **الولايات المستقلّة الأميركيّة**... لاحقًا في العام نفسه، تنفصل كلّ من كاليفورنيا، وأوريغون، وواشنطن عن جمهوريّتها، پاسيفيكا... في ٢٠٠٥، تنضمّ أوهايو، وميشيغان، وإلينوي، وسكونسن، ومينيسوتّا إلى **الولايات المستقلّة**... الاتّحاد الأوروبي يعترف بقيام البلاد الجديدة... تُقامُ علاقاتٌ دبلوماسيّة جديدة... ثم المكسيك... ثم بلدان وسط أميركا وجنوبها... تليها روسيا، ثم اليابان... من جهة أخرى، يتواصل القتال، بل يزداد روعًا. حصيلة الضحايا ترتفع باطّراد... تجاهُل الفيدراليّين لقرارات الأمم المتّحدة، لكنْ حتى الآن لا أسلحة ستعني الموتَ للجميع من الجانبين... السياسة الخارجيّة: لا تدخّل في شؤون الآخرين... السياسة الداخليّة: تأمين صحّي شامل، لا مزيد من النفط، لا مزيد من السيّارات أو الطائرات، منح المدرِّسين أربعةَ أضعاف الرواتب (لاجتذاب الطلبة المتفوّقين إلى المهنة)، الحظر التامّ على حمل السلاح، تعليم مجّاني وتدريب مهني للمعوزين... لوهلةٍ، الكلُّ في مملكة الفانتازيا، الحلمُ بالمستقبل، منذ اللحظة التي تنحسر فيها الحربُ، ولا يزال قانونُ الطوارئ ساري المفعول.

تبطئ الجيپ من سرعتها تدريجيًّا ثم تتوقّف. تطفئ ڤرجينيا المحرّك. يفتح بريك عينيه ليجد أنّه لم يعد وسط ويلينغتون. لقد وصلا إلى شارع في ضاحيةٍ يبدو عليها الغنى، ببيوتها ذات التكوين التيودوريّ، وحدائقها الأماميّة الطبيعيّة الأصليّة، بمساكب الزنبق، بالفُرسيتيّات وشجيرات الرودندرين، وآلاف مؤلّفة من شِراك الحياة المُنَعَّمة. وإذ يترجّل من الجيپ ويُجيل النظر في الشارع، يلاحظ، مع ذلك، أنّ بعض البيوت تنتصب ضمن الحطام: نوافذ مكسّرة، جدران متفحّمة، حفَرٌ فاغرة في الواجهات، قشور مرميّة تدلّ على أنّ أحدهم عاش هنا. يَفترض بريك أنّ الجوار قد دُكَّ إبّان الحرب، لكنّه لم يشأ أن يوجّه أيّة أسئلة حول ذلك. وفي المقابل، يشير إلى البيت الذي يوشكان على دخوله، ويعلّقُ متملِّقًا: هذا ما يمكن أن نسمِّيَه بيتًا، يا ڤرجينيا. يبدو أنكِ دلّلتِ نفسك بما فيه الكفاية.

ـ زوجي كان محامي شركات، تقول بصراحة، من غير أن يبدو أنّها في مزاجِ مَنْ يودّ التحدثَ عن الماضي. لقد جنى الكثيرَ من المال.

تفتح ڤرجينيا الباب بالمفتاح، ويدخلان البيت...

حمّامٌ ساخن، يستلقي والماء يغمره حتى عنقه، لعشرين دقيقة، ثلاثين دقيقة، مسترخيًا، مطمئنًّا، وحيدًا. بعد ذلك يرتدي روبَ الحمّام الأبيض الذي يعود إلى زوج ڤرجينيا الراحل. يسير باتّجاه غرفة النوم، ليجلس على كرسيّ، بينما تضع ڤرجينيا بأناةٍ بعضَ العَقُولِ المضادّ للبكتيريا على الجرح البليغ في وجنته، ثم تغطّي

الجرح بضمّادةٍ صغيرة. يبدأ بريك يشعر بتحسّنٍ إلى حدٍّ ما. إنّه فعلُ الماء العجيب، يقول في سرّه، وقد انتبه إلى أنّ ألمَ بطنه والآلام السُّفلية الأخرى قد تلاشت. لا تزال وجنته تكتوي، لكنْ في النهاية سينحسر ذلك الإزعاجُ أيضًا. أمّا في ما يتعلّق بالسنّ المكسورة، فليس في اليد حيلة إلى أن تتسنّى له زيارةُ طبيب الأسنان وتركيبُ تاجٍ له، لكنّه يشكّ في أنّ ذلك سيحصل في القريب العاجل. حتى الآن (وهذا ما تثبّتَ منه بعد أن تفحّص وجهَه في مرآة الحمّام)، تبدو الآثارُ بمجملها مثيرةً للاشمئزاز. سنتيمترات قليلة ذهَبتْ بنقاوة الوجه وجعلته يبدو أشبهَ بسكّيرٍ خليع، جلفٍ، ذي دماغٍ كحبّة البازلاء. لحسن الحظّ، تظهر الفجوةُ للعيان فقط حين يبتسم؛ وفي حالة بريك الراهنة، فإنّ آخرَ ما يفكّر فيه هو أن يبتسم. حتى إذا انتهى الكابوس يفكّر، يبقى الاحتمالُ قائمًا بأنّه لن يبتسم ما تبقّى له من حياة.

عشرون دقيقةً أخرى، وها هو في ملابسه الكاملة يجلس في المطبخ مع ڤرجينيا، التي أعدّتْ له خبزًا محمّصًا وقهوة، وهو الحدّ الأدنى من الإفطار الذي كاد أن يكلّفه حياتَه صباحَ البارحة. يجيب بريك على عاشرِ سؤالٍ طرحَتْهُ عن فلورا. يجِدُ فضولَها محيّرًا. إذا كانت هي الشخص المسؤول عن إحضاره إلى المكان، فسيكون من المرجَّح أنّها تعرف مسبقًا كلَّ شيء حوله، بما في ذلك زواجه من فلورا. لكنّ ڤرجينيا في نهم إلى المزيد. والآن يبدأ بريك يتساءل إنْ كان هذا الاستجوابُ لا يتعدّى ببساطةٍ حيلةً لإبقائه في البيت، لتجعله يخسر عاملَ الوقت وبذلك لن يهرب من جديد قبل ظهور فريسك. يريد أن يهرب، هذا مؤكّد. لكنّه بعدما نَقَعَ نفسه في

المغطس، ثم تدثّر في روب الحمّام، واستَشْعر رقّة أناملها وهي تضع الضمادةَ على وجهه، فإنّ شيئًا ما في داخله بدأ يلين تجاه ڤرجينيا، بل يمكنه أن يستشعر لهيبَ مراهَقَتِه القديمَ يشتعل بهدوءٍ من جديد.

ـ التقيتُها في مانهاتن، يقول. منذ ما يقارب ثلاثَ سنواتٍ ونصف السنة، في حفلة عيد ميلاد طفلٍ في شرقيّ مانهاتن العليا. كنتُ الساحرَ، وكانت هي ضمن فريق متعهّدي الطعام.

ـ أهي جميلة، يا أوين؟

ـ بالنسبة إليّ نعم. ليست جميلةً على شاكلتك، يا ڤرجينيا، بوجهك الأخّاذ وقوامك الرشيق. فلورا قصيرة، لا تكاد تصل خمسَ أقدام وأربعَ بوصات، مجرّد شيء صغير من كُلٍّ، حقيقةً: إذ لها هاتان العينان الواسعتان المتّقدتان، وكلّ هذا الشعر الأسود الجذّاب، وأجملُ ضحكةٍ سمعتُها في حياتي.

ـ هل تحبّها؟

ـ بكلّ تأكيد.

ـ وهي تحبّك؟

ـ نعم. معظمَ الوقت، على أيّة حال. مزاج فلورا عويص، ويمكن أن يطير صوابُها وتلجأ إلى نوع من التقريع المطوّل المسعور. وكلّما حدث أن تشاجرنا، أبدأ في الشكّ في أنّ سبب زواجها بي كان لأجل الحصول على الجنسيّة الأميركيّة. لكنّ ذلك لا يحصل إلاّ قليلاً. فتسعة أيّام من عشرةٍ، نكون فيها على ما يرام. بكلّ معنى الكلمة.

ـ ماذا عن الأطفال؟

ـ هم على جدول الأعمال. شرعنا في المحاولة منذ شهرين.

ـ لا تتوقّفْ. تلك كانت غلطتي. انتظرتُ طويلاً، والآن انظرْ إليّ. لا زوج، لا أولاد، لا شيء.

ـ لا تزالين شابّة. لا تزالين أحلى فتاةٍ في هذا الشارع. سرعان ما سيأتي رجل آخر. أنا على يقين من ذلك.

قبل أن تتمكّن ڤرجينيا من الردّ عليه، يرنّ جرس الباب. تنهض، تتمتم بكلمة «خراء» مترافقةً مع نفختها، وهو ما يدلّ على أنّها تعنيها، كأنّها تمتعض من التطفّل. غير أنّ بريك يدرك أنّه مُحاصَر الآن، وأنّ أيّةَ فرصةٍ للهروب قد تلاشت. قبل أن تغادر ڤرجينيا المطبخ، تلتفت إليه وتقول: اتّصلتُ بينما كنتَ تستحمّ. طلبتُ منه أن يأتي بين الرابعة والخامسة، لكنّني أظنّ أنّه لم يستطع الانتظار. آسفة، يا أوين. كنتُ أريد أن أقضي بعض الساعات معك وأُفتنَ بإنزال سراويلك. حقًّا أردْتُ. أردتُ أن أنكحَكَ حتى النخاع. تذكّرْ ذلك عندما تعود.

ـ أعود؟ أتعنين أنّني سأعود؟

ـ سيقوم لوو بالتفسير. هذا عملُه. أنا مجرّد موظّفة في دائرة شؤون المُستَخدَمين، مُسنَّنٌ صغيرٌ في آلةٍ كبيرة.

يتبيّنُ أنّ لوو فريسك رجلٌ صارم الملامح في مطلع الخمسين، يميل نحو القصَرِ، ذو كتفين ضيّقتين، ونظّارتين بإطارٍ سلكيّ، وبشرةٍ مشوّهة لشخصٍ عانى في الماضي من حَبِّ الشباب. يرتدي

بلوزةً خضراء ذاتَ قبّة V فوق قميصٍ أبيض وربطة عنق مزركشة بمربّعات، وفي يده اليسرى يحمل حقيبةً سوداء تشبه تلك التي يحملها الأطبّاء. لحظةَ يدخل المطبخ، يضع الحقيبة أرضًا ويقول:

ـ كنتَ تتهرّب من لقائي، أيّها العريف.

ـ لستُ عريفًا، يردّ بريك. أنت تعلم ذلك. لم أكن جنديًّا طيلة حياتي.

ـ ليس في عالمكَ، يقول فريسك، لكنْ في هذا العالم أنت عريفٌ في فرقة ماساتشوستس السابعة، التي تتبع القوّات المسلّحة للولايات المستقلّة الأميركيّة.

يُسْند بريك رأسه بين يديه ويهمهم بهدوء، وعنصرٌ آخر من الحلم يعود إليه: ورشستر، ماساتشوستس. يرفع ناظريه، يراقب فريسك وهو يغيّر جلوسه إلى كرسيٍّ مقابله عبر الطاولة، ويقول: إذًا، أنا في ماساتشوستس. أهذا ما تقوله لي؟

ـ ويلينغتون، ماساتشوستس، يومئ فريسك، المعروفة سابقًا باسم ورشستر.

يضرب بريك الطاولةَ بقبضته، لينفِّس أخيرًا ثورته العارمة التي لا تني تتأجّج في داخله. لا أحبّ ذلك! يصرخ. أحدٌ ما في داخل رأسي. أحلامي نفسُها لا تنتمي إليّ. حياتي بأكملها سُرقتْ منّي. وإذ يلتفت صوب فريسك، مصوِّبًا النظرَ إلى عينيه بشكلٍ مباشر، يَهْدر بأعلى صوته: مَن الذي يفعل بي ذلك؟

ـ اهدأْ، يقول فريسك، مربِّتًا على يد بريك. لك كلُّ الحقّ في

أن تكون مشوّشًا. لذلك أنا هنا. أنا مَن يضطلع بتفسير الأمر لك، مَن يضع الأشياءَ على الصراط. لا نريدك أن تعاني. لو أتيتَ إليّ عندما كان يُفترض بكَ أن تفعل، لما عشتَ هذا الكابوس. أتفهم ما أحاول قولَه لك؟

ـ ليس تمامًا، يقول بريك بصوتٍ أكثر قهرًا.

عبر جدران البيت، يلتقطُ الصوتَ الواهن لمحرّك الجيپ وهو يُدار، ثم زعيقَ تروس التعشيق لدى تبديل السرعة بينما تقود ڤرجينيا مبتعدةً.

ـ ڤرجينيا؟ يسأل.

ـ ما لها؟

ـ غادرتْ للتوّ، أليس كذلك؟

ـ لديها الكثير لكي تنجزه، ولا علاقة لها بالشغل الذي بيننا.

ـ حتى إنّها لم تقل مجرّد كلمة وداع، يضيف بريك، مُحجمًا عن التسليم بالأمر. في صوته ألمٌ، كأنّه لا يستطيع أن يقتنع تمامًا بأنّها تتخلّص منه بطريقةٍ ارتجاليّةٍ كهذه.

ـ إنسَ ڤرجينيا، يقول فريسك. أمامنا أشياء أكثر أهمِّيّةً لنتحدّث بشأنها.

ـ قالت إنّني سأعود. أهذا صحيح؟

ـ نعم. لكنْ أوّلاً يجب أن أقول لك لماذا. أصغ بانتباه، يا بريك، ثم أعطني جوابًا صادقًا. ينحني فريسك إلى الأمام باسطًا

ذراعيه على الطاولة، ويقول: أنحن في العالم الواقعيّ أمْ لا؟

ـ أنّى لي أن أعرف؟ كلُّ شيء يبدو واقعيًّا، كلّ شيء يدلّ على الواقع. أنا قابعٌ هنا بجسدي *أنا*، وفي الآن نفسه لا يمكنني أن أكون هنا، هل يمكنني؟ أنا أنتمي إلى مكان آخر.

ـ أنت هنا، حسنًا. وتنتمي إلى مكان آخر.

ـ لا أستطيع أن أكون في المكانين. يجب أن أكون في هذا أو ذاك.

ـ هل اسم جيوردانو برونو مألوف لديك؟

ـ لا. لم أسمع به من قبل.

ـ فيلسوفٌ إيطاليّ من القرن السادس عشر. جادلَ أنّه إذا كان الله لامُتناهيًا، وكانت قدراتُ الله لامتناهيةً، فلا بدّ أن يكون هناك عددٌ لامتناهٍ من العوالم.

ـ أعتبر أنّ ذلك عقلاني، على افتراض أنّك تؤمن بالله.

ـ أُحرِقَ على عمودٍ بسبب تلك الفكرة. لكنّ ذلك لا يعني أنّه كان على خطأ، هل كان كذلك؟

ـ لماذا تسألني؟ لا أفهم أوّليات أيٍّ من هذه الأمور. كيف لي أن أكوِّن رأيًا في مسألةٍ لا أفقه منها شيئًا؟

ـ حتى اللحظة التي أَفقتَ فيها قابعًا في الحفرة ذلك اليوم، كانت حياتُكَ بأكملها قد انقضتْ في عالمٍ واحد. لكنِ الآنَ، هل يمكنك أن تؤكّد أنّه كان العالم الوحيد؟

ـ لأنّه. . . لأنّه كان العالم الوحيد الذي عرفتُه أبدًا.

ـ لكنّك تعرف عالَمًا آخرَ. بماذا يوحي إليك ذلك، يا بريك؟

ـ لا أدري.

ـ لا يوجد واقعٌ وحيد، يا عريف. هناك أكثر من واقع. ليس هناك عالَم وحيد. هناك عدّةُ عوالم، وكلّها يسير، أحدُها يوازي الآخر، عوالم ولا ـ عوالم، عوالم وأطياف ـ عوالم، وكلّ عالم قد حُلِمَ أو تُخُيِّلَ أو كُتِبَ مِن قِبَلِ أحدٍ ما في عالمٍ آخر. كلُّ عالمٍ هو من ابتداع الذهن.

ـ تبدو وكأنّك ستنحو نحو توباك. قال إنّ الحرب في رأس رجل، وإنّه لو أُقصيَ ذلك الرجل، فإنّ الحرب ستتوقّف. لعلّ ذلك أكثر ما سمعتُه حِماريَّةً في حياتي.

ـ قد لا يكون توباك الجنديَّ الأكثرَ نباهةً في الجيش، لكنّه كان يقول لك الحقيقة.

ـ إذا أردتَني أن أقتنع بخبلٍ كهذا، فسيكون عليك برهنتُه لي أوّلاً.

ـ حسنًا، يقول فريسك، صافعًا الطاولةَ براحةِ يده، وماذا عن هذه؟ ومن دون كلمة أخرى، يمدّ يده اليمنى داخل بلوزته ويُخرج من جيب قميصه صورةً بقياس ثلاث بوصات مضروبة بأربع. هُوَ ذا المُذْنِبُ، يقول، وهو يمرّر الصورة إلى بريك عبر الطاولة.

لا يلقي بريك أكثر من لمحة سريعة على الصورة. إنّها لقطة ملوّنة لرجل في أواخر الستّين أو أوائل السبعين يجلس على كرسيّ

ذي عجلات أمام منزل ريفيّ أبيض. رجلٌ يبدو أنّه يستحقّ التعاطف بكلّ معنى الكلمة، كما يلاحظ بريك، بشعره الرماديّ الشائك ووجهِه الذي أكل عليه الدهرُ وشرب.

ـ هذا لا يبرهن أيَّ شيء، يقول، وهو يعيد الصورةَ إلى فريسك. إنّه مجرّد رجل. رجل لا على التعيين. وفقَ ما أرى، قد يكون عمَّك.

ـ اسمه أوغست بريل، يبدأ فريسك. لكنّ بريك يقاطعه قبل أن يتمكّن من قول المزيد.

ـ ليس وفقًا لما قاله توباك. قال إنّ اسمه هو بليك.

ـ بلانك.

ـ أيًّا كان.

ـ توباك لا يطّلع على آخر تقارير الاستخبارات. لفترة طويلة، كان بلانك المشبوهَ الرئيسيَّ بالنسبة إلينا، لكنّنا فيما بعد شطبناه عن القائمة. بريل هو المقصود. ونحن على يقين من ذلك الآن.

ـ إذًا أَطْلِعْني على القصّة. مُدَّ يدَك إلى حقيبتك تلك واسحبْ منها مخطوطة وأشرْ إلى جملةٍ يَرِدُ اسمي فيها.

ـ تلك هي المعضلة. بريل لا يدوِّن أيّ شيء. إنّه يقصّ القصّة على نفسه في رأسه.

ـ وكيف يقيَّض لك أن تعرف ذلك؟

ـ إنّه سرٌّ عسكريّ. لكنّنا نعرف، يا عريف. ثق بي.

ـ هراء.

ـ أنت تريد العودة، أليس كذلك؟ حسنًا، تلك هي الوسيلة الوحيدة. إذا لم تقبل المهمّة، فسَتَعْلَقُ هنا إلى الأبد.

ـ حسنًا. على سبيل الجدال لا أكثر، تصوّرْ أنّني قمتُ بقتل هذا الرجل... هذا الـ بريل. ماذا يحدث؟ إنْ كان قد اختلق عالمَك، ثم لحظة يموتُ، فلن تعودَ موجودًا بعدها.

ـ لم يختلقْ هذا العالم. هو اختلق الحرب فقط. واختلقكَ أنتَ، يا بريك. ألا تفهم ذلك؟ إنها قصّتُكَ أنتَ، لا قصّتنا نحن.. العجوز اختلقك أنت لكي تقتله.

ـ بذلك يكون انتحارًا الآن.

ـ بمعنًى أو بآخر، نعم.

مرّةً أخرى، يضع بريك رأسه بين يديه ويبدأ بالأنين. هذا أكثرُ ممّا يَحتمِل؛ فبعد أن جَهِدَ ليحتفظ بموطئ قدمٍ في مواجهة إلحاحات فريسك الهوسيّة، يمكنه أن يشعر بدماغه يتحلّل، يدور ممسوسًا عبرَ كونٍ من الأفكار المتنافرة والمخاوف اللامتبلورة. شيء واحد فقط واضح لديه: أنّه يريد أن يعود. يريد أن يكون مع فلورا من جديد ويرجع إلى حياته السابقة. ولكي يحظى بذلك، يجب أن ينفّذ أمرًا، أن يرتكب جريمة ويقتلَ أحدًا لم يلتقِ به من قبل، شخصًا غريبًا تمامًا. سيتعيّن عليه أن يطيع، لكنْ حالما يَعْبر إلى الحيِّز الآخر، ما الذي سيمنعه من رفض تنفيذ المهمّة؟

فيما لا يزال مطرقًا بنظره إلى الطاولة، ينتزع الكلمات من فمه: أخبرني بشيء ما عن الرجل.

ـ آه، هذا أفضل، يقول فريسك. ها نحن على جادّة الصواب أخيرًا.

ـ لا تُراعِني، يا فريسك. فقط قلْ لي ما أحتاج أن أعرفه.

ـ ناقدُ كُتُبٍ متقاعدٌ، في الثانية والسبعين من العمر، يعيش في أطراف باتلبورو، فيرمونت، مع ابنته ذات السبعة والأربعين عامًا وحفيدته ذات الاثنين والعشرين عامًا. توفّيت زوجتُه العام الفائت. زوجُ الابنة هجرها منذ خمسة أعوام. صديق الحفيدة مات مقتولاً. إنّه بيت الأتراح، والأرواح المكلومة، وفي كلّ ليلة يضطجع بريل في الظلام، محاولاً أن لا يفكّر في ماضيه، ملفِّقًا القصصَ التي تدور في عوالم أخرى.

ـ لماذا هو على كرسيّ العجلات؟

ـ حادث سيّارة. تهشّمتْ ساقُه اليسرى. كادوا أن يبتروها.

ـ وإذا وافقتُ على قتل هذا الرجل، ستُعيدُني.

ـ تلك هي الصفقة. لكنْ لا تحاول أن تتملّص منها، يا بريك. إذا نكثتَ بعهدك، فإنّنا سنمضي في أثرك. رصاصتان. واحدة لك وواحدة لفلورا. طاخ، طاخ. لا وجود لك. لا وجود لها.

ـ لكن إذا تخلّصْتَ منّي، ستستمرّ الحرب.

ـ ليس ذلك بالضرورة. عند هذا الحدّ لا تتجاوز كونها افتراضًا محضًا، رغم أنّ بعضنا يظنّ أنّ التخلّص منك قد يؤتي بالنتائج نفسها التي تترتّب على إزاحة بريل. فالقصّة ستُختتم، والحرب ستنتهي. لا تضع في حسبانك أننا لن نُقْدِمَ على المجازفة.

ـ كيف أعود؟

ـ أثناء نومِك.

ـ لكنّني حدثَ أن غبتُ في النوم هنا. مرّتين. وفي المرّتين كلتيهما أفقتُ وأنا لا أزال في المكان نفسه.

ـ هذا نومٌ عاديّ. ما أتحدّث عنه هو النوم المحرَّض صيدلانيًّا. ستُعطى حقنةً. الأثر شبيه بالتخدير ـ الذي يُخْضعون شخصًا له قبيل الجراحة. خواء السلوان الأسود، العَدَم عميقًا ومظلِمًا كما الموت.

ـ يبدو مثل اللهو، يقول بريك، الذي لا يمنعه عدمُ توتّره ممّا هو مُقْدِمٌ عليه من إطلاق مزحةٍ خفيفة.

ـ هل في نيّتكَ أن تُجَرِّبَ، أيّها العريف؟

ـ وهل لي الخيار؟

أشعر بالسعال يتجمّع في صدري. حشرجةٌ بلغم خافتةٌ اندفنتْ عميقًا في شعيْباتي القصبيّة، وقبل أن أتمكّن منً كبحها، يأتي الانفجار عاصفًا بحنجرتي. فيقطّعها إربًا إربًا، يحثُّ المادّةَ اللزجةَ صعودًا، يلفظ البقايا الدّبِقة العالقة في القصبات. لكنّ محاولة واحدة ليست كافية. محاولتان، ثلاث، وها أنا في أوجِ التشنّج. كامل جسدي يزلزل للهجمة. إنّها غلطتي. أقلعتُ عن التدخين منذ خمسة عشر عامًا، لكنْ مع وجود كاتيا في البيت وسجائرِ الأميركان سبيريتس الخاصّة بها في كلّ مكان، بدأتُ أنزلقُ إلى المتع القديمة، القذرة، متسوّلاً الأعقابَ من ورائها ونحن نغوص في جلّ ميراث السينما العالميّة، جنبًا إلى جنب على الصوفا، نتبادل نَفْثَ الدخان، قاطرتان تصفران تنأيان عن عالَم ملتاثٍ، لا يُحتَمل، لكنْ من دون ندم، بل قد أضيف، من دونً ثانية تفكير، أو وخزة تبكيت. إنّها الصحبة التي يُعتدّ بها، ميثاقُ التآمر، إنها الـ ***fuck you*** *يا تضامن الملعونين*.

أفكّر في الأفلام من جديد، مُدْرِكًا أنّ لديّ مثالاً آخرَ أضيفه إلى

لائحة كاتيا. يجب أن أتذكّر أن أقوله لها قبل أيّ شيء آخر غدًا صباحًا ـ في غرفة الطعام على مائدة الإفطار ـ إذ إنّه منوطٌ بي أن أبهجَها، وإذا أمكنني تدبُّر رسمِ ابتسامةٍ على وجهها الكئيب، فسأعتبره إنجازًا جديرًا بالثناء.

إنّها ساعة اليد في ***حكاية طوكيو***. شاهدنا الفيلم منذ أيّام قليلة، وكلانا للمرّة الثانية، لكنّ مشاهدتي الأولى تعود إلى عقودٍ مضتْ، أواخر الستّينيّات أو مطلع السبعينيّات. وعدا عن تذكّر افتتاني به، فإنّ جلّ القصّة قد غاب عن ذهني. أوزو، ١٩٥٣، ثماني سنوات بعد هزيمة اليابان. فيلم ذو هدوء مهيب من النوع الذي يقول أبسطَ القصص، لكنّه مشغولٌ بحِرَفِيّة وعمق المشاعر لدرجة أنّ الدمع ترقرق في عينيّ عند النهاية. بعض الأفلام يضاهي الكتبَ في روعتها، بل يضاهي أفضلَ الكتب في روعتها (نعم، يا كاتيا، سأسلِّم معك بذلك)، وهذا واحدٌ منها، ولا جدال حول الأمر، عملٌ فيه من الحذق والتأثير ما في قصص تولستوي.

عجوزان يسافران إلى طوكيو لزيارة أولادهما الراشدين: طبيب عصاميّ وزوجته وأولاده، وابنة تعمل مصفِّفةَ شَعرٍ في صالون تجميل، وزوجة ابنٍ لهما قُتِل في الحرب، فباتت أرملةً شابّة تعيش وحيدة وتعمل في عيادة. منذ البداية، يتّضح أنّ الابن والابنة يعتبران حضورَ والديهما العجوزين عبئًا ومضايقة نوعًا ما. إنّهما منشغلان بأعمالهما، وبعائلاتهما، ولا وقت لديهما لكي يعتنيا بهما كما يليق. وحدها كنّتهما تبادرُ بطريقتها لتحيطهما بشتّى أنواع الرعاية. في نهاية المطاف، يغادر الولدان طوكيو عائدَين إلى المكان الذي يعيشان فيه (لم يُذكَر اسم المكان، كما أظنّ، أو أنّي

سهوتُ عندما ذُكِرَ). وبعد أسابيع من ذلك، فجأةً، ومن دون أيّة علّة تُنْذِرُ، تموت الأمّ. تنتقل أحداثُ الفيلم إلى بيت العائلة في تلك المدينة أو البلدة التي لم يَرِدِ اسمُها. يأتي الأولاد الراشدون من طوكيو لحضور الجنازة، مع الكنّة، نوريكا أو نوريكو، لا أستطيع التذكّر، لكنْ فلنقل نوريكو ولنبقَ عليه. بعد ذلك يَظهر ابنٌ ثانٍ من مكانٍ آخر. وأخيرًا هناك أصغر الأولاد ضمن المجموعة، امرأة في بداية العشرين، لا تزال تعيش في البيت، وتعمل معلّمة في مدرسة ابتدائيّة. على الفور يفهم المرء أنّها لم تجلّ وتعجب بنوريكو وحسب، بل إنّها تفضّلها على إخوتها أيضًا. بعد الجنازة، تتحلّق العائلة حول طاولة الغداء، ومرّةً أخرى ها هما، الابنُ والابنةُ القادمان من طوكيو مشغولان، مشغولان، مستَغرِقَان في ارتباطاتهما المسبقة لدرجة أنّهما لا يقدّمان لوالدهما شيئًا يُذْكر من الدعم. يبدآن بالنظر إلى ساعتيهما، ثم يقرّران العودة إلى طوكيو في قطار الليل. كما يقرّر الأخ الثاني المغادرة بدوره. لا شيء قاسيًا بشكلٍ جهريّ في سلوكهما - وينبغي التوكيد على هذه: إنّها في الواقع النقطة الأساسيّة التي يتمحور أوزو حولها. إنّهم مأخوذون كُلّيًّا، مقيّدون بمشاغل حياتهم الخاصّة، وبمسؤوليّاتٍ أخرى تنأى بهم بعيدًا. لكنّ نوريكو الرقيقة تختار البقاء، لم تشأ التخلّي عن والد زوجها في حِدادِه (حدادٌ مسوّرٌ، بملامح متحجّرة، لمجرّد التأكيد، لكنّه يبقى حِدادًا)، وفي آخر صباحٍ من زيارتِها المُمَدّدة، تتناولُ الإفطار مع الابنة المُعلّمة.

لا تزال الفتاة ساخطةً بسبب مغادرة أخويها وأختها المتسرّعة. تقول إنّه كان عليهم البقاءُ أطول من ذلك، وتنعتهم بالأنانيّين. لكنّ

نوريكو تبرّر ما فعلوه (رغم أنّها نفسها لن تفعله)، شارحةً لها بأنّ كلّ الأولاد ينجرفون بعيدًا عن ذويهم في نهاية المطاف؛ فلهم حياتهم الخاصّة التي عليهم أن يتدبّروا شؤونها. أمّا الفتاة فتصرّ على أنّها لن تكون مثلهم. ما جدوى العائلة إذا كنتِ ستتصرّفين بهذه الطريقة؟ تقول. تُكرّرُ نوريكو تعليقَها السابق، مُحاوِلةً أن تهدّئ الفتاة بقولها إنّ هذه الأمور تحصل مع الأبناء، الذين لا حيلة لهم. فاصلٌ من الصمت يَعْقب ذلك، ثم تنظر الفتاة إلى أرملة أخيها وتقول: الحياة مُخَيِّبةٌ، أليس كذلك؟ تلتفتُ نوريكو إلى الفتاة، وتعبيرٌ عميقٌ يرتسم على وجهها، تُجيب: نعم، إنّها كذلك.

تمضي المعلّمةُ إلى العمل، وتأخذ نوريكو في ترتيب البيت (وهو ما يذكّرني بالنساء في الأفلام التي تحدّثتْ عنها كاتيا هذه الليلة)، لنَبْلغ مشهدَ الساعة، وتلك هي اللحظةُ التي قام الفيلمُ بأكمله عليها. يدخل العجوزُ البيتَ آتيًا من الحديقة، وتخبره نوريكو بأنّها ستغادر في قطار الظُّهر. يجلسان ويتحدثان. وإذا كان لي أن أتذكّر في كثيرٍ أو قليلِ زبدة محادثتهما ومَجْراها، فلأنّني طلبتُ إلى كاتيا أن تُعيدَ عرضَ المشهد بعد أن انتهى الفيلم. إلى هذه الدرجة كنتُ مأخوذًا به، أردتُ أن أدرسَ الحوار عن كثب لأرى كيف أَمْكنتْ لـ أوزو إدارتُه بهذه النجاعة.

يبدأ العجوزُ بشكرها لكلّ ما قامتْ به، غير أنّ نوريكو تهزّ رأسها وتقول إنّها لم تفعل أيّ شيء. يلحّ العجوز بالقول إنّها كانت سندًا عظيمًا، وإنّ زوجته حدّثته عن شدّة ودادها معها. من جديد، تتصدّى نوريكو للمديح، وهي تهزّ كتفيها مستهجِنَةً أن تكون قد

قدّمتْ إلاّ ما هو متواضع، وغيرُ ذي أهمِّيّة. يقول العجوز، دون أن ينثني، إنّ زوجته أخبرتْه بأنّ الوقت الذي أمضته مع نوريكو كان أسعد أوقاتها في طوكيو. كانت شديدة القلق على مستقبلك، يضيف. لا يمكنكِ الاستمرارُ على هذه الحال. يجب أن تتزوّجي مرّة أخرى. انسي X (ابنه، زوجُها). لقد مات.

يبدو أنّ نوريكو أكثر ارتباكًا من أن تستجيب، ولا يبدو أنّ العجوز يريد الاستسلامَ وغلقَ الحديث. يضيف: ملمّحًا أيضًا إلى زوجته: قالت إنّكِ ألطفُ امرأة التَقَتْها أبدًا. تُطْرِقُ نوريكو، مُدَّعِيّةً أنّ زوجته قد بالغتْ في تقديرها لها، لكنّ العجوز يبادرها بسرعة مؤكِّدًا بأنّها على خطأ. تأخذ نوريكو تَشْعر بالتداعي. أنا لستُ المرأةَ اللطيفةَ التي تظنّها، تقول. الحقيقة أنّني في منتهى الأنانيّة. ثم تشرح أنّها لا تتذكّر ابنَ الرجل العجوز طوال الوقت، وقد مضت تلك الأيّامُ من غير أن يَعْبر في بالها ولو مرّةً. بعد برهة قصيرة، تعترف بشدّة وحدتها وكيف أنّها حين يعزّ عليها النوم ليلاً ـ تستلقي في الفراش وتتأمّل ما ستؤول إليه. كأنّ قلبي يترقّبُ شيئًا ما. أنا أنانيّة.

العجوز: لا، لستِ أنانيّة.

نوريكو: بلى. إنّني أنانيّة.

العجوز: أنتِ امرأة صالحة. امرأة صادقة.

نوريكو: كلاّ، على الإطلاق.

إذّاك، تنهار نوريكو أخيرًا وتبدأ بالبكاء. تجهش وهي تغطّي وجهها بيديها، وقد انفتحتْ بوّابات السدّ ـ هذه المرأة التي كابدتْ

طويلاً بصمت، هذه المرأة الطيّبة التي ترفض الاقتناع بأنّها طيّبة، فالطيّبون وحدهم يشكّون في طيبتهم، وهو في المقام الأوّل ما يجعلهم طيّبين. السيّئون يعرفون أنفسهم على أنّهم طيّبون، لكنّ الطيّبين لا يعرفون شيئًا. إنّهم يقضون حياتهم وهم يغفرون للآخرين، لكنّهم أبدًا لا يستطيعون أن يغفروا لأنفسهم.

ينهض العجوز، وبعد ثوانٍ يعود وفي يده ساعة، ساعة من طراز عتيق بغطاء معدني يقي سطحها. إنّها لزوجته، يقول لنوريكو، ويريدها أن تحتفظ بها، اقبليها لأجل خاطرها، يقول. أنا على يقين من أنّها كانت ستسعد بذلك.

متأثِّرةً باللفتة، تشكره والدموع تتدحرج على وجنتيها. يتأمّلها العجوزُ وعلى وجهه هيئةُ مَنْ تزدحم فيه الأفكارُ، لكنّ هذه الأفكار غير قابلة للنفاذ إلينا، إذ تتخفّى انفعالاتُه وراء قناع من الحياد الصارم. يرقب نوريكو وهي تبكي، يدلي بتصريح بسيط، مؤدّيًا كلماته بأسلوب صريح، غيرِ مشحونٍ بالعاطفة، وهو ما سبّب لها الانهيارَ في ثورة جديدة من النشيج ـ طويل الأمد، شهقات مخنوقة، نحيب أسًى موغل وفاجع، كأنّ صميمَ ذاتها قد انصدع فاغرًا.

ـ أريدك أن تكوني سعيدة، يقول العجوز.

عبارة وجيزة، تنهار نوريكو على إثرها، منسحقةً تحت وطأة حياتها هي. ***أريدك أن تكوني سعيدة***. وإذ تمضي في البكاء، يتلفّظُ والدُ زوجها بتعليق آخر وحيد قُبيل نهاية المشهد. إنّه لمن الغريب، يقول، فيما يشبه عدم التصديق، إنّ لدينا أولادَنا من لحمنا ودمنا، ومع ذلك أنتِ مَن أعطانا أكثر من أيّ أحدٍ آخر.

قطْعٌ للمشهد، وها نحن في المدرسة. نسمع الأولاد يغنّون، وبعد برهة نحن في غرفة الصفّ حيث تُدَرِّسُ الابنة. صوتُ قطار يُسمع من البعيد. تنظر الشّابّة إلى ساعتها ثم تخطو باتّجاه النافذة. يمرّ القطار هادرًا: قطار الظهر، وعلى متنه زوجةُ أخيها العزيزة في طريقها إلى طوكيو.

قَطْعٌ، وها نحن في القطار ذاته ـ وضجيجُ العجلات الهادر وهي تلقي بثقلها على السكّتين. ها نحن نندفع إلى الأمام نحو المستقبل.

بعد لحظات، ها نحن في إحدى العربات. تجلس نوريكو وحدها، تُحدِّقُ مشدوهةً في الفراغ، ذهنُها في مكانٍ آخر. بضع لحظات أخرى تمرّ، وبعدها تتناول ساعةَ حماتِها من على حضنها. تفتح الغطاء، وفجأةً يمكننا أن نسمع تكّاتِ عقرب الثواني يدور على قرص الساعة. تتابع نوريكو تفحُّصَ الساعة، وفي لحظة واحدة تنقلب سحنتُها إلى الحزن والتأمّل. وإذ ننظر إليها والساعةُ على راحة يدها، نشعر أنّنا ننظر إلى الزمن ذاتِه. الزمن يتسارع بتسارع القطار، يدفعنا من حياة إلى حياة ثم إلى حياة أخرى، لكنّ الزمن كالماضي، كماضي الحماة، ماضي نوريكو، الماضي الذي يعيش في الحاضر، الماضي الذي نحمله معنا إلى المستقبل.

زعيقُ صفّارة القطار يعود ليرنّ في آذاننا. صوت قاسٍ ونافذ. ***الحياة مُخيِّبة، أليس كذلك؟***

ـ أريدكِ أن تكوني سعيدة.

وهنا ينبترُ المشهد..

أرامل. نساء يعشن وحيدات. صورة نوريكو في رأسي وهي تشهق بالبكاء. يتعذّر عليّ ألاّ أفكّر الآن بأختي - واليدِ الغاشمةِ التي قادتها إلى الزواج من رجلٍ مات في ريعان الشباب. كانت تتخمّر في داخلي على الدوام، منذ بدأتُ التفكير في حربي الأهليّة، حقيقةُ أنّني أُقصيتُ عن كلّ الأشياء العسكريّة طوال حياتي. إنّها مصادفة الولادة، إذ شاء الحظّ أن آتي إلى العالم في ١٩٣٥، وهذا ما جعلني صغيرَ السنّ في حرب كوريا وكبيرَ السنّ في حرب ڤييتنام، ومن ثم أنعم عليّ الحظُّ برفضي من قِبل الجيش عندما سُحبتُ للخدمة في ١٩٥٧. قالوا إنّي أُعاني نفخةً في القلب، وهذا ما تبيّن عدمُ صحّته، وصنّفوني في فئة أصغر. ومن ثم لا حروب بعدها. لكنّ المرّة التي صادفتْ أن كنتُ أقرب ما يكون إلى شيءٍ يشابهها، هي عندما رافقتُ بِتِي وزوجها الثاني، غيلبرت روس. كان ذلك في العام ١٩٦٧، ستكون أربعون سنة تمامًا قد مرّت هذا الصيف. ثلاثتنا كنّا نتناول العشاء معًا في شرقي مانهاتن العليا، عند تقاطع لكسينغتون آفينيو كما أظنّ مع الشارع السادس

والستّين أو السابع والستّين، في مطعم صيني زال من عهدٍ بعيدٍ اسمُه صن لوك. كانت سونيا قد سافرتْ إلى فرنسا لتزور والديها في ضواحي ليون مع ميريام ذات الأعوام السبعة. وكان يُفترض أن ألتحق بهما فيما بعد، لكنّني في تلك الأثناء كنتُ منزويًا في صندوق أحذيتنا وهو شقّة على ريڤرسايد درايڤ، أكدحُ على مقالةٍ مطوّلةٍ ستُنشر في هارپرز، حول جديد الشعر والنثر الأميركيَّين اللذين ألهبتهما حربُ ڤيتنام ـ من دون مكيّف هواء، بل مجرّد مروحة بلاستيكيّة، أدوّن وأطبع على الآلة الكاتبة وأنا في ثيابي الداخليّة، ومساميّ تفيض في موجة حرٍّ نيويوركيّة جديدة. كنّا نعاني في ذلك الحين ضيقَ ذات اليد، لكنّ بِتِي كانت تكبرني بسبعة أعوام وكانت تعيش في بحبوحة، كما قالوا، وبناءً على ذلك كانت في وضع يمكنها من دعوة الولدِ/ أخيها إلى عشاءٍ مجّاني في الخارج بين حين وآخر. بعد زواج أوّل مخفق دام أطول ممّا ينبغي، تزوّجتْ من غيل منذ ثلاث سنوات. اختيار صائب، كما شعرتُ ـ أو على الأقلّ بدا كذلك في ذلك الحين. كان غيل يكسب المالَ من عمله محاميًا عمّاليًّا ووسيطَ إضرابات، كما أصبح في بداية الستينيّات عضوًا في حكومة مدينة نيوآرك كمستشار قانوني للشركات. وعندما قدِمَ وأختي إلى نيويورك في تلك الليلة منذ أربعين عامًا، كان يقود سيّارةً تابعةً لمجلس المدينة، مجهّزةً براديو إرسال واستقبال. لا أستطيع أن أتذكّر أيّ شيء عن العشاء بحدّ ذاته، لكنّنا عندما رجعنا إلى السيّارة وأدار غيل المحرّك ليعود بي إلى البيت، اندلعتْ أصواتٌ مهتاجة عبر الراديو ـ مكالمات شرطة، كما افترضتُ، تفيد بأنّ مركز نيوآرك في حالة من الهيجان. ولكي

لا يتجشّم غيل مشقّة أن يتّجه شمالاً ليوصلني إلى شقّتي، فقد اتّجه مباشرة إلى نفق لينكولن، وبذلك تأتّى لي أن أشهد أسوأ عصيانٍ عرقي في التاريخ الأميركي. أكثر من عشرين شخصًا قُتلوا، أكثر من سبعمائة جُرحوا، أكثر من ألف وخمسمائة اعتُقِلوا، أكثر من عشرة ملايين دولار خسائر ممتلكات. أتذكّر هذه الأرقام لأنّ كاتيا عندما كانت في الثانويّة منذ سنوات قليلة، كتبتْ بحثًا عن العنصريّة لتقدّمه إلى صفّ التاريخ الأميركي، وقد أجرتْ مقابلة معي حول العصيان. أستغربُ كيف بقيتْ هذه الأرقام عالقةً في الذاكرة؛ ولكنْ، على كثرة الأشياء التي تنسلّ منّي الآن، فإنّي ألوذ بهذه الأرقام برهانًا على أنّني لمّا أنتهِ بالفعل.

كانت قيادة السيّارة إلى نيوآرك في تلك الليلة أشبه بدخول واحدة من أسفل حلقات الجحيم. أبنيةٌ تحترق، حشودٌ من الرجال تتراكض مسعورةً في الشوارع، أصواتُ تهشُّم الزجاج تترافق مع تحطّم نوافذ المتاجر واحدة إثر الأخرى، دويُّ صفّارات الإسعاف والحريق، اندلاعُ طلقات ناريّة. قاد غيل السيّارةَ باتّجاه دار البلديّة، وحين أصبحنا نحن الثلاثة داخل المبنى، توجّهنا مباشرةً إلى مكتب العمدة. خلف المكتب كان يجلس هوف أدونيزيو، وهو رجلٌ أصلع، منتفخٌ، مثل إجّاصة، في منتصف الخمسين. وهو بطلُ حربٍ سابق، وعضو الكونغرس ستَّ مرّات، وعمدةٌ للدورة الثانية على التوالي. الرجل المهمّ كان ضائعًا كلّيًّا، غارقًا وراء مكتبه، والدموعُ تُغرق وجهه. ماذا عليّ أن أفعله؟ قال، مستنجدًا بـ غيل. ماذا عليّ أن أفعل بحقّ الجحيم؟

صورة لا تُمْحى، ولم تبهتْ بعد مرور كلّ تلك السنوات: مشهد

تلك الشخصيّة المشلولة بسبب ضغط الأحداث، رجل شلّه اليأسُ، والمدينةُ تتفجّر من حوله. في هذه الأثناء، انصرف غيل إلى شغله بهدوء، مهاتفًا الحاكمَ في ترينتون، ومهاتفًا رئيسَ دائرة الشرطة، باذلاً أقصى طاقته ليقبض على زمام الوضع. في الموضع نفسه، غادرتُ الغرفة برفقته، وهبطنا الأدراج باتّجاه السجن في الطابق الأسفل من البناء. كانت الزنازين مكتظّة بالسجناء، وكلُّهم من الرجال السّود، ونصفُهم على الأقلّ كانوا يقفون هناك في ثيابهم الممزّقة، الدم يسيل من الرؤوس، والوجوه متورّمة. لم يكن من العسير أن تخمّن ما قد سبّب تلك الجروحَ، لكنّ غيل سأل السؤال بأيّة حال. رجُلاً بعد رجُل، لم يختلف الجواب: كلُّهم قد ضُرِبوا من قِبَل رجال الشرطة.

لم يمضِ وقت طويل على عودتنا إلى مكتب العمدة حتى دخل عضو في شرطة ولاية نيوجرسي، الكولونيل براند براندت بكلّ تأكيد. إنّه رجل في حوالى الأربعين، بشعرٍ محلوق على طريقة المارينز، وفكٍّ عريضٍ، محْكمِ الإطباق، وعينين حادّتين لجنديّ في سلاح البحريّة يوشك أن يبحر للقيام بعمليّة كوماندوز. صافح أدونيزيو. جلس على كرسيّ، ثم تلفّظ بهذه الكلمات: «سنتصيّد كلّ ابن حرام أسودَ في هذه المدينة». ربّما لم يكن يجب أن أُصعق، لكنّني صُعقتُ. قد لا يكون ذلك بسبب التصريح، بل بسبب وقع الصوت القارس التحقير الذي أصدر هذا التصريح. طلب غيل إليه ألاّ يستخدم هذا النوعَ من اللغة، لكنّ الكولونيل اكتفى بأن تنهّد وهزّ رأسه، متجاهلاً ملاحظةَ زوج أختي، معتبرًا أنّه مغفّلٌ جاهل.

ـ تلك كانت حربي أنا. ربّما ليست حربًا حقيقيّة، ولكنْ حين تَشْهد عنفًا بهذا المستوى، فلن يصعب عليكَ أن تتخيّل أسوأ منه. وحين يغدو عقلُك مؤهّلاً لفعل ذلك، ستدرك أنّ أسوأ احتمالات يمكن أن يتخيّلها عقلُك هي البلاد التي تعيش فيها. فقط فكّرْ فيها، وفي فرص حصولها.

ذلك الخريف، عندما اختير غيل لموقعٍ ميؤوسٍ من جدواه بوجوب تمثيل مجلس مدينة نيوآرك ضدّ عددٍ لا حصر له من الدعاوى القضائيّة التي رفعها أصحابُ المحالّ التجاريّة التي تضرّرتْ جرّاء العصيان، غادر منصبه ولم يعمل في سلك الحكومة بعد ذلك. بعد خمسة عشر عامًا، وقبل عيد ميلاده الثالث والخمسين بشهرين، كان في عداد الأموات.

أريد أن أتأمّل بِتِي، لكنْ لكي أفعل ذلك ينبغي أن أتأمّل غيل، ولكي أتأمّل غيل يجب أن أعود إلى البداية. ومع ذلك، فما مدى ما أعرفه؟ ليس كثيرًا، في النهاية، لا يتجاوز بضع وقائع ذات صلة بالموضوع، تجمّعتْ لديّ من قصصٍ أخبرني إيّاها هو أو بِتِي. كان أوّل ثلاثة أولاد وُلدوا لصاحب حانةٍ في نيوآرك، كان يمكن اعتبارُه توأمًا شبيهًا بِـ بيب روث. في مرحلة ما، هيمن دَتش شولتز على والد غيل وسرق منه العمل، ولكنْ لا أستطيع أن أقول كيف ولماذا. وبعد ذلك بسنوات قليلة وقع والده ميتًا بنوبة قلبيّة. كان غيل في الحادية عشرة حينها، ومنذ مات والده مفلسًا، كان الشيءَ الوحيدَ الذي ورثه عنه ارتفاعُ ضغط الدم المزمن ومرضُ القلب ـ الذي شُخِّص أوّل مرّة وهو في الثامنة عشرة ومن ثم تطوّر إلى داءٍ

تاجيٌّ مزمنٍ عندما كان في الرابعة والثلاثين فقط، لتتبع ذلك نوبةٌ أخرى بعد سنتين. كان غيل رجلاً طويلاً مفعمًا بالحياة، لكنّه أمضى كلّ حياته محكومًا بالموت الذي يجري في عروقه.

تزوّجتْ أمّه ثانيةً وهو في الثالثة عشرة. وفي حين لم يبدِ زوجُ أمّه معارضةً في تربية الولدين الأصغرين، فإنّه رفض أن يكون لـ غيل حظّ في ذلك وطرده خارج البيت ـ بموافقة أمّه الضمنيّة. أتحدّث عمّا لا يمكن تخيّله: أن تُنْبَذَ من قِبل أمّك وتُودَعَ لدى الأقرباء في فلوريدا لتعيش بقيّة طفولتك بينهم.

بعد إتمامه المرحلة الثانويّة، عاد إلى الشمال وبدأ دراسته الجامعيّة في جامعة نيويورك، محكومًا بحاجته إلى المال، مجبرًا على العمل ضمن دوامٍ جزئيّ في عدّة أعمال معًا لكي يبقى في حالة من الاكتفاء الذاتيّ. ذات يوم، عندما كان مستغرقًا في رواية شدّة حرمانه في تلك الأيّام، وَصَفَ كيف دَرَجَ على الذهاب إلى رانترز، مطعم مشتقّات الحليب اليهودي القديم جنوبَ شرقي مانهاتن، ليجلس إلى الطاولة، ويقول للنادل إنّه بانتظار أن تأتي صديقتُه بين دقيقة وأخرى. كان من ضمن إغراءاتِ كبير الطهاة القائمين على المطعم أقراصُ رانترز الذائعة الصيت التي تقدّم في وجبةِ العشاء. في اللحظة التي تجلس فيها، سيأتي نادل ويتحفك بسلّةٍ من تلك الأقراص، مصحوبةً بمؤونةٍ عامرةٍ من الزبدة. وقرصًا مغمّسًا بالزبدة إثر آخر، سيأكل غيل ذلك وهو في طريقه إلى الإجهاز على السلّة، ملقيًا نظرةً سريعةً إلى ساعته بين الحين والآخر، متظاهرًا بنفاد الصبر بسبب تأخّر صديقته الوهميّة. وإذ تَفْرغ السلّةُ الأولى،

ستُستبدَلُ تلقائيًّا بالثانية، والثانية بالثالثة. أخيرًا، لن تظهر الصديقة، وسيغادر غيل المطعم راسمًا على وجهه تعبيرَ الخيبة. بعد فترة، أدرك النّدُلُ الحيلة، لكنْ ليس قبل أن يسجّل غيل رقمًا قياسيًّا بالتهامه سبعةً وعشرين قرصًا مجّانيًّا في جلسةٍ واحدة.

كلِّيّة الحقوق، تليها بدايةُ فترة تمرين ناجح، وانخراطٌ متنام في صفوف الحزب الديموقراطيّ. الليبراليّة اليساريّة، المثاليّة، تأييده لستيفنسون خلال ترشيحه في الانتخابات الرئاسيّة سنة ١٩٦٠، مرافقة إلينور روزفلت إلى مؤتمر أتلانتيك سيتي، ولاحقًا صورة فوتوغرافيّة (انتقلتْ إلى مُلكيّتي بعد وفاة بِتِي) لغيل وهو يصافح جون ف. كينيدي أثناء زيارته نيوآرك في العام ١٩٦٢ أو ١٩٦٣ وكينيدي يقول له: «لطالما سمعنا أشياء عظيمةً عنك». لكنّ ذلك كلّه تعكّر بعد كارثة نيوآرك. وحالما نَفَضَ غيل يدَه من السياسة، حزمَ وبِتِي أغراضَهما وانتقلا إلى كاليفورنيا. لم أرَهما بعدها إلاّ قليلاً، لكن خلال السنوات الستّ أو السبع التي تلتْ، سمعتُ أنّ أمورهما على أحسن ما يرام. أنشأ غيل مكتبَ تمرين قانونيًّا، وفتحتْ أختي متجرًا في لاغونا بيتش (أدوات مطبخ، أغطية طاولات، آلات طحن وعدد منزليّة عالية النوعيّة)، ومع ذلك توجّب على غيل أن يبتلع أكثر من عشرين حبّة دواء في اليوم ليبقى على قيد الحياة. وكانا كلّما جاءا إلى شرق الولايات المتّحدة للزيارات العائليّة، بدا مظهرُه على أحسن حال. ثم تدهورت صحّتُه. ففي منتصف السبعينيّات، جعلتْ سلسلةٌ من توقّفات القلب وحالات وهنٍ أخرى عملَه مستحيلاً تمامًا. أرسلتُ لهم ما استطعتُ، كلّما استطعتُ. وبينما كانت بِتِي تعمل دوامًا كاملاً لكي

تؤمّن المتطلّبات الأساسيّة، كان غيل يمضي جلّ أيّامه وحيدًا في البيت، يقرأ الكتب. أختي الكبيرة وزوجها المحتضر كانا على بُعد ثلاثة آلاف ميل عنّي. وخلال تلك السنوات الأخيرة، كما أخبرتني بِتِي، كان غيل يدسّ رسائلَ حُبٍّ في أدراج خزانة ملابسها، مخفيًا إيّاها بين حمّالات صدرها وقمصانها الداخليّة وسراويلها؛ فكلَّ صباحٍ، حين كانت تنهض من النوم لترتدي ملابسها، ستجد رسالةَ غرامٍ جديدةً تبوح لها بأنّها أبهى امرأةٍ في الدنيا. لم يكن ذلك سيّئًا، في النهاية. إذا أخذنا في الاعتبار ما كانا يواجهانه، ليس سيّئًا على الإطلاق.

لا أريد التفكيرَ في النهايّة: السرطان، الإقامة الأخيرة في المشفى، ضوء الشمس الفاحش الذي غَمَرَ المقبرةَ صبيحةَ يوم الدفن. لقد نبشتُ في الماضي ما يكفي، ورغم ذلك، لا أستطيع تركَ الأمر يمضي دون استذكار تفصيلٍ واحدٍ أخير، لفتةٍ واحدةٍ أخيرةٍ بشعة. ففي الوقت الذي توفّي فيه غيل، كانت بِتِي غارقةً في الدّيون لأنّ تكاليف بقعة الدفن كانت عبئًا حقيقيًّا. كنتُ مهيّأً لتقديم العون، لكنْ، لأنّها استدانت منّي المال مرارًا، فقد وجدتْ نوعًا من الإحراج في أن تقوم بذلك من جديد. وبدلاً من أن تعتمد عليّ، التجأتْ إلى حماتها السيّئة السمعة، التي سمحتْ بأن يُلقى غيل خارج البيت عندما كان لا يزال صبيًّا صغيرًا. لا أستطيع تذكّرَ اسمها (ربّما لأنّني أكنُّ لها منتهى الاحتقار)، لكنْ في العام ١٩٨٠ كانت قد تزوّجتْ زوجها الثالث، رجلَ أعمالٍ متقاعدًا حدث أن أصاب ثراءً فاحشًا. بالنسبة إلى الزوج رقم اثنين، لست أدري إنْ كانت مغادرته قد حصلتْ بسبب الموت أو الطلاق ـ ذلك لا

يعنيني. كان الزوجُ الثريّ رقم ثلاثة يمتلك قطعةَ أرض كبيرةً في مقبرة في مكانٍ ما جنوبي فلوريدا، وقد وجدتْ أختي سبيلاً إلى مكالمته بشأن السماح بدفن غيل هناك. بُعَيْد ذلك بأقلّ من سنة، مات الزوج رقم ثلاثة، ونشبتْ حربُ ميراثٍ بلزاكيّة كبيرةٌ، بين أبنائه وبين والدة غيل. ساقوها إلى المحكمة، ربحوا دعواهم، ولكي يتسنّى لها أن تخرج من القضيّة ولو بالنزر اليسير من المال، قبلَتْ أحدَ شروط التسوية الذي نصَّ على رفعِ رفات غيل من أرض مقبرة العائلة. فتخيّل! المرأة تطرد ابنها من بيته عندما كان ولدًا، ولاحقًا، من أجل كيس من الفضّة، تَطْرده من قبره بعد موته. عندما اتّصلتْ بِتِي لتقصَّ عليَّ ما حدث، كانت تشهق بالبكاء. لقد صمدتْ خلال موت غيل بنوع من السموّ الرزين، الرواقيّ، لكنّ ذلك كان أكثر من أن تحتمِلَ، فانهارت وفقدت السيطرةَ بشكلٍ تامّ. وفي الوقت الذي نُبِشَ فيه رفاتُ غيل وأُعِيدَ دفنُه، لم تعد الشخص ذاتَه.

احتملتْ أربعَ سنوات أخرى بعد ذلك. عاشت وحيدةً في شقّة صغيرة في ضواحي نيوجرسي. غدت سمينةً، سمينة جدًّا، وبعد فترة ليست طويلة أصيبت بالسكّري، وانسداد الشرايين، وإضبارةٍ سميكةٍ من العلل. احتوتْ يدي بين يديها عندما هجرتني أوونا لينتهي زواجنا الكارثيّ الذي دام خمسَ سنوات. هلّلتْ عندما رجعنا، سونيا وأنا، واحدنا إلى الآخر. التقت ابنها كلّما سافر وزوجته من شيكاغو. حضرتْ مناسبات عائليّة. شاهدتِ التلفاز من الصباح وحتى المساء.. كان لا يزال في مقدورها أن تقول النّكات الخفيفة الظلّ كلّما واتتها الروح. بعدها تحوّلتْ إلى أكثر النساء

اللاتي عرفتهنّ كآبةً في حياتي. وذاتَ صباح في ربيع ١٩٨٧، اتّصلت بي مدبِّرةُ منزلها في حالةٍ شبه هستيريّة. كانت قد دخلتْ للتوّ شقّةَ بِتِي، مستعينةً بالمفتاح الذي كانتِ تحتفظ به لأغراض التنظيف الأسبوعيّة، لتجد أختي ممدّدة على الفراش. استعرتُ سيّارةً من جارٍ لي، وقُدتُها إلى نيوجرسي، لأتعرّف على جثّتها لدى الشرطة. كانت صدمةً أن أراها على هذه الهيئة: ساكنةً جدًّا، غائبةً جدًّا، وبشكل فظيع، فظيع، ميّتةً جدًّا. عندما سألوني إذا كنتُ أريد من المشفى إجراءَ تشريح للجثّة، أخبرتُهم أنّه لا داعيَ إلى ذلك. كان هناك احتمالان لا غير: أن يكون جسدُها قد أُنْهِك بسبب المرض، أو أنّها تناولتْ جرعةً من الحبوب، ولم أشأ معرفة الجواب؛ فكلا الجوابين لن يقول القصّة الحقيقيّة. لقد ماتت بِتِي بسبب قلبها المحطّم. بعضُ الناس يضحكون حين يسمعون هذه العبارة، لكنّ ذلك بسبب عدم درايتهم بأيّ شيء عن العالم. يموت الناس بسبب القلوب المحطّمة. يحدث ذلك كلّ يوم، وسيستمرّ في الحدوث إلى نهاية الزمان.

لا، لم أنسَ. قادني السعالُ إلى الدوران في منطقةٍ أخرى، لكنّني لا أزال حيث كنتُ، ولا يزال بريك معي. بين الثخين والرقيق، بسبب ذلك النكوص الكئيب إلى الماضي، لكنْ ما السبيلُ إلى إيقاف الذهن عن التفريغ أنّى أراد المضيَّ؟ للذهن ذهنٌ يختصّ به. مَنْ قال ذلك؟ أحدهم، أمْ أنّني فكّرتُ فيه بنفسي اللحظةَ؟ ذلك لا يشكّل فرقًا. صوغُ عباراتٍ في منتصف الليل، اختلاقُ القصص في منتصف الليل ـ ها نحن ننتقل، عزيزتيّ الصغيرتين، ونعيش المكابدةَ كما يجدر بهذه الفوضى أن تكون. ثمّة شِعرٌ في تضاعيفها، أيضًا، إنْ وَقعتْ على الكلمات التي تعبِّرُ عنها، على افتراض أنّها انوجدتْ في الأصل. نعم، يا ميريام، الحياة مخيِّبة. لكنّني في المقابل، أريدُكِ أن تكوني سعيدة.

لا تتشتّتْ. أنا أخوّض في الماء لأنّه يمكنني أن أرى القصّة تتّخذ واحدًا من اتّجاهاتٍ متعدّدة، ولا أزال غير واثق بأيّ مسلكٍ سأمضي فيه. الأمل أم اللاأمل؟ الخياران أمامي، وحتى الآن لا يرضيني أيٌّ منهما بشكل كامل. أثمّة طريقٌ وسطٌ بعد بدايةٍ كهذه،

بعد إلقاء بريك إلى الذئاب ليؤُولَ عقلُ هذا الساذجِ نكرةً؟ ربّما لا. فكِّرْ بخبث، إذًا، غُصْ فيها، امضِ معها حتى النهايّة.

كانت الحقنة قد أُعطِيَتْ. يغيب بريك في سواد لاوعيٍ بلا قرار. بعد ساعات يفتح عينيه، ليجد أنّه في الفراش مع فلورا. إنّه الصباح الباكر، الساعة السابعة والنصف أو الثامنة. وبينما ينظر بريك إلى ظهر زوجته النائمة العاري، يتساءل إنْ كان مخطئًا طوال الوقت، وإنْ لم يكن الوقت الذي أمضاه في ويلينغتون جزءًا من منامٍ رديءٍ شديدِ الوطأة يبعث على الغثيان. غير أنّه، وهو يبدّل موضعَ رأسه على الوسادة، يستشعر ضمادة ڤرجينيا تضغط على وجنته. وحين يُمرّر لسانَه على حافّة السنّ المكسورة، لن يكون أمامه إلاّ أن يواجه الحقائق: لقد كان هناك، وكلُّ ما حدث معه في ذلك المكان كان حقيقيًّا. الآن، هناك قشّة واحدة، واهية يتمسّك بها: ماذا لو كان اليومان اللذان قضاهما في ويلينغتون لم يتعدّيا طرفةَ عين في هذا العالم؟ ماذا لو لم تَعْلم فلورا بغيابه؟ إنّ ذلك سيحلّ مشكلةَ الاضطرار إلى تبرير أين كان. أمّا بالنسبة إلى بريك، فإنّه يَعْلم أنّ تقبّل الحقيقة سيكون عسيرًا، خصوصًا من امرأةٍ غيورٍ مثل فلورا. ولو شاء أن تخرج الحقيقة على شكل كذبة، فليس لديه من الجَلَدِ أو الرغبة في تدبيج حكايةٍ من نوع قد يبدو أكثر قابليّةً للتصديق، شيءٍ يهدّئ شكوكها ويجعلها تتفهّم أنّ غيابه يومين لا علاقة له بامرأةٍ أخرى.

لسوء حظّ بريك، فإنّ للساعتين في العالَمين كليهما التوقيتُ نَفسُه. وفلورا تعلم بغيابه، وحين تتقلّب أثناء نومها وتمسّ جسدَه

من دون قصد، تفيق مصدومةً على الفور. تهمد مخاوفُه إزاء الغبطة التي تفيض من عينيها البنّيتين الحادّتين، وفجأةً يشعر بالخجل من نفسه، وبخزي الذات لأنّ الشكّ خامره يومًا في حبّها له.

ـ أوين؟ تسأل، كأنّها لا تكاد تجرؤ أن تصدّق ما حدث. أحقًّا هذا أنت؟

ـ نعم، يا فلورا، يقول. ها قد عُدتُ.

تُلقي بذراعيها من حوله، تضمّه بقوّة إلى جلدها الناعم، العاري. كدتُ أصبح مجنونة *crazy*، تقول، مُدَوِّرةً حرف الـ *r* برجفةٍ غنائيّةٍ لافتةٍ على لسانها. مجنونةً *crazy* كلّيًّا بلا عقل. وحالما ترى الضمادة على وجنته والكدمات حول شفتيه تنقلب ملامحُها إلى شيء كالذعر. ماذا حدث؟ تسأل. لقد ضُرِبْتَ في كلّ مكان، يا حبيبي.

استغرقه الأمرُ ما ينوف على الساعة وهو يقدّم تقريرًا مفصّلاً عن رحلته الغرائبيّة إلى أميركا الأخرى. الشيء الوحيد الذي يُسقِطُه هو تعليقُ ڤرجينيا الأخير بأنّها تريد أن تُفتنَ بإنزال سراويله، وأن تنكحه حتى النخاع، لكنّ ذلك تفصيل ثانوي، ولا يرى جدوى من إغاظة فلورا بسبب أمور أثّرتْ قليلاً في مجرى القصّة. الفصل الأكثر تثبيطًا يوشك أن يُختتم، عندما يحاول أن يعيد باختصارٍ محادثتَه مع فريسك، لم يكد يتقبّلها عقلُه حينها، وها هو الآن في شقّته، يجلس في المطبخ يرتشف القهوة مع زوجته. كلُّ ذلك الحديث عن الوقائع المتعدّدة والعوالم المتعدّدة التي حُلِمَ بها وتمَّ تخيّلُها بواسطة أدمغة أخرى تغزوه من جديد على أنّها لغوٌ نفدتْ فاعليّتُه. يهزّ

رأسه، كأنّه يعتذر عن أنه حَمّل الأمرَ أكثر ممّا يحتمل. لكنّ الحقنة كانت واقعًا، يقول. وكذلك توجيه الأمر له كي يَقتل أوغست بريل كان واقعًا. وإذا لم ينفّذ المهمّة، فإنّه وفلورا سيكونان دائمًا في خطر.

حتى الآن، أصغت فلورا بصمت، وبأناة راحت تتأمّل زوجها وهو يَسْرد قصّتَه الغرائبيّة التي تبعث على السخرية، والتي تعتبرها أكبر كومة هراءٍ راكمتْها قريحةُ إنسان. ففي ظروف عاديّة، كانت فلورا ستنفجر في واحدة من ثورات غضبها وتتّهمه بخيانتها، لكنّها ليست ظروفًا عاديّة، وفلورا، التي تعرف كلَّ غلطة من أغلاط بريك، وانتقدتْه مرّاتٍ لا تُحصى خلال سنوات زواجهما الثلاث، لم تنعته مرّة بالكذّاب. وفي مواجهة الهراء الذي قيل لها للتوّ، تجد نفسَها مشدوهةً، عاجزة عن الكلام.

ـ أعرف أنّها تبدو غير معقولة، يقول بريك. لكنّها حقيقيّة تمامًا، بكلّ كلمة جاءت فيها.

ـ وأنت تتوقّع منّي أن أصدّقك، يا أوين؟

ـ أنا نفسي لا أكاد أصدّقها. لكنّها حدثتْ بحذافيرها، يا فلورا، بالضبط كما رويتُها لك.

ـ أتظنّني مغفّلة؟

ـ عمَّ تتحدّثين؟

ـ إمّا أنّك تحسبني مغفّلة أو أنّ بك مسًّا.

ـ لا أظنّ أنّك مغفّلة، وليس بي مسٌّ.

ـ تَلُوح كواحد من أولئك المعتوهين، كواحدٍ ممّن اختطفتْهم الكائناتُ الفضائيّة. كيف كانت هيئة أهل المرّيخ، يا أوين؟ هل كانت لديهم سفينة فضائيّة كبيرة؟

ـ كفاكِ، يا فلورا. لا فكاهة في الأمر.

ـ فكاهة؟ مَن الذي يحاول أن يكون فَكِهًا؟ أنا أريد فقط أن أعرف أين كنتَ.

ـ قلتُ لكِ للتوِّ. ألا تظنّين أنّه لم يخاتلني ابتداعُ قصّة أخرى، شيء ما غبيٍّ، كأن أكونَ هوجِمْتُ وفقدتُ ذاكرتي لمدّة يومين، أو أنّ سيّارة دهستني، أو أنّني وقعتُ على أدراج قطار الأنفاق، بعض من هذه السفاسف؟ لكنّني قرّرت أن أقول الحقيقة.

ـ ربّما هذا ما حدث. ضُربتَ ضربًا مبرّحًا، هذا كلّ ما في الأمر. ربّما كنتَ مُلقًى في زقاقٍ طوال اليومين الماضيين، ورأيتَ كلّ هذا الشيء في المنام.

ـ لماذا إذًا أضع هذه على ذراعي؟ لقد وضعتْها ممرِّضةٌ بعد أن أعطوني الحقنة. إنّها آخر شيء أتذكّره قبل أن أفتح عينيّ هذا الصباح.

يشمّر بريك كمّه الأيسر، يشير إلى ضمادة صغيرة بلون الجسد أعلى ساعده، وينتزعها بيده اليمنى.

ـ انظري، يقول. ألا ترين قشرةَ الجرح الصغيرة هذه؟ إنّها موضعُ انغراس الإبرة في جلدي.

ـ إنّها لا تعني أيّ شيء، تجيب فلورا، متجاهلةً العيِّنة اليتيمة

للدليل الراسخ الذي يستطيع أن يقدّمه بريك. هناك مليونُ طريقةٍ مختلفة تتسبّبُ بقشرة الجرح هذه.

ـ صحيح. لكنّ الحقيقة هي أنّها حصلتْ بطريقة واحدة، الطريقة التي أخبرتُكِ بها، من إبرة فريسك.

ـ حسنًا، يا أوين، تقول فلورا، محاوِلةً أن لا تفقد اعتدالَها، ربّما يجب أن نتوقّف عن الحديث عنها الآن. أنتَ في البيت. وهذا هو الشيء الوحيد الذي يعنيني. بحقّ المسيح، يا حبيبي، أنت لا تدري كيف كان الحال في اليومين الماضيين. وصلتُ حدّ الجنون، أعني الجنون مئة بالمئة. ظننتُ أنّك ميّت. ظننتُ أنّك هجرتني. ظننت أنّك كنتَ مع فتاة أخرى. وها أنت تعود الآن. إنّها مثل معجزة، وإذا كنت تريد الحقيقة، فأنا لا يعنيني ما قد حدث. لقد غبتَ، وها أنت عدتَ الآن. انتهت القصّة، اتّفقنا؟

ـ لا، يا فلورا، لم نتّفق. لقد عدتُ، لكنّ القصّة لمّا تنتهِ بعد. يجب عليّ أن أذهب إلى ڤيرمونت وأقتلَ بريل. لا أعرف كم من الوقت لديّ، لكنّني لا أستطيع المكوثَ هنا والانتظارَ طويلاً. إذا لم أفعلها، سيكونون في إثرنا. رصاصة لك ورصاصة لي. هذا ما قاله فريسك، ولم يكن يهذر.

ـ بريل، تَنْخر فلورا، متهجّئةً الاسمَ وكأنّه شتيمةٌ في لغة أجنبيّة ما. أراهنك بأنّه لا وجود له.

ـ رأيتُ صورته، أتتذكّرين؟

ـ الصورة لا تثبت شيئًا.

ـ هذا بالضبط ما قلتُه عندما عَرَضَها فريسك عليّ.

ـ حسنًا، هناك طريقة واحدة للتحقّق، أليس هناك؟ إذا كان واحدًا من صنف الكُتّابِ الحرّيفين، فلا بدَّ أن يكون على الإنترنت. لنشغّلْ كمبيوتري ونُجْرِ بحثًا عنه.

ـ قال فريسك إنّه نال جائزةَ بوليتزر منذ عشرين عامًا تقريبًا. إذا لم يكن اسمُه على اللائحة، فسيعني أنّنا سنكون طلقاءَ في البيت. أمّا إذا كان، فلتحترسي حينها، يا فلورا الصغيرة. سنكون واقعَيْن في نوع من البلاء الكبير.

ـ لن يكون، يا أوين. يمكنك الاتّكالُ على ذلك. لا وجود لبريل، لذلك لا يمكن أن يكون اسمه هناك.

لكنّ الاسم ظهر. أوغست بريل، الحائز جائزةَ بوليتزر للنقد سنة ١٩٨٤. يعمّقان البحث، وخلال دقائق ستتجمّع لديهما أعداد هائلة من المعلومات، من ضمنها بياناتٌ من سيرته الذاتيّة عن موقع Who's Who in America (وُلِد في مدينة نيويورك، سنة ١٩٣٥. تزوّج من سونيا وايل عام ١٩٥٧. تطلّقا ١٩٧٥. تزوّج أوونا ماكنالي سنة ١٩٧٦. تطلّقا سنة ١٩٨١. ابنته، ميريام، وُلدتْ سنة ١٩٦٠. نال بكالوريوس آداب وفنون من جامعة كولومبيا سنة ١٩٥٧، ودكتوراه شرف من جامعة ويليامز ومعهد براتْ. عضو الأكاديميّة الأميركيّة للفنون والعلوم. مؤلّف ما يزيد عن ١٥٠٠ من المقالات والمراجعات، والأعمدة الصحفيّة في المجلاّت والصحف. محرّر الكتب في **بوسطون غلوب**، بين سنتَيْ ١٩٧٢ ـ ١٩٩١). كما يشتمل الموقعُ على أكثر من أربعمائة من آثاره التي كُتبت بين سنتَيْ

١٩٦٢ و٢٠٠٣، بالإضافة إلى عدد من الصور التي التُقطتْ لبريل في ثلاثينيّاته، أربعينيّاته وخمسينيّاته، وكلّ ذلك لا يترك مجالاً للشكّ بأنّها تمثّل مراحلَ عمر الرجل العجوز على كرسي العجلات المركونة أمام البيت المكسوّ بالألواح البيضاء في ڤيرمونت.

يجلس بريك وفلورا أمام طاولة مكتبٍ صغيرةٍ في غرفة النوم. عيونهما مثبّتة إلى الشاشة أمامهما، يخشيان أن ينظر أحدُهما إلى الآخر وهما يرقبان آمالَهما تَؤول رمادًا. أخيرًا، تطفئ فلورا الكمبيوتر المحمول وتقول بصوت خفيض متهدّج: أظنّ أنّي كنتُ على خطأ، هه؟

ينهض بريك ويبدأ يذرع أرض الغرفة. هل تصدّقينني الآن؟ يسأل. هذا الـ بريل، هذا الملعون من الله أوغست بريل... لم أسمع باسمه حتى البارحة. أنّى لي أن ألفِّقَ القصّة؟ ليس عندي الذكاء الكافي لكي أتخيّل نصف الأشياء التي أخبرتُكِ بها، يا فلورا. أنا مجرّد شخص يؤدّي خدعًا سحريّة للأولاد الصغار. لا أقرأ كتبًا، ولا أعرف شيئًا عن نقّاد الكتب، ولستُ معنيًّا بالسياسة. لا تسأليني كيف، لكنّني للتوّ عدتُ من مكانٍ هو في أوارِ حربٍ أهليّة. والآن عليّ أن أقوم بقتل رجل.

يجلس على طرف السرير، وقد غلبته حدّة الظّروف، والغبن المطبق بسبب ما قد حصل معه. ترقب فلورا بريك بعينين متوجّستين، وتسير عبر الغرفة وتجلس بجانبه. تحيط زوجَها بذراعها، تسند رأسها على كتفه، وتقول: لن تقوم بقتل أحد.

- يجب عليّ أن أفعل ذلك، يُجيب بريك، محدِّقًا إلى الأرضيّة.

ـ لا أعرف ماذا أرتئي وماذا لا أرتئي، يا أوين. لكنّني أقول لك الآن. إنّك لن تقوم بقتل أحد، بل ستترك هذا الرجل وشأنه.

ـ لا أستطيع.

ـ لماذا تظنّ أنّني تزوّجتك؟ لأنّك شخصٌ نقيّ، حبيبي، شخص طيّب ونزيه. أنا لم أتزوّج من قاتل. تزوّجتك أنت، أوين بريكي، المرِح، ولن أقف مكتوفة الأيدي وأتركك تقتل أحدًا ثم تُمضي بقيّةَ عمرك في السجن.

ـ أنا لا أقول إنّي أريد أن أفعل ذلك. كلُّ ما في الأمر أنْ لا خيار لي.

ـ لا تتحدّث بهذه الطريقة. لكلّ امرئٍ الخيارُ. وعلاوةً على ذلك، ما الذي يجعلك تظنّ أنّك ستقدر على مجرّد الخوض في ذلك الأمر؟ هل تستطيع فعلاً أن تتخيّل نفسَك وأنت تدخل بيتَ الرجل، مصوِّبًا مسدّسَكَ إلى رأسه، لتصرعه بدم بارد؟ لن تفعل ذلك في مائة سنة، يا أوين. ليس من خصالك أن ترتكب أمرًا كهذا وحسب. ولله الحمد.

يدرك بريك أنّ فلورا على حقّ. أبدًا لن يُقْدِمَ على قتل غريب، ولو كان الثمن حياته ـ وهو ما يبدو أنّه سيحدث. يُطْلِق تنهيدةً متهدّجةً، طويلة، ثم يرسل يده في شعر فلورا ويقول: إذًا ماذا ينبغي أن أفعل؟

ـ لا شيء.

ـ ماذا تعنين بـ **لا شيء**؟

ـ سنبدأ حياتنا من جديد. تقوم بعملك، أقوم بعملي. نأكل، وننام، وندفع فواتيرنا. نغسل الصحون وننظّف سجّاد الأرضيّة. نعمل على أن يكون لنا طفلُنا. تضعني في المغطس وتغسل شعري بالشامبو. أفرك لك ظهرك. تتعلّم خدعًا جديدة. نزور والديْكَ ونُصغي إلى أمّك وهي تشكو من وضعها الصحّي. نَمضي، يا حبيبي، ونعيش حياتنا الصغيرة. هذا الذي أتحدّث عنه. لا شيء.

ينقضي شهر. في الأسبوع الأوّل لعودة بريك، تنقطع العادةُ الشهريّة عن فلورا، ويحمل لهم اختبارُ الحمل المنزلي أنباءً تفيد بأنّهما سيصبحان والدَين بحلول كانون الثاني/يناير القادم إذا سار كلُّ شيء على ما يرام. يحتفلان بنتائج الاختبار الإيجابيّة بالخروج إلى مطعم من مطاعم مانهاتن الفخمة يتجاوز إمكانيّاتهما الماليّة، فيُجْهِزَان على زجاجة الشمبانيا الفرنسيّة كاملةً قبل أن يطلبا الطعام. ثم يتخِمان نفسيهما بشريحة هائلة من لحم البقر مخصّصةٍ لاثنين، وتدّعي فلورا أنّها تكاد تكون بجودة اللحم في الأرجنتين. في اليوم التالي، في الزيارة الثانية لطبيب الأسنان، يتمّ تركيب تاج على سنّ بريك اليسرى، ويستأنف مهنته كزافيللو الكبير. وإذ يلفّ المدينة بسيّارته المازدا الصفراء المتهالكة، فإنّه يتلفّع بردائه ويؤدّي ألعابه في تجمّعات المدارس الابتدائيّة، ومساكن المتقاعدين، والمراكز الاجتماعيّة، والحفلات الخاصّة. يَسْحب الحمَامَ والأرانب من رأس قبّعته، يجعل أوشحة الحرير تختفي، يلتقط البيض من الفراغ، ويحيل تشكيلات الجرائد إلى باقات ملوّنة من زهور الثالوث والتوليب والورود. أمّا فلورا، التي تركتْ مهنةَ تعهّد الوجبات قبل سنتين، وتعمل الآن موظّفةَ استقبال في عيادة طبيب

على پارك آڤينيو، فتطلب من رئيسها رفعَ أجرها عشرين دولارًا، فيرفض. تنفجر في هيجان كبرياء مجروح وتندفع خارج المبنى. لكنْ، حين تناقش الأمر مع بريك ذلك المساء، يحثّها على أن تعود الصباحَ التالي وتعتذر إلى الدكتور سونتاغ. وهذا ما ستفعله. ولأنّ الدكتور لا يريد أن يفقد موظّفة جادّة، كفؤة مثلها، فإنّه يكافئها بزيادة عشرة دولارات على راتبها، وهذا كل ما تَأْمله في المقام الأوّل. العوز إلى المال مشكلة، ومع طفل قادم في الطريق، يتساءل بريك وفلورا إذا كانا بما يكسبانه الآن قادرَيْن على سدّ رمقِ هذا الفم الثالث. في ظهيرة أحدٍ كالحةٍ لدى اقتراب نهاية الشهر، يتوصّلان إلى حدّ مناقشة إمكانيّة أن يلجأ بريك إلى العمل لدى ابن عمّه رالف، الذي يمتلك وكالةَ عقارات متفوّقةً نشطةً في پارك سلوب. حينها سيغدو السحر مهنةً جانبيّة، أكثر بقليل من هواية تُمارَسُ في أيّام عطلاته، الأمر الذي يجعل بريك متردّدًا حيال اتّخاذ خطوة جذريّة كهذه، ناذرًا على نفسه أن يقع على عملٍ يدرّ مالاً أوفر يمنحه مزيدًا من البحبوحة التي يَنْشدانها. في غضون ذلك، لم تغب عن باله زيارتُه إلى أميركا الأخرى. لا تزال ويلل ينغتون تكوي داخلَه، ولا يكاد يمرّ يوم لا يتذكّر فيه توباك، وموليوولد، ودووك روثشتاين، وفريسك، ويتذكّر الأكثر إلحاحًا منهم كلّهم، ڤرجينيا بلاين. لا يستطيع أن يتمالك نفسه. منذ عودته أضحتْ فلورا أكثر عذوبةً معه، محوِّلَةً نفسها إلى الشريكة التي طالما هام بها. وعلى الرّغم من أنْ لا جدالَ في مبادلته إيّاها الحبَّ نفسه، فإنّها تبقى ماثلةً هناك، كامنة في ركنٍ ما من وجدانه، وهي تضع بنعومةٍ الضمادةَ على وجهه وتبوح له بشدّة رغبتها في أن

تُفتن بإنزال سراويله. على سبيل التعويض، ربّما، يَشْرع في مطالعة مقالات بريل الأولى على الإنترنت ـ ودائمًا، بالطبع، خفْيَةً، من حيث لا يريد أن تدري فلورا بأنّه لا يزال يفكّر في الرجل الذي أُمِرَ بقتله. وفي كلّ مرّة يستعرض مراجعة كتابٍ يبدو مثيرًا للانتباه، يلجأ إلى استعارته من المكتبة. كان فيما مضى يقضي أمسياته في مشاهدة التلفاز مع فلورا على الصوفا في غرفة الجلوس. أمّا الآن فإنّه يتمدّد على السرير ويقرأ الكتب. حتى اللحظة، فإنّ أهمّ اكتشافاته هم تشيخوف، وكالڤينو، وكامو.

على هذا النمط يغيب بريك وفلورا في لا شيءِ زواجهما، الحياةِ الصغيرة التي أغوته بأن يعاودها ممزوجةً بلمسةٍ طيّبةٍ لامرأة لا تؤمن بالعوالم الأخرى، بل توقن أنّه ثمّة هذا العالم وحسب، وأنّ ذلك الروتين الخدر والمشادّات الوجيزة والهموم الماليّة هي جزءٌ لا يتجزّأ منه؛ إذ على الرّغم من السأم والآلام والخيبات، يبقى العيشُ في هذا العالم أقربَ ما يمكن أن يطاله النظرُ من الفردوس. بعد الساعات الرهيبة في ويلينغتون، يتوق بريك إلى ذلك أيضًا، إلى خليط نيويورك المتطاحن، وجسد حبيبته فلوراتينا العاري، وعمله كزاڤيللو الكبير، وطفله الذي لمّا يأتِ وهو ينمو خفيَةً بمرور الأيّام؛ ومع ذلك يدرك في قرارة نفسه أنّه قد التاثَ بزيارته العالمَ الآخر وأنّه عاجلاً أم آجلاً سيَبْلغ كلُّ شيء نهايَته. يفكّر في أن يقود السيّارة إلى ڤيرمونت ويتحدّث إلى بريل. هل سيمكن إقناعُ الرجل العجوز بالكفّ عن التفكير في قصّته؟ يحاول أن يتخيّل المحادثة، يحاول أن يستدعي الكلمات التي سيستخدمها ليستهلَّ بها محاججتَه. لكنّ كلّ ما يمكنه أن يتصوّره هو بريل يَضْحك عليه

ضحكةَ الرجل المفطور على الشكّ، والذي سيتلقّاه على أنّه معتوهٌ، معتلُّ العقل، مُلقيًا إيّاه بلا تردّدٍ خارج البيت. لذلك لا يفعل بريك شيئًا، وبالضبط بعد مرور شهر على عودته من ويلينغتون، مساءَ الحادي والعشرين من أيّار/ مايو، وبينما هو في غرفة الجلوس مع فلورا، يَكْشف لزوجته الضاحكة خدعةً جديدةً في ورق اللعب. يقرع أحدهم الباب. وبلا أدنى فكرة عمّن يكون الطارق، يدرك بريك على الفور ماذا يحدث. يطلب إلى فلورا ألاّ تفتح الباب، وأن تركض إلى غرفة النوم وتنزل نحو مخرج الحريق بأقصى ما يمكنها من سرعة. لكنّ فلورا، المتصلّبة المعتدّة بذاتها، ومن دون أن تعي المأزقَ الذي وقعا فيه، تهزأ من توجيهاته المذعورة وتفعل تمامًا ما طلب إليها أن لا تفعله. تثب عن الصوفا قبل أن يتمكّن من إمساك ساعدها، ترقص بمحاذاة الباب رقصةَ باليه على رجلٍ واحدة ثم تجذبه لينفتح. ثمّة رجلان ينتصبان عند العتبة، لوو فريسك ودووك روثشتاين. وحيث إنّ كليهما يمسك بمسدّس في يده مصوّبٍ إلى فلورا، لا يأتي بريك بأيّة حركة من مكانه على الصوفا. نظريًّا، لا يزال في وسعه الهروب، لكنْ في اللحظة التي سيقف فيها، ستكون أمُّ طفله في عداد الأموات.

ـ من أنتما يا ابني العاهرة؟ تقول فلورا، بصوتٍ غاضبٍ مدوٍّ.

ـ اجلسي إلى جوار زوجك، يجيب فريسك، ملوِّحًا بمسدّسه باتّجاه الصوفا. هناك عملٌ يجب أن نناقشه وإيّاه.

تلتفت فلورا إلى بريك وقد ارتسم الغمّ على وجهها، تقول: ما الذي يحصل، يا حبيبي؟

ـ تعالي هنا، يجيب بريك، مطبطبًا على الصوفا بيمناه. تلك المسدّسات ليست دُمًى، وعليكِ الامتثالُ إلى ما يقولانه.

لوهلةٍ، لا تقاوِم فلورا. وحالما يَلِجُ الرجلان الشقّةَ ويغلقان الباب، تسير نحو الصوفا وتجلس إلى جوار زوجها.

ـ إنّهما صديقاي، يخاطبها بريك. دووك روثشتاين ولوو فريسك. تتذكّرين أنّي حدّثتكِ عنهما؟ حسنًا، ها هما أمامك.

ـ يا يسوع المسيح المقدّس، تغمغم فلورا، يعلوها شحوبُ الموت بسبب الخوف.

يستقرّ فريسك وروثشتاين على كرسيّين في مواجهة الصوفا. كانت أوراق اللعب التي استُخدمتْ لكشف الخدعة مبعثرةً أمامهما على سطح منضدة القهوة. يقول فريسك، وهو يقبض على إحدى أوراق اللعب، مقلِّبًا إيّاها: أنا سعيد بأنّك تتذكّرنا، يا أوين. كانت الشكوك قد بدأت تعترينا.

ـ لا تقلق، يقول بريك. لا أنسى وجهًا أبدًا.

ـ كيف هي سنُّك؟ يسأل روثشتاين، منفرجًا عمّا يشبه مزيجًا من التكشيرة والابتسامة.

ـ أحسن بكثير، شكرًا لك، يقول بريك. ذهبتُ إلى طبيب الأسنان، وقام بتركيب تاجٍ لها.

ـ أشعر بالأسف لأنّني ضربتُكَ بقسوة. لكنّ الأوامر هي الأوامر، وكان عليّ أن أقوم بعملي. تكتيكاتٌ بغرض الترويع. أظنّ أنّها لم تُجْدِ بما فيه الكفاية، أَتُراها أجْدَتْ؟

ـ هل حدث أن صُوِّب مسدّسٌ نحوك من قبل؟ يسأل فريسك.

ـ صدّقْ أو لا تصدق، يقول بريك، هذه هي المرّة الأولى.

ـ يبدو أنّك تواجه الأمرَ على نحو ممتاز.

ـ لقد أدّيتُه في خيالي مرارًا عديدةً، حتى بتُّ أشعر أنّه قد حدث بالفعل.

ـ هذا يعني أنّك كنتَ تتوقّع حضورنا.

ـ كنتُ أتوقّع حضوركما بكلّ تأكيد. المفاجأة الوحيدة تتلخّص في أنّكما لم تأتيا أبكر من ذلك.

ـ وضعنا في الاعتبار أنّنا أعطيناك شهرًا. إنّها مهمّة عسيرة، وبدا لنا من العدل بمكان أن نعطيك الوقتَ الكافي لكي تستعدّ لها. لكنْ ها هو الشهر قد انقضى، وحتى الآن لم نرَ أيّة نتائج. هلاّ تفسّر ذلك بنفسك؟

ـ لا أستطيع تنفيذَها. هذا كلُّ ما في الأمر. فقط لا أستطيع تنفيذها.

ـ بينما كنتَ تتلاعب بإبهاميك، مبدّدًا الوقت بتوافه الأمور في جاكسون هايتس، كانت الحربُ تتّجه من سيّئ إلى أسوأ. فقد شَنّ الاتّحاديّون هجمتهم الارتداديّة، حتى أضحت كلُّ بلدة تقريبًا على الساحل الشرقي ضحيّةً للهجوم. عمليّة الاتّحاد، كما يسمّونها. سقط مليون ونصف مليون قتيل جديد، بينما أنت جالسٌ هنا تغالب ضميرك. تمّ اجتياحُ توين سيتيز/ المدينتين التوأمين منذ ثلاثة أسابيع، ونصفُ مينيسوتا الآن تحت سيطرة الاتّحاديّين من جديد.

أجزاء هائلة من آيداهو، ووايومينغ، ونبراسكا قد تحوّلتْ إلى معسكرات اعتقال. هل أُكْمِلُ؟

ـ لا، لا، أنا في الصورة.

ـ يجب عليك أن تفعلها، يا بريك.

ـ متأسّف. لا أستطيع.

ـ تتذكّر العواقب، أليس كذلك؟

ـ أليس لأجلها أنتم هنا؟

ـ ليس بعد. إنّنا نعطيك موعدًا نهائيًّا. أسبوعًا من اليوم. إذا لم يُصَفَّ بريل بحلول منتصف ليل الثامن والعشرين، سنعود، دووك وأنا، وفي المرّة القادمة ستكون مسدّساتُنا محشوّة. أتسمعني، يا عريف؟ أسبوع من اليوم، وإلاّ فستموت أنتَ وزوجتك مقابل لا شيء.

لا أعرف الوقتَ الآن. عقاربُ الساعة الجداريّة ليست من النوع المشعّ، ولستُ في وارد أن أضيء الضوءَ من جديد وأعرِّضَ نفسي للشعاع الباهر الآتي من المصباح. طالما عزمتُ أن أطلب إلى ميريام أن تشتري لي واحدًا من تلك الأشياء التي تُصْدر الضوءَ في الظلام، لكنْ كلّما استيقظت في الصباح، غاب ذلك عن بالي. الضوء يمحو الفكرة، ولا يتسنّى لي تذكّرها ثانيةً حتى آوي إلى الفراش، أستلقي مؤرّقًا كما أنا الآن، محدِّقًا إلى السقف اللامرئيّ في غرفتي اللامرئيّة. لا أستطيع التأكّد، لكنّني سأخمّن أنّها تشير إلى موضعٍ ما بين الواحدة والنصف والثانية. ببطءٍ تتقدّم، ببطءٍ تتقدّم...

كان موقع الإنترنت فكرةَ ميريام. لو عرفتُ ما كانت تنويه، لطلبتُ إليها أن لا تضيع وقتَها سُدًى، لكنّها أبقته طيّ الكتمان عنّي (بالتواطؤ مع أمّها، التي احتفظتْ تقريبًا بكلّ سقْطِ المتاع من كتاباتي التي نشرتها على مدار حياتي). وعندما جاءت إلى نيويورك لعشاءٍ بمناسبة ميلادي السبعين، أخذتني إلى مكتبي، فشَغّلتْ كمبيوتري المحمول، وعرضتْ عليّ ما أنجزتْه. المقالات لا

تستحقّ العناء إلاّ بشقّ النفس، لكنّ فكرة ابنتي من وراء سلخ ساعاتٍ لا عَدَّ لها وهي تَطْبع كلّ مقطوعاتي العتيقة هذه ـ *إلى الأجيال القادمة*، كما دوّنتْها ـ قد فكّكتني نوعًا ما، ولم أدرِ ما أقول. عادةً تكون استجابتي بأن أنسلَّ من مسرح العواطف بتهكّم جافٍّ أو تعليقٍ متعالٍ، لكنّني في تلك الليلة أحطتُ ميريام بذراعيّ من دون أن أنبس بكلمة. بكت سونيا، طبعًا. كانت دائمًا تبكي عندما تكون سعيدة، غير أنّ دموعها في تلك المناسبة بشكل خاصّ كانت مؤثّرةً وذات وقع رهيب عليّ: فقد تمّ كشفُ إصابتها بالسرطان قبل ثلاثة أيّام فقط، والتشخيص السريري كان قاتمًا، مجرّدَ إجراءٍ عابر، في أحسن الأحوال. لم ينبسْ أحدٌ بكلمة حوله، لكنّنا أدركنا أنّها قد لا تكون معنا في عيد ميلادي القادم. وكما تبيّن، فقد كانت السنة أكثر من أن تعلَّق عليها الآمالُ.

لم يكن يجدر بي أن أفعل هذا. عاهدتُ نفسي أن لا أقع في شرك التفكير في سونيا وذكريات سونيا، أن لا أترك لنفسي الانسياق. لا أحتمل الانهيارَ والغوصَ في كآبة الفاجعة وتبكيت النفس. ربّما أبدأ العويلَ وأوقظ الفتاتين في الأعلى ـ أو قد أُمضي الساعات القليلة القادمة وأنا أفكّر في قتل نفسي بأكثر الطرق تفنّنًا وانحرافًا. تلك المهمّة قد ادُّخرتْ لأجل بريك، بطلِ قصّة الليلة. ربّما يفسّر ذلك لماذا يشغّل هو وفلورا كمبيوترها وينظران إلى موقع ميريام. يبدو مهمًّا أن يسعى بطلي إلى الإلمام بي قليلاً، ليفهَم أيّ نوعٍ من الرجال هو مقْدمٌ على صدامه، وها هو الآن غارق حتى أذنيه في بعض الكتب التي أوصيتُ بقراءتها. أخيرًا بدأنا بترسيخ الوثاق. إنّها تنقلب إلى حيلةٍ معقّدة نوعًا ما، كما أظنّ، لكنّ

شخصيّة بريل، والحقّ يُقال، لم تكن في مخطّطي الأصلي. العقل الذي اختلق الحربَ كان مُعَدًّا لأجل شخص آخر، شخصيّةٍ مختلقة أخرى، وهميّةٍ مثل بريك وفلورا وتوباك وكلّ الباقين. لكنْ كلّما مضيتُ قدُمًا، أدركتُ شدّة إيغالي في مخادعة نفسي. القصّة تدور حول رجل يتوجّب عليه أن يقتل الشخص الذي خلقه، فلماذا أزعم أنّي لستُ ذلك الشخصَ؟ إذ بزجِّ نفسي في القصّة تصبح القصّةُ واقعيّة. أو بمعنى آخر أصبح غيرَ واقعيّ، بل تلفيقًا آخر من نسج خيالي. في الحالتين، ستكون النتيجةُ أكثر إقناعًا، أكثر انسجامًا مع مزاجي ـ وهو كئيب، مع ذواتي الضئيلة، الكئيبة كالليل الصلد الأسود الذي يلفّني.

أنا ماضٍ في هذياني، تاركًا أفكاري تتناثر كيفما اتّفق لكي أُبقي سونيا في مأمن. لكنّها برغم ما أبذله، تبقى ماثلةً. هي الحاضرةُ الغائبةُ الأبديّة، التي أمضتْ لياليَ لا عدَّ لها معي على هذا الفراش، وتتمدّد الآن في مقبرة مونپارناس. إنّها زوجتي الفرنسيّة لثمانية عشر عامًا، أعقبتْها تسعةُ أعوام انفصال، ثم اثنان وعشرون عامًا أخرى معًا، أيْ ما يعادل تسعة وثلاثين عامًا، أو واحدًا وأربعين إذا أخذنا في الاعتبار السنتين اللتين تعارَفنا خلالهما قبل الزواج. هذا أكثر من نصف حياتي، أكثرُ بكثيرٍ من النصف، ولم يبقَ منها سوى صناديق من الصور وسبع أسطوانات، التسجيلات التي أنجزَتْها في الستينيّات والسبعينيّات، شوبرت، موتزارت، باخ، والفرصة بأن أصغي إلى صوتها من جديد، ذلك الصوت الضعيف لكن الجميل، المشبع جدًّا بالإحساس الذي شكّلَ جوهر ما قام عليه وجودُها. صور تذكاريّة... وموسيقى... وميريام.

لقد تركتْ لي طفلتَنا، أيضًا، وهذا ما لا ينبغي إغفاله، الطفلة التي لم تعد طفلة، وما أغربَ أن يخطر لي أنّني سأغدو ضائعًا الآن من دونها، مخمورًا بلا أدنى شكّ كلّ ليلة، هذا إذا لم أكن ميتًا أو تحت آلة الإنعاش في أحد المشافي. عندما طلبتْ إليّ الانتقالَ للسكن معها بعد الحادث، رفضتُ طلبَها بلطف، مُعلِّلاً رفضي بأنّ لديها ما يكفي من الأعباء قبل أن تضيفني إلى القائمة. ضمّتْ يدي قائلة: لا، يا بابا، أنت لا تدرك ما أقول. أنا أحتاجك. أشعر بوحدةٍ لعينةٍ في ذلك البيت، لا أعرف إلى أيّ مدى سأتحمّلها. أحتاج أحدًا ما أتحدّث معه. أحتاج أحدًا ما أنظر إليه، أن يكون هناك عند العشاء، أن يحضنني بين حينٍ وآخر ويقول لي إنّي لستُ ذلك الشخص البغيض.

لا بدّ أن «*الشخص البغيض*» أتى من ريتشارد، نعتٌ قَذَفه فمُه أثناء شجارٍ كريهٍ في نهاية زواجهما. يقول الناس أقذعَ الأشياء في ثورات الغضب، ويؤلمني أنّ ميريام سمحتْ لهذه الكلمات بأن تلتصق بها كحكم نهائيّ يَسِمُ شخصيّتَها، كشجبٍ لمَن تَكُونُه ولِما تكونُه. ثمّة أعماقٌ متعدّدة من الطيبة في تلك الفتاة، إنّها الطيبة عينُها التي تُبكِّتُ الذاتَ لدى نوريكو كما تتجسّد في الفيلم. وبسبب ذلك، بشكل حتمي تقريبًا، وإنْ كان ريتشارد هو مَنْ تخلّى، فستستمرّ في لوم نفسها على ما حدث. لا أدري إذا كنتُ سندًا لها، لكنّها على الأقلّ لم تعد وحيدة. كنّا مستقرّين في روتين مريح إلى حدّ ما قبل أن يُقتلَ تايتوس. وأريدكِ، يا ميريام، أن تتذكّري هذه بالتحديد: عندما أحاقت البلوى بكاتيا، لم تلتجئ إلى أبيها، بل التجأتْ إليكِ أنتِ.

في هذه الأثناء، غادر فريسك وروثشتاين الشّقة. لحظة يغلق الباب وراءهما، تَشْرع فلورا بالسّباب بالإسبانيّة، وهي تكرّ فيضًا مديدًا من القدح الذي لم يستطع بريك أن يستوعبه؛ فمعرفتُه باللغة تقتصر على بضع كلمات، خصوصًا «*مرحبًا*» و«*مع السلامة*»، ولكنّه لم يقاطعها، منصرفًا إلى نفسه خلال تلك الثواني الثلاثين من عدم الفهم ليتأمّل في المعضلة التي تواجههما وليفكّر في الخطوة التالية. يجد الأمر غريبًا، لكنْ يبدو أنّ كلّ المخاوف قد زالت عنه. فخلال الدقائق القليلة التي مضت كان مقتنعًا بأنّه وفلورا على وشك أن يُقتلا، وبدلاً من الارتعاد والارتعاش في أعقاب ذلك التأجيل غير المتوقّع، حلَّت عليه سكينةٌ شاملة. تجلّى موتُه في هيئة مسدّس فريسك؛ ولكن لم يعد هذا المسدس موجودًا، فإنّ موته لا يزال معه ـ كما لو أنّه الشيء الأوحد الذي يمتلك زمامه الآن، كما لو أنّ الذي تُبْقيه له الحياةُ قد سَرَقه هذا الموت. وإذا كان مقدّرًا لبريك أن يلقى قدرَه الغاشم، فليكن أوّل إجراءٍ يتخذه هو حماية فلورا، وذلك بإرسالها إلى أقصى مكان يمكن بلوغه.

بريك في حالة اتّزان، لكنْ يبدو أنْ لا سلطة له على زوجته، التي يتصاعد روعُها أكثرَ فأكثر.

ـ ماذا تُرانا سنفعل؟ تقول، يا إلهي، أوين، لا يمكننا الاكتفاءُ بالمكوث هنا وانتظار عودتهم. لا أريد أن أموت. إنّه لمن السخف أن يموت المرءُ في السابعة والعشرين من العمر. لا أدري. . . ربّما نستطيع أن نهرب ونختبئ في مكان ما.

ـ لا جدوى في ذلك. أنّى ذهبنا، فهم عازمون على اقتفاء أثرنا.

ـ إذًا ربّما عليك أن تقتل العجوز، بعد كلّ ذلك.

ـ لقد ناقشنا ذلك الاحتمال. كنتِ ضدّه، تذكرين؟

ـ لم أكن أعلم شيئًا حينها. لكنّني أعلم الآن.

ـ لا أرى أنّ ذلك يشكّل فرقًا. لا أستطيع القيامَ بذلك. وإن استطعتُ فعلاً، فسأنتهي إلى السجن.

ـ مَن يقول إنّه سيُلقى القبضُ عليك؟ إذا أعددتَ خطّةً مناسبة، فقد تجد طريقةً للتملّص من نتائجها.

ـ اتركيني في حالي، يا فلورا. أنتِ لا تريدينني أن أفعلها أكثرَ بكثيرٍ ممّا أنا لا أريد ذلك.

ـ حسنًا. فلنستخدمْ أحدَهم ليقوم بها عوضًا عنك، إذًا.

ـ توقّفي عن ذلك. لن تقتلي أحدًا. أتفهمين ما أقول؟

ـ إذًا ما الحلّ؟ إذا لم نفعل شيئًا ما، فسنكون في عداد الأموات بعد أسبوعٍ من هذه الليلة.

ـ في نيّتي أن أبعدكِ عن هنا. تلك هي الخطوة الأولى. ستعودين إلى أمّك في بوينوس آيرِس.

ـ لكنّكَ قلتَ للتوّ إنّهم سيجدوننا أينما ذهبنا.

ـ هم غيرُ معنيّين بكِ. أنا الشخص الذي يقصدونه. وإذا حصل أنْ ذهب كلٌّ منّا في طريق، فلن يُقلِقوا أنفسهم لأجلك.

ـ ما الذي تقوله، يا أوين؟

ـ بالضبط أن تكوني في مأمن.

ـ وماذا عنك؟

ـ لا تقلقي. سأفكّر في حلٍّ ما. لا أنوي أن أُقتلَ على يد هذين المهووسَين، أعِدُك. ستغادرين وتذهبين لزيارة أمّك فترةً، وحين تعودين، سأكون في انتظارك في هذه الشقّة. مفهوم؟

ـ لا أحبّ ذلك، يا أوين.

ـ ليس عليكِ أن تحبّي ذلك. عليك فقط أن تفعليه. لأجلي أنا.

في المساء ذاته يحجزان تذكرةَ ذهابٍ وإيابٍ إلى بوينوس آيرس، وصباحَ اليوم التالي يُقلّ بريك فلورا إلى المطار. يدرك أنّها آخرُ مرّة يراها فيها. يقاوم لكي يحافظ على رباطة الجأش، ولكي لا يندّ عنه ما يشي بالغمّ الذي يعتمل في داخله. وإذ يقبّلها مودّعًا عند بوّابة التفتيش، محاطًا بحشود المسافرين وموظّفي المطار، فإنّها

تبدأ بالبكاء. يحتويها بين ذراعيه ويمسّد أعلى رأسها. ولأنّه يمكنه الآن الإحساسُ بجسدها الذي يرتعش مقابله، وبدموعها التي تَرْشح عبر قميصه وترطّب جلدَه، فإنّه لا يجد سبيلاً إلى الكلام.

ـ لا تتركْني أذهب، تتضرّع فلورا.

ـ لا دموع، يردّ عليها بهمس. إنّها فقط عشرة أيّام. في الوقت الذي تعودين فيه إلى هنا، سيكون كلّ شيء قد انتهى.

وهكذا ستنتهي، يفكّر، وهو يصعد إلى سيّارته ويقودها عائدًا من المطار إلى البيت في جاكسون هايتس. في تلك اللحظة، يوطّن كلّ النيّة على الوفاء بكلمته: أن يتجنّب مواجهةً أخرى مع روثشتاين وفريسك، وأن يكون في انتظار فلورا في الشقّة عندما تعود ـ لكنّ ذلك لا يعني أنّه يخطّط للبقاء على قيد الحياة.

ـ *إنّه الآن انتحارٌ إذًا*، يتذكّر قولَه لفريسك.

ـ بمعنًى ما، نعم.

يقترب بريك من عيد ميلاده الثلاثين، ولم يخطرْ له ولو مرّةً واحدةً في حياته أن يقتل نفسه. لكنّ الفكرة أصبحت الآن شغلَه الشاغل، ولليومين التاليين يجلس في الشقّة محاولاً أن يتفتّق عن طريقة فعّالة ووسيلة أقلّ إيلامًا لمغادرة هذا العالم. يفكّر في شراء مسدّس وإطلاق النار على رأسه. يفكّر في السّمّ. يفكّر في قطع شرايين رسغه. نعم، يقول في نفسه، إنّها طرقٌ عتيقة، أليست كذلك؟ تجرَّعْ نصفَ زجاجة فودكا، أَفرغْ عشرين أو ثلاثين من حبّات المنوّم في بلعومك، انزلقْ في مغطسٍ دافئ، وبعدها اشرطْ

أوردتَكَ بسكّين تقطيع اللحوم ليشاع بأنّك لم تحسّ بأيّ شيء.

اللغز أنّه لا يزال أمامه خمسةُ أيّام أخرى. ومع كلّ يوم يمضي، فإنّ الهدوء والركون اللذين هبطا في دخيلته حين كان ينظر إلى فوّهة مسدّس فريسك قد تداعى إحكامهما عليه بدرجاتٍ عديدةٍ أخرى. كان الموت مآلاً طيَّ النسيان في ما مضى، تجلّيًا تَحْكمه الضرورة. لكنْ إذ ينقلب هدوؤه إلى اضطراب، وركونُه إلى توجّسٍ، يحاول أنْ يستدعي صورة الفودكا وحبّات الدواء، الحمّام الدافئ ونصلَ السكين. وفجأةً يعود الخوفُ القديم. وإذ يحدث ذلك، يوقن أنّ ما اعتزمه قد تبدّد، إذ لن يجد ما يكفي من الشجاعة ليخوضَ في ذلك.

كم من الوقت قد انصرم حتى الآن؟ أربعة أيّام ـ لا، خمسة أيّام ـ هذا يعني أنّه لا يزال أمامه ثمانٍ وأربعون ساعة لا أكثر. حتى الآن بوسع بريك أن يجازف وينطلق من شقّته إلى الخارج. كان قد ألغى كافّة عروض زافيللو الكبير لهذا الأسبوع، مدّعيًا بأنّه مُصابٌ بالرشح، وفصلَ خطّ الهاتف من الجدار. يرتاب في أنّ فلورا تحاول الاتّصالَ به، غير أنّه لا يستطيع أن يَحْمل نفسه على التحدّث إليها في هذا الوقت بالذات، مدركًا أنّ وقعَ صوتها سيربكه إلى درجة أنّه قد يفقد السيطرة ويبدأ بإفشاء تفاهاته لها. والأسوأ أنّه قد يبدأ بالبكاء، الذي سيعمّق هاجسها لا أكثر. مع ذلك، في صباح ٢٧ أيّار/ مايو، يحلق ذقنه، يستحمّ، ويرتدي ملابس جديدة. أشعّة الشمس تنسكب عبر النوافذ، التألّق الفاتن لربيع نيويورك. يقرّر أنّ التنزّه في الهواء قد يبعث فيه بعضَ السكينة. إذا

كان ذهنه قد خذله في أن يجد حلاً لمعضلاته، فلعلّه سيجد الجواب عن طريق قدميه.

لكنّه، لحظةَ يخطو على الرصيف، يسمع مَنْ ينادي باسمه. إنّه صوتُ امرأة. ولأنّه ليس ثمّة مشاة آخرون يمرّون به في تلك اللحظة، فإنّ بريك يعجز عن تبيّن الوجهة التي يأتي منها الصوت. يتطلّع حوله، يناديه الصوتُ من جديد، ثم ينتبه: إنّها ڤرجينيا بلاين، تجلس خلف مقود سيّارة رُكنتْ مباشرةً عبر الشارع. رغمًا عنه، يشعر بسعادة مفرطة لرؤيتها. لكنّه، إذ يخطو عبر المنصّف الحجريّ نحو المرأة التي سكنته طوال الشهر المنصرم، تهيج في داخله موجةٌ من الخشية. وحين يصل المرسيدس البيضاء ذات الأبواب الأربعة، يمكنه أن يحسّ بنبضه يدقّ في داخل رأسه.

ـ صباح الخير، يا أوين، تقول ڤرجينيا. ألديك دقيقة من الوقت؟

ـ لم أتوقّع رؤيتك من جديد، يجيب بريك، متفرّسًا عن كثب في وجهها المشرق، الذي غدا أكثر إشراقًا ممّا كان يتذكّر، وفي شعرها البنيّ الداكن، الذي أصبح أقصرَ من آخر مرّةٍ رآها فيها، وفي فمها الشهيّ بأحمر الشفاه، وعينيها الزرقاوين بأهدابهما الطويلة، وساعديها النحيلين، الرشيقين اللذين يستريحان على مقود السيارة.

ـ آمل أنّني لا أقاطع شيئًا ما، تقول.

ـ أبدًا. كنتُ فقط في طريقي إلى التنزّه.

ـ رائع. دعنا نحوّل النزهة إلى قيادة بدلاً من المشي، هل توافق؟

ـ إلى أين؟

ـ سأقول لك لاحقًا. لدينا الكثير لكي نتحدّث في شأنه قبل كلّ شيء. وخلال الوقت الذي نستغرقه للوصول إلى حيث نحن ذاهبان، ستفهم لماذا اصطحبتُكَ إلى هناك.

يتردّد بريك، لا يزال غير متأكّد إنْ كان يمكنه أن يمنح ڤرجينيا ثقته أمْ لا. ثم يدرك أنّه لا يبالي؛ فهو رجلٌ ميتٌ لا محالة، ولا يهمّ ما يفعل. يفكّر: إذا كانت تلك هي الساعات الأخيرة من حياته، فمن الأفضل أن يمضيها برفقتها، عوضًا من الانتظار وحيدًا خلالها.

وهكذا يمضيان في صباح مشرق من صباحات أيّار/ مايو، تاركين نيويورك خلفهما، يقودان السيّارة على طول حدود كونتيكيت الجنوبيّة على الطريق السريعة I-95، ثم ينحرفان باتّجاه الطريق السريعة ٣٩٥ تمامًا، قبل نيو لندن، متّجهين شمالاً بسرعة سبعين ميلاً في الساعة. يولي بريك القليل من الانتباه إلى المناظر الطبيعيّة التي تَعْبر، ليختار بدلاً منها إبقاء عينيه موجّهتين نحو ڤرجينيا، التي ترتدي كنزةَ كشمير زرقاءَ فاتحةً وبنطالاً كتّانيًّا أبيض، تجلس على مقعدها الجلدي البنيّ في جوٍّ من الثقة والاعتداد بالنفس، الأمرُ الذي أعاد إلى ذاكرته صورتَها في شبابها، وهي صورةٌ طالما تركته يتلجلج في الكلام كلّما حاول أن يتحدّث إليها. تختلف الأشياء الآن، يقول في سرّه. لقد كبر في العمر، ولم يعدْ مُسْتَلَبًا من قبلها.

إنّه متحفّظ بعض الشيء، ربّما، لكنْ ليس إزاء ڤرجينيا المرأة ـ بل على الأصحّ، *المسنَّن الصغير في الآلة الكبيرة*، الشخصيّة المتواطئة مع فريسك.

ـ تبدو بحالٍ أفضلَ بكثير، يا أوين، تستهلّ الحديث. لم يعد ثمّة جروح، ولا ضمادات. وأرى أنّك قد أصلحتَ سنّك. معجزات طبّ الأسنان، هه؟ مِنَ الملاكم المُثْخَنِ بالضرب، إلى السيّد وسيم من جديد.

لم يرق الموضوع لبريك. وبدلاً من الشروع في حديث سريع عن حالة وجهه، يدخل مباشرة في صلب الموضوع.

ـ هل أعطاك فريسك الحقنة؟ يسأل.

ـ ليس مهمًّا كيف جئتُ إلى هنا، تقول. الشيء المهمّ هو لماذا جئتُ.

ـ لكي تقومي بتصفيتي، كما أظنّ.

ـ أنتَ على خطأ. جئتُ لأنّني كنتُ أشعر بتأنيب الضمير. أنا أوقعْتُكَ في هذه الورطة، والآن أريد أن أحاول انتشالكَ منها.

ـ لكنّكِ فتاةُ فريسك. إذا كنتِ تعملين لصالحه، فستكونين جزءًا من القصّة أيضًا.

ـ لكنّني لا أعمل لصالحه. هذا مجرّد غطاء.

ـ ماذا يعني ذلك؟

ـ هل عليَّ أن أتهجّاها؟

ـ أأنتِ عميل مزدوج؟

ـ نوعًا ما.

ـ لن تقولي لي إنّك مع الاتّحاديين.

ـ بالتأكيد لا. أكره أبناءَ الحرام القَتَلَةَ أولئك.

ـ فمن يكونون إذًا؟

ـ صبرًا، يا أوين. عليكَ أن تعطيني بعض الوقت. فلنبدأ بالأولويّات، اتّفقنا؟

ـ حسنًا. كلّي آذانٌ صاغية.

ـ نعم، أنا التي اقترحتُكَ للمهمّة. لكنّني لم أعرف طبيعتها. شيء كبير، كما قالوا، شيء حيويّ مؤثِّر في نتائج الحرب، لكنّهم لم يعطوني أيّة تفاصيل. لم أُبلَّغْ حتى صرتَ في الحيّز الآخر. أقسم، لم يكن لديّ أدنى فكرة في أنّهم بصدد إرغامك على قتل أحدٍ ما. وحينها، حتى بعد أن عرفتُ، لم يخطرْ لي أنّ فريسك سيهدّدك بالقتل إذا لم تنفّذ المهمّة. لقد علمتُ بذلك فقط الليلة الفائتة. لذلك جئتُ. لأنّني أردتُ المساعدة.

ـ لا أصدّق كلمةً ممّا تقولين.

ـ لماذا يجدر بك التصديق؟ لو كنتُ مكانَك، فلن أصدّق أنا أيضًا. لكنّها الحقيقة.

ـ الطريف في الأمر، يا ڤرجينيا، أنّ ذلك لم يعد يزعجني. أقصد، عندما تكذبين. أميل إليكِ ميلاً شديدًا، إلى درجة أنّي لا

أريد معرفةَ ما يجعلني أكرهك. قد تكونين مزيّفة، بل قد تكونين الشخص الذي يُعدّ العدّةَ لقتلي، لكنّني لن أتوقّف عن شعوري بالميل إليكِ.

ـ أميل إليك، أيضًا، يا أوين.

ـ أنتِ شخصيّة غريبة. هل أخبركِ أحدٌ بذلك من قبل؟

ـ دائمًا. منذ أن كنتُ طفلة صغيرة.

ـ كم مضى عليكِ قبل أن تعودي إلى هذا الحيّز؟

ـ خمسة عشر عامًا. تلك هي رحلتي الأولى. بل إنّها لم تكن متاحة إلاّ منذ ثلاثة أشهر. أنت كنتَ الوحيد الذي ذهب ثم عاد. هل تعلم ذلك؟

ـ لم يخبرني أحد شيئًا.

ـ الأمر شبيه بأن تخطو إلى حلم، أليس كذلك؟ المكان نفسه، لكنّه مختلف كلّيًّا. أميركا بلا حرب. من الصعب أن تستوعب. يصبح القتال مألوفًا جدًّا لديك، دبيبًا ما يسري في عظامك، وبعد وهلة، لا يسعك أن تتخيّلَ العالَم من دونه.

ـ أميركا في حالة حرب، حسنًا. نحن لا نخوضها هنا. لم نخفها بعد، على أيّة حال.

ـ كيف هي زوجتك، يا أوين؟ إنّه لغباءٌ منّي، لكن لا أستطيع أن أتذكّر اسمها.

ـ فلورا.

ـ صحيح، فلورا. هل تريد أن تتّصل وتخبرها أنّك ستغيب يومين؟

ـ إنّها ليست في نيويورك. لقد أرسلتُها إلى أمّها في الأرجنتين.

ـ تفكير صائب. خيرًا فعلتَ.

ـ إنّها حامل، بالمناسبة. فكّرتُ أنّكِ ربّما تودّين معرفة ذلك.

ـ رائع، يا ولد. مبروك.

ـ فلورا حامل، أحبُّها أكثر من أيّ وقت مضى، أفضّل أن أقطع يمناي على أن أتسبّب بما يؤذيها. ورغم ذلك، يبقى الأمر الوحيد الذي أرغبه اللحظةَ هو أن أذهب وإيّاكِ إلى الفراش. هل يعني ذلك شيئًا بالنسبة إليكِ؟

ـ بالتأكيد.

ـ آخر لَفّةٍ في بيدر القَشّ.

ـ لا تتحدّث بهذه الطريقة. أنت لن تموتَ، يا أوين.

ـ إذًا، ماذا تظنّين؟ هل تروق لك الفكرة؟

ـ هل تتذكّر ما قلتُه لك في آخر مرّة رأيتني فيها؟

ـ كيف لي أن أنسى؟

ـ ها قد نلتَ جوابك، هل وصلك؟

يعبران الحدود إلى ماساتشوستس، وبعدها بدقائق يتوقّفان ليملآ الخزّان بالوقود. يدخلان الحمّام، ويتناولان شطيرتيْ هوت دوغ

رديئتين محضَّرتين على المايكروويف على قطعتيْ خبز رطبتين، غسلاهما بدفقاتٍ من زجاجة ماء. يسيران عائديَن إلى السيّارة، فيأخذ بريك ڤرجينيا بين ذراعيه ويقبّلها، مُرسلاً لسانَه عميقًا داخل فمها. إنّها لحظةٌ شهيّةٌ بالنسبة إليه، مُحقّقًا حلمًا امتدّ نصفَ عمر، لكنّه حلمٌ وُشِمَ أيضًا بالعار والندم، إذ إنّ هذه الفاتحة الضئيلة لمتَع إضافيّةٍ مع حبّه القديم هي المرّة الأولى التي يَلمس فيها امرأةً أخرى منذ زواجه من فلورا. لكنّ بريك، وهو ليس إلاَّ مجرّد جنديّ الآن، رجلٍ متورّط في خوض حرب، يسوِّغ خيانتَه بتذكير نفسه بأنّه مع حلول الغد قد يكون في عداد الأموات.

حين يدخلان الطريق السريعة من جديد، يلتفت إلى ڤرجينيا ويسألها السؤال الذي كان يؤجّله ما يزيد عن ساعتين: إلى أين نحن ذاهبان؟

ـ إلى مكانين، تقول. الأوّل هذا اليوم، والثاني غدًا.

ـ حسنًا، أظنّ أنّ ما قلتِه مجرّدُ استهلال، لن يزعجك أن تكوني أكثرَ دقّةً بقليل، هل يزعجك؟

ـ لا أستطيع أن أبوح لك بمكان توقّفنا الأوّل، لأنّني أريده أن يكون مفاجأة. لكنّنا سنذهب غدًا إلى ڤيرمونت.

ـ ڤيرمونت. . . . ذلك يعني بريل. ستأخذيني إلى بريل.

ـ أنت «تلقطها على الطاير»، يا أوين.

ـ لن أنفعَ في ذلك، يا ڤرجينيا. قد فكّرتُ في أمر الذهاب إلى هناك عشرات المرّات، لكن لا فكرة لديَّ عمّا أقوله له.

ـ فقط اطلبْ منه أن يتوقّف.

ـ لن يصغي إليّ.

ـ كيف تَعْلم قبل أن تحاول؟

ـ لأنّني أعلم، هذا كلّ شيء.

ـ أنت تتناسى أنّي سأكون معك.

ـ وماذا يغيّر ذلك في الأمر؟

ـ قد قلتُ لك سلفًا إنّي لا أعمل في حقيقة الأمر لصالح فريسك. من ذا الذي تظنّني أتلقّى الأوامر منه؟

ـ كيف لي أن أعلم؟

ـ هيّا، يا عريف. فكِّرْ بها.

ـ ليس بريل.

ـ إنّه بريل.

ـ مستحيل. إنّه في هذا الحيِّز، وأنتِ في الحيّز الآخر. ولا مجال للتواصل بينكما.

ـ هل سمعتَ بشيء اسمهُ الهاتف؟

ـ الهواتف معطّلة. وقد حاولتُ أن أجريَ اتّصالاً عندما كنتُ في ويلينغتون. اتّصلتُ بشقّتي في كوينز، وقالوا إنّ الرقم ليس في الخدمة.

ـ هناك هواتف... وهواتف، يا صديقي. لقد قام بريل بما يلزم، هل تظنّه سيقتني هاتفًا لا يعمل؟

ـ تتحادثين معه إذًا؟

ـ دائمًا.

ـ لكنّكما لم تلتقيا.

ـ لا. غدًا هو اليوم المشهود.

ـ ولماذا ليس الآن؟ لماذا لا نقصده الآن؟

ـ لأنّنا اتّفقنا أن يكون الموعد في الغد. وإلى أن يحين، هناك مشاريعُ أخرى تنتظرك وتنتظرني.

ـ مفاجأتك....

ـ تمامًا.

ـ كم تبقّى لكي نصل؟

ـ أقلّ من نصف ساعة. خلال دقيقتين سأطلب منك أن تغلق عينيك. يمكنك أن تفتحهما بعدها عندما نصل إلى هناك.

يتابع بريك أداء دوره في اللعبة، راضيًا يستسلم لأهواء ڤرجينيا الصبيانيّة، وفي الدقائق الأخيرة من الرحلة يجلس في مقعده من دون أن ينبس بكلمة، محاولاً أن يحدس ما هو المَقْلب الذي تُبَيّته له. لو كان ضليعًا في الجغرافيا، لَوَجد الحلّ قبل وصولهما بوقت طويل، لكنّ بريك لا يمتلك إلاّ إلمامًا غائمًا بالخرائط. وحيث إنّ قدمه لم تطأ ورشيستر، ماساتشوستس من قبل (سوى رؤيته في الحلم لا أكثر)، فإنّه يدرك، عندما تتوقّف السيّارة وتطلب منه ڤرجينيا أن يفتح عينيه، أنّه يعود إلى ويلينغتون. تركن السيارة أمام

بيت الضاحية الذي دخلاه الشهرَ الفائت، الدار نفسها بآجرِّها وجصّها المزخرف والحديقة الأماميّة الوافرة النماء، مشاتل الزهر، الشجيرات الطويلة الناضرة. مع ذلك، حين يلقي نظرةً خاطفةً إلى الشارع، يجد كافّةَ البيوت المجاورة سليمة. لا جدران متفحّمة، لا سقوف منهارة، لا نوافذ محطّمة. الحرب لم تمسّ المكان. وبينما يدور بريك حوله ببطء في دائرة، محاولاً أن يستوعب المحيطَ المألوف لديه لكن المختلف كلّيًا، يطفح الوهمُ في النهاية، ويدرك أين هو. إنّها ليست ويلينغتون بل ورشستر، الاسمُ السابقُ للمدينة في العالم الآخر.

ـ أليس مدهشًا؟ تقول ڤرجينيا، رافعةً ذراعيها وهي تشير إلى البيوت التي لم تُمسّ بأذى. أشرقتْ عيناها، وغَمرت ابتسامةٌ وجهها. هذا ما كانت الحال عليه من قبل، يا أوين. قبل البنادق... قبل الهجمات... قبل أن يبدأ بريل بتمزيق كلّ شيء إربًا. لم أتخيّل أنّني سأعيش لأراها من جديد.

فلندعْ ڤرجينيا بلاين ترتع في لحظة غبطتها الوجيزة. فلندعْ أوين بريك ينس حبيبته الصغيرة فلورا ويجد السلوى بين أحضان ڤرجينيا بلاين. دع الرجل والمرأة اللذين تلاقَيا طفلين يتبادلا الشهوة في جسديهما الناضجَين. دعهما يصعدا الفراشَ معًا ويفعلا ما يشاءان. دعهما يأكلا. دعهما يشربا. دعهما يعودا إلى الفراش ليفعلا ما يتوقان إليه في كلّ بوصة وكلّ فتحة في جسديهما الراشدَين. الحياة تستمرّ، رغم كلّ شيء، وإنْ تحت أشدّ الظروف إيلامًا. تستمرّ حتى النهاية، ثم تتوقّف. وستتوقّف تلك الحيوات بدورها، من

حيث يتحتّم أن تتوقّف، من حيث لن يسع أيًّا منهما بلوغُ ڤيرمونت للتحدّث إلى بريل، لكون بريل قد يصيبه الوهن ومن ثم يستسلم، وبمقدور بريل أن لا يستسلم أبدًا، إذ يجب عليه المضيّ قدمًا في رواية قصّته، قصّةِ الحرب في ذلك العالم الآخر، الذي هو أيضًا هذا العالم، ولا يستطيع السماح لأحدٍ أو لشيء بأن يوقفَه.

إنّه منتصف الليل. تستلقي ڤرجينيا نائمةً تحت الأغطية، يسترخي جلدُها الذي تشبّع لذّةً، وينقبض بدخول الهواء المنعش وخروجه من رئتيها. لا يعلم إلاّ الله بما تحلم به في ضوء القمر الشحيح الذي يَرْشح عبر النافذة نصف المفتوحة. بريك على جنبه، جسدهُ يلتفّ حول جسدها، إحدى يديه تحتوي ثديَها الأيسر، ويدُه الأخرى تستقرّ على منطقة التقاء الورك بالردف. لكنّ العريف ضيّق الصدر، أرِقٌ بشكل لم يسبق له مثيل. وبعد أن يَجهد لكي يحظى بما يقارب ساعةَ نومٍ، ينسلّ من الفراش لينزل إلى الطابق الأرضي ويصبّ شرابًا لنفسه. وهو يشكّ في أنّ مجرّد رشفة ويسكي ستخمد الارتعاش الذي يتصاعد في داخله، بينما يتأمّل في أمر لقاء الغد مع العجوز. مرتديًا روبَ الحمّام الذي يعود إلى الزوج الراحل، يتّجه نحو المطبخ ويضيء الضوء، ليُجابَه بتألّق المكان الباذخ، بسطوحه الصقيلة وتجهيزاته الغالية الثمن. يبدأ بريك في تخيّل زوج ڤرجينيا. لا بدّ أنّ زوجها كان يَكْبرها بقدرٍ لا يستهان به، على ما يستغرق بريك في تأمّله، حرّيفًا لا يُشقّ له غبارٌ، بحوزته ما يكفي من المال لكي يؤمّن بيتًا مثل هذا. ورغم أنّ ڤرجينيا لم تنبس بكلمة حوله (باستثناء ملاحظتها بأنّه كان موسرًا)، فإنّ الساحر ابن كوينز الذي يعاني العسرَ يتساءل في سرّه إذا كانت أحبّت شريكَها الراحل أو

أنّها بكلّ بساطةٍ تزوّجته لأجل ماله. أفكار عديمةُ الجدوى لرجلٍ مؤرَّق، يفتّش في الخزائن عن كأسٍ نظيفةٍ وزجاجةِ ويسكي: التفاهات الأبديّة التي تمرّ في الخاطر كمفهوم يتحوّر إلى آخر. هذا ينطبق علينا جميعًا: على الشابّ والعجوز، والغنيّ والفقير، وبعدها يأتي حدث ليس في البال يهبط علينا ليصدمنا فنقوم من سباتنا.

يسمع بريك في المدى صوتَ طائرات تطير على علوّ منخفض، ثم جلبة محرّك هيليكوبتر، يلي ذلك، على الفور، دويُّ انفجار حادّ. تتفتّت نوافذُ المطبخ إلى شظايا. تميد الأرضيّةُ تحت قدميه العاريتين، ثم تبدأ بالميلان، كأنّ أساس البيت بكامله ينزاح عن موضعه. وحين يركض بريك إلى الصالة الأماميّة ويرتقي الدرجَ ليتفقّد ڤرجينيا، تصدّه ألسنةٌ متلويةٌ من اللهب. تتساقط من الأعلى الكسورُ الخشبيّة وقطعُ القرميد التي تغطّي السقف. يوجّه بريك أنظاره إلى الأعلى، وبعد بضع ثوانٍ من عدم التمييز يدرك أنّه ينظر إلى سماء الليل عبر سُحُبٍ من الدخان المتموّج. النصف الأعلى من البيت تلاشى، وهذا يعني أنّ ڤرجينيا قد تلاشت أيضًا. ومع إدراكه أنْ ليس ثمّة جدوى، فإنّه يودّ بمنتهى اليأس أن يصعد الدرجَ ليبحث عن جثّتها. لكنّ الأدراج تحترق الآن، وسيحترق هو أيضًا حتى الموت إذا ازداد اقترابًا منها.

يجري خارجًا إلى الحديقة الأماميّة، كما يندفع كلُّ الجيران المحيطين به مولولين من بيوتهم إلى ظلام الليل. ثلّة من القوّات الاتّحاديّة احتشدتْ وسط الشارع. خمسون أو ستّون رجلاً يعتمرون الخوذات، جميعُهم يتنكّبون بنادقَهم الآليّة. يرفع بريك يديه علامة

استسلام، لكنّ ذلك لن يَشفع له. الرصاصة الأولى تصيبه في الساق، فيتهاوى، قابضًا على الجرح، والدمُ يفور من بين أصابعه. وقبل أن يتسنّى له أن يتفقّد ما لَحقَه من أذًى ويرى مدى عمق إصابته، تعاجله رصاصةٌ في عينه اليمنى مباشرةً، لتخرج من خلف رأسه. وتلك نهايةُ أوين بريك، الذي يغادر العالَم في صمت، من دون فرصةٍ لأن يقول كلمةً أخيرةً أو يفكّر فكرةً أخيرة.

في هذه الأثناء، على بعد خمسة وسبعين ميلاً إلى الشمال الغربيّ، في بيتٍ خشبيّ أبيض جنوبيّ ڤيرمونت، كان أوغست بريل مستيقظًا، متمدّدًا على فراشه ويحدّق في الظلام. وتستمرّ الحرب.

هل يجب أن تُختتم بهذه الطريقة؟ نعم، ربّما نعم، على الرّغم من أنّه لن يكون من الصعوبة بمكانٍ أن أفكّر في نهاياتٍ أقلّ رَوعًا. ولكنْ ما عساها تكون الجدوى؟ موضوعي الليلةَ هو الحرب، والآن تدخل تلك الحربُ بيتَه. أشعر بأنّني أهين تايتوس وكاتيا لو عمدتُ إلى تلطيف الضربة. السلام على الأرض، رفقًا بالإنسان. البول على الأرض، رفقًا بلا أحد. هذا هو قلبُ المسألة، اللبّ الأسود لميِّتِ الليل، لا تزال هناك أربعُ ساعات ستتبدّد ويتهشّم بشكل نهائيّ كلُّ أمل في النوم. الحلّ الأوحد أن أرمي بريك وراء ظهري، أن أتأكّد من أنّه حَظِيَ بمأتمٍ مهيب، ثم أطْلع بقصّة أخرى. هذه المرّة ثمّة شيء ما خسيس حتى ليكاد يلامسُ الأرض، مكافئٌ للماكينة الدراميّة التخييليّة التي بنيتُها لتوّي. جيوردانو برونو ونظريّة العوالم اللامتناهيّة. بضاعة استفزازيّة، أجل، لكنْ تبقى هناك أحجارٌ أخرى لا بدّ من انتشالها أيضًا.

قصصُ الحرب. تخلَّ عن رقيبِك لوهلةٍ، وستنقضّ عليك، واحدةً إثر واحدةٍ إثرَ واحدة...

في آخر مرّةٍ سافرتُ فيها وسونيا إلى أوروبا، خَتَمْنا الزيارةَ في بروكسل لمدّة يومين بغرض حضور لمِّ شملٍ لفرعٍ بعيدِ القربى من عائلتها. ذاتَ ظهيرة، كنّا على الغداء مع ابن عمٍّ لها، هو عجوزٌ دَمِثٌ يناهز الثمانين، وناشرٌ سابقٌ ترعرع في بلجيكا ثم انتقل بعد ذلك إلى فرنسا، أنيسُ المعشر، سمحُ الملامح، تحدّث بمقاطعَ مركّبةٍ، عاليةِ البيان. إنّه كتابٌ متنقّلٌ في هيئة رجل. كان المطعم يقع في رواق ضيّق في مكان ما في مركز المدينة. وقبل أن ندخل لنتناول الوجبة، اصطحبَنا إلى فناء في نهاية الممرّ ليريَنا نافورة وتمثالاً برونزيًّا لحوريّةِ ماءٍ تستقرّ في بركة ماء. لم تكن عملاً يمتلك خصوصيّةَ الإبداع ـ تصوّر بحجمها الأصغر بقليل من الحجم الطبيعي فتاةً عاريةً بين الخامسة عشرة والعشرين من عمرها. وبغضّ النظر عن براعة العمل، كانت هناك في المقابل ميزاتٌ مؤثّرةٌ فيها، شيءٌ ما يتعلّق بانحناء ظهر الفتاة، كما أظنّ، وقد يكون صغر نهديها ووركيها الأهيفين، ولعلّه ببساطة التوازنُ الدقيقُ للقطعة بشكل عامّ. وإذ وقفنا هناك نتأمّلها، أخبرنا جان ـ لوك أنّ الموديل

قد كبرتْ لتصبح مدرّستَه لمادّة الأدب في الثانويّة العامّة، وكانت في السابعة عشرة حين اتّخذت هذه الوضعيّة أمام النحّات. استدرنا ودخلنا المطعم، وعلى الغداء قَصَّ علينا المزيدَ عن علاقته بتلك المرأة. كانت هي مَن جعلته يعشق الكتبَ، قال، لأنّه عندما كان لا يزال طالِبَها نما افتتانُه الشديدُ بها، وانتهى هذا العشقُ إلى تغيير مجرى حياته. عندما احتلّ الألمان بلجيكا في العام ١٩٤٠، كان جان ـ لوك في الخامسة عشرة، ولكنّه التحق بخليّةٍ تابعةٍ للمقاومة السرِّيّة كمراسل، يَحْضر المدرسةَ نهارًا ويمرّر المراسلات في الليل. كما انضمّت أستاذتُه هي الأخرى إلى المقاومة. وذاتَ صباح عام ١٩٤٢ اقتحم الألمانُ المدرسة واعتقلوها. عقب ذلك بوقت قصير، تمّ اختراقُ خليّة جان ـ لوك ثم إبادتها. فكان أن اختبأ، كما قال، وعلى مدى الثمانية عشر شهرًا الأخيرة من الحرب عاش وحيدًا في سقيفةٍ لم يقم خلالها إلاّ بقراءة الكتب ـ كلّ الكتب، بلا استثناء، من قدماء الإغريق مرورًا بعصر النهضة ووصولاً إلى القرن العشرين، ملتهمًا الرواياتِ والمسرحيّات، والشعرَ والفلسفةَ، موقنًا بأنّه ما كان ليفعل ذلك لولا تأثيرُ أستاذته، التي اعتُقِلتْ أمام ناظريْه والتي ابتهَل لأجل نجاتها في كلّ ليلة. عندما وضعت الحربُ أوزارها أخيرًا، علم أنّها لم تعد إلى الوطن من المعتقل، لكنْ لم يستطع أحد أن يخبره كيف ماتت ومتى. لقد مُسِحَتْ، مُحيتْ من على وجه الأرض، ولم يدرِ امرؤٌ قطّ بما قد حدث لها.

بعد بضع سنوات من ذلك (أواخر الأربعينيّات؟ أوائل الخمسينيّات؟)، كان يتناول الطعامَ وحيدًا في أحد مطاعم بروكسل

فسمع بمحض المصادفة رجلين يتبادلان الحديث على الطاولة المجاورة. أحدهما كان أمضى فترةً في معسكر الاحتشاد إبّان الحرب. وحسب ما قصَّهُ على الرجل الآخر عن أحد الذين شاطروه المعتقل، غدا جان ـ لوك مقتنعًا أكثرَ فأكثرَ بأنّه كان يقصد أستاذتَه، حوريّةَ الماء الصغيرة التي تستقرّ في البركة في نهاية الرواق. بدت كلُّ التفاصيل مطابقة: فتاة بلجيكيّة في العشرين، شعرُها أحمر، جسدُها دقيق، فائقةُ الجمال، مشاغبة يساريّة عَصَتْ أوامرَ أحد حرّاس المعتقل. ولكي تكون عبرةً لباقي السجناء بحيث يُبَرْهَن من خلالها مصيرُ الناس الآخرين الذي يعصون الحرّاس، قرّر القائدُ إعدامَها على الملأ، واستدعاءَ نزلاء المعتقل عن بكرة أبيهم ليَشْهدوا عمليّة القتل. كان جان ـ لوك قد توقّع أنّ الرجال قاموا بشنقها أو ربّما إيقافها قرب جدار ثم إطلاق الرصاص عليها، لكنْ تبيّن أنّ ذهن القائد قد تفتّق عن طريقة أكثر تقليديّة، بوسيلةٍ بادَ نمطُها منذ قرون عديدة. لم يستطع جان ـ لوك أن ينظر إلينا عندما نطق الكلمات. أشاح برأسه وتطلّع خارج النافذة، وكأنّما الإعدام يحدث الآن خارج المطعم، وبصوتٍ هادئ امتلأ فجأةً بالانفعال، قال: لقد جُرَّتْ وآلتْ أرباعًا. بسلاسل طويلة أُحكمتْ على رسغيها وعلى كاحليها، اقتيدت إلى الساحة. أُوعِزَ إليها أن تقف باستعداد، بينما رُبِطَتْ السلاسلُ إلى أربع سيّارات «جيب» اتّجهت مقَدّماتُها في أربعة اتّجاهات مختلفة. ثم أعطى القائدُ الأمرَ للسائقين بأن يديروا محرّكاتهم. طبقًا للرجل على الطاولة المجاورة، لم تصرخ المرأة، لم يندَّ عنها صوتٌ، وكان الطرف بعد الآخر يتخلّع عن جسدها. أَيَقْبل العقلُ شيئًا كهذا؟ كان جان ـ لوك يرغب في

التحدّث إلى الرجل، كما قال، غير أنّه أدرك أنّه لم يكن ليقوى على التحدّث. نهض، وهو يغالب الدمع، فألقى ببعض النقود على الطاولة، وغادر المطعم.

عدنا، سونيا وأنا، إلى باريس. وفي غضون ثمانٍ وأربعين ساعة سمعتُ قصّتين إضافيّتين صدمتاني بشدّة ـ ليستا بالعنف المَرَضيّ الذي وَسَمَ قصّة جان ـ لوك، لكنّهما قاسيتان بما يكفي لترك أثرٍ لا يمّحي. الأولى جاءت على لسان آليك فويل، وهو صحافيّ بريطانيّ طار من لندن لتناول العشاء ذات ليلة. آليك في أواخر الأربعين، عشيقُ ميريام لمرّة واحدة. وعلى الرّغم من أنّ الأمر لا يعدو الآن كونَه ماءً من تحت جسر، فإنّ سونيا وأنا كنّا مندهشَين نوعًا ما لأنّ ابنتنا اختارت تشارلز بدلاً منه. كان التواصل بيننا قد انقطع عدّة سنوات، وكان هناك الكثيرُ من المسائل التي تناولناها بسرعة خاطفة، وأفضى ذلك إلى واحدة من تلك المناقشات المحمومة التي تتواتر من موضوع إلى آخر. في أحد المواضع بدأنا نتحدّث عن العائلات، فأخبرنا آليك عن مناقشةٍ حديثةِ العهد مع امرأةٍ صديقةٍ له كانت تقوم بتغطية أخبار الفنّ لصحيفة *الإندبندنت* أو *الغارديان*، نسيت. قال لها: بين الحين والحين، تمرّ كلُّ عائلة بأوضاع استثنائيّة ـ جرائم مروّعة، فيضانات، زلازل، حوادث

غريبة، طفرات حظٍّ معجزة. وليست هناك عائلةٌ في العالم بلا أسرار وفضائح طيّ الكتمان، ملء مستودعات من البضاعة الدفينة التي تجعلك تفغر فاكَ إنْ قُيّضَ أن يُكشَفَ عنها النقابُ. لم توافقه صديقتُه الرأيَ. قالت إنّ هذا ينطبق على العديد من العائلات، وربّما على أكثر العائلات، لكنّه لا ينطبق عليها جميعها. عائلتها، على سبيل المثال: إذ لا يسعها أن تتذكّر على الإطلاق شيئًا واحدًا ذا بال قد حدث لواحد من أفراد العائلة، ولا حادثةً استثنائيّةً واحدة. مستحيل، قال آليك. فقط ركّزي لحظةً، ولا بدّ أنّك ستخرجين بشيء ما. فكّرتْ صديقته لوهلة، وأخيرًا قالت: حسنًا، ربّما هناك شيء واحد. أخبرتني جدّتي به قبل وفاتها بوقت قصير، وأفترض أنّه استثنائيٌّ إلى حدّ ما.

ابتسم آليك إلينا عبر الطاولة. استثنائيّ، قال. لم يكن لصديقتي أن تأتي إلى هذا العالم لو لم يحدث هذا الشيء، وقد قالت إنّه ***استثنائي***. وحيث إنّني معنيّ، فإنّني أجده مذهلاً بشكل رهيب.

وُلدتْ جدّةُ صديقته في برلين في بداية العشرينيّات. وحين استولى النازيّون على السلطة عامَ ١٩٣٣، كان ردُّ فعل عائلتها اليهوديّة مثل آخرين كثر: إذ اعتقدوا أنّ هتلر ليس سوى مدّعٍ عابرٍ آخر، فلم يقوموا بأيّ مسعًى لمغادرة ألمانيا. وحتى عندما ساءت الأحوال، مضوا يَعْقدون الآمالَ على أن تتحسّن، ورفضوا أن يتزحزحوا. ذات يوم، عندما كانت الجدّة لا تزال في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة، تلقّى أهلُها رسالةً موقّعةً باسم شخص يدّعي بأنّه

نقيب في SS.[1] لم يذكر آليك في أيّ عام كان ذلك، لكنّ سنة ١٩٣٨ ستكون افتراضًا منطقيًّا، كما أظنّ، وربّما أبكر بقليل.

وطبقًا لصديقة آليك، جاء في الرسالة: «أنتم لا تعرفونني، لكنّني على معرفة جيّدة بكم وبأولادكم. قد أُحالُ إلى محكمةٍ حربيّة جرّاء كتابتي هذه، لكنّني أشعر أنّه من واجبي تحذيركم بأنّكم في خطر داهم. إذا لم تتصرّفوا بسرعة، فسيتمّ اعتقالُكم جميعًا وإرسالكُم إلى المعتقل. ثقوا بي، هذا ليس تخمينًا فارغًا. إنّي على أتمّ الاستعداد لتزويدكم بِسِمَاتِ المغادرة التي ستُعينكم على الفرار إلى بلد آخر. لكنْ، في مقابل خدمتي هذه، يتعيّن عليكم إسداءُ معروفٍ جليلٍ إليّ. فقد وَقعتُ في حبّ ابنتكم. وأنا أراقبها منذ بعض الوقت. وعلى الرّغم من أنّنا لم نتحدّث أبدًا، فإنّ هذا الحبّ يبقى خالصًا بلا حدود. فهي الفتاة التي حلمتُ بها طوال حياتي. ولو كان هذا العالم مختلفًا أو كنّا محكومين بقوانين مختلفة، لتقدّمتُ للزواج منها غدًا. هذا كلُّ ما أطلبه: الأربعاء القادم، في العاشرة صباحًا، ستذهب ابنتُكم إلى الحديقة التي تقع قبالَة بيتكم عبر الشارع، تجلس على مقعدها المفضّل، تمكث هناك ساعتين. أَعِدُكم بأنّني لن ألمسها، لن أقترب منها، لن أوجِّه كلمةً واحدةً إليها. سأبقى متواريًا طيلة الساعتين. بحلول الظهيرة، يُمْكنها أن تنهض وتعودَ إلى بيتكم. سببُ هذا الالتماس واضحٌ لديكم لا لبسَ فيه الآن. أنّني أتوق إلى رؤية فتاتي الغالية مرّةً واحدةً أخيرةً قبل أن أفقدها إلى الأبد...».

---

(١) *Schutzstaffel* تنظيم مسلّح شبه عسكري يتبع الحزب النازي.

ومن نافل القول التأكيد إذا كانت فعَلتْها. كان يجب أن تفعلها، على الرّغم من أنّ العائلة خشيتْ أن تكون خدعة، من دون ذكر الاحتمالات الأسوإ كالتحرّش الجنسي، والاختطاف، والاغتصاب. كانت جدّةُ صديقة آليك فتاة غير مجرّبة، وفي الحقيقة كانت قد تحوّلتْ إلى المعبودة بياتريس من قِبل دانتي مجهولٍ يَتْبع الـ SS، إذ إنّ غريبًا دَرَجَ على التجسّس عليها خلال الأشهر العديدة المنصرمة، متنصّتًا إلى محادثاتها ومقتفيًا أثرَها في أرجاء المدينة، ثم ألقاها في هلع لا قرار له، فيما هي تنتظر حلول يوم الأربعاء. ولكنْ، عندما دَنَتْ ساعةُ الميعاد فعلتْ ما كان يجب أن تفعله ومشت باتّجاه الحديقة، ونجمتُها الصفراءُ تلتفّ على كمّ كنزتها. جلستْ على مقعد، وفتحتِ الكتاب الذي حملته كسندٍ يهدّئ أعصابها. كانت خائفة، كما قالت لحفيدَتها، وكان التظاهرُ بالقراءة دفاعَها الوحيد، الشيءَ الوحيد الذي منعها من القفز والفرار. يستحيل أن تَحْسب كم كانت تلك الساعتان طويلتين بالنسبة إليها، لكنّ الظُّهرَ تسلّل إلى المكان أخيرًا، وعادت إلى البيت. في اليوم التالي، كانت سِماتُ المغادرة قد دُسّتْ من تحت الباب نزولاً عند الوعد، وغادرت العائلةُ البلادَ إلى إنكلترة.

جاءت القصّة الأخيرة على لسان أحد أبناء إخوة سونيا، الابنِ البكر لأكبر إخوتها، برتراند، وهو العضو الثاني بعدها في العائلة الذي امتهن الموسيقى. وبذلك سيلقى أحدُهم حظوةً خاصّةً لديها، وهو عازف الكمان، وعضوٌ وزميلٌ في أوركسترا أوپرا باريس. التقيناه على الغداء في ألارد، في ظهيرة اليوم الذي تلا غداءنا مع آليك. وأثناء الوجبة شرع في الحديث عن عازفة ڤيولونسيل قرّرتِ التقاعدَ في نهاية الموسم. الكلّ عَلِمَ بقصّتها، قال، لقد تحدّثتْ بها على الملأ، وبذلك لم يشعر بأنّه يخون ثقتَها به إذا حكاها على مسامعنا. فرانسواز دوكلوز. لا أعرف لماذا لا أزال أحتفظ باسمها، لكن لديّ الاسم - فرانسواز دوكلوز، عازفة الڤيولونسيل. اقترنتْ بزوجها في أواسط الستّينيّات، قال برتراند، فأنجبت فتاةً في أوائل السبعينيّات، وبعدها بسنتين اختفى زوجُها. ليس حدثًا غريبًا إلى هذه الدرجة، كما أبلغتها الشرطةُ عندما قدّمتْ بلاغًا باختفائه. لكنّ فرانسواز كانت تعلم أنّ زوجها أحبّها، وأنّه مولع بابنتهما الصغيرة، وأنّه -

ما لم تكن المرأةَ الأكثر عمًى والأكثر تبلّدًا على وجه الأرض ـ ليس واقعًا في حبائل امرأة أخرى. كان يتقاضى راتبًا لائقًا، وهو ما دلّ على أنّ المال لم يكن مشكلة. كان يستمتع بعمله، ولم يُبْدِ ميلاً إلى المقامرة أو الاستثمارات المحفوفة بالمخاطر. ما الذي حدث معه إذًا، ولماذا اختفى؟ لم يدرِ أحد.

خمسة عشر عامًا تمرّ. ورغم أنّ الزوج أُعلِنَ ميتًا، فإنّ فرانسواز لم تتزوّج من جديد ولم تعاشرْ رجلاً آخر. ربّتْ ابنتَها بنفسها (بمساعدة والديها). عملتْ في الأوركسترا، وأعطتْ دروسًا خصوصيّة في شقّتها، وهذا كلّ شيء: عيشٌ شظفٌ، مع وجود حفنة من الأصدقاء، وتمضية فصول الصيف مع عائلة أخيها، واللغز الذي لمّا يُحلّ يلازمها كظلّها. وبعد صمت كلّ تلك السنوات، رنّ الهاتفُ ذات يوم، ليُطلبَ منها الذهابُ إلى المشرحة لكي تتعرّف على جثّة. حذّرها الشخصُ الذي رافقها إلى الغرفة حيث ينتظرها الجثمان من أنّها ستواجِهُ تجربةً قاسية: فالميّت كان قد أُلقيَ من نافذة الطابق السادس ليموتَ لدى ارتطامه بالرصيف. ومهشَّمة كما الجثّة، تعرّفته فرانسواز في الحال. كان وزنُه قد ازداد عشرين رطلاً عمّا كان عليه، وخفّ شعرُه وصار رماديًا. ولكنْ لم يخامرها أدنى شكّ في أنّها كانت تنظر إلى جثمان زوجها المفقود.

قبل أن تستطيع المغادرة، دلف رجلٌ إلى الغرفة، واصطحب فرانسواز من ذراعها، قائلاً: «مدام دولوز، هلاّ أتيتِ معي من فضلك. لديّ ما أقوله لك».

تقدّمها إلى الخارج. أخذها إلى سيّارته، التي كانت مركونةً أمام

مخبز يقع على شارع متاخم، وطلب إليها أن تصعد. وبدلاً من أن يُدْخِلَ المفتاح ليدير المحرّك، أنزل الرجلُ زجاجَ النافذة وأشعل لفافةً. وعلى مدى الساعة التي تلتْ، أخبر فرانسواز قصّةَ الخمس عشرة سنة الماضية وهي جالسةٌ إلى جواره في سيّارته الصغيرة الزرقاء، ترقب الناسَ وهم يخرجون من المخبز حاملين أرغفةَ الخبز. كان ذلك أحد التفاصيل التي تذكرها برتراند ـ أرغفة الخبز ـ لكنّه لم يستطع أن يخبرنا شيئًا عن الرجل. اسمه، عمره، كيف كان شكله ـ كلّ هذه التفاصيل لم تُذكر. لكنّ ذلك لم يكن من الأهمّيّة بمكان.

كان دولوز عميلاً لـ DGSE[1] ـ الإدارة العامّة للأمن الخارجيّ، كما أخبرها. لم تكن لتستطيع أن تعرف ذلك، بالطبع، إذ إنّ العملاء يعملون ضمن أوامر صارمة تقضي بأن لا يتحدّثوا عن نشاطهم. فطيلة تلك السنوات التي ظنّت خلالها أنّ زوجها كان يكتب دراساتٍ اقتصاديّةً لوزارة الشؤون الخارجيّة، كان في حقيقة الأمر يدير العمليّات لصالح الإدارة العامّة للأمن الخارجيّ. بالضبط بعد مولد ابنتهما منذ سبعة عشر عامًا، أُسندتْ إليه مهمّة تقضي بتحويله إلى عميل مزدوج: ظاهريًّا يدّعي تأييدَ السوفييت، ولكنّه في الواقع يقوم بتزويد الفرنسيّين بالمعلومات. بعد سنتين، اكتشف الروسُ حقيقته وحاولوا قتله. أفلح دوكلوز بالهروب، لكنْ منذ تلك الإشارة غدت مسألةُ العودة إلى البيت غير واردة. استمرّ الروس في مراقبة فرانسواز وابنتها. كذلك كان هاتفُ الشقّة مُرَاقَبًا.

(١) Direction Générale de la Sécurité Extérieure.

ولو حاول دوكلوز الاتّصالَ أو الزيارة، لقُتِلَ الثلاثةُ في الحال.

لذلك بقي في منأى لكي يحمي عائلته. أخفاه الفرنسيّون خمسة عشر عامًا متنقّلاً من شقّة باريسيّة إلى أخرى. وكرجلٍ مُلاحَق، كان يتسلّل ليقتنص نظرةً إلى ابنته في أحيان متباعدة، يراقبها عن بُعْد وهي تنمو، من دون أن يتمكّن من مخاطبتها، ومعرفتها عن كثب. يراقب زوجته وقد خبا شبابُها وانزلقتْ إلى منتصف العمر. وبعدها، بسبب اللامبالاة، أو لأنّ أحدهم وشى به، أو بسبب الحظّ الأبكم العاثر، أَمسك الروسُ طرفَ الخيط المؤدّي إلى دوكلوز. عمليّة القبض عليه... عَصْب العينين... الحبال حول معصميه... اللكمات على وجهه وجسده... ومن ثم السقوط من نافذة الطابق السادس. موت عن طريق القذف من النافذة. أسلوبٌ تقليديّ آخر: إعدامُ الصفوة بين الجواسيس ورجال الشرطة منذ مئات السنين.

هناك العديد من الثغرات في حكاية برتراند، لكنّه لم يستطع أن يجيب على أيّ من الأسئلة التي طرحتْها سونيا وأنا عليه. كيف غطّى دوكلوز نفسَه طوال تلك السنوات؟ هل عاش تحت اسم مستعار؟ هل تابع العملَ للمديريّة العامّة للأمن الخارجي في وظيفةٍ ما؟ كم من الوقت كان يُعطى له للخروج؟ كان برتراند يهزّ رأسه. فهو ببساطة لم يعرف.

- ما هي السنة التي مات فيها دوكلوز؟ سألتُ. تتذكّر ذلك بالتأكيد.

- في ١٩٨٩. ربيع العام ٨٩. أنا متأكّدٌ من ذلك، لأنّني كنتُ قد

التحقتُ بالأوركسترا حينها. حدث الشيء مع فرانسواز بعد أسابيع قليلة فقط.

ـ ربيع الـ ٨٩، قلتُ. تحطّم جدارُ برلين في تشرين الثاني/ نوفمبر. أطاحت الكتلةُ الشرقيّة بحكوماتها، ثم تفتّت الاتّحاد السوفييتي. ذلك يجعل من دوكلوز ضحيّة من آخر ضحايا الحرب الباردة، أليس كذلك؟

أتنحنح، وفي ثانيةٍ أبدأ السعالَ من جديد. أحاول تقيّؤ كتلٍ من النُّخامة، وأنا أغطّي فمي لأكبتَ الصوت. أريد أن أبصق في منديلي، لكنّني حين أمدّ يدي وأبحث عنه بأصابعي، أمسُّ ساعة المُنَبِّه، التي تهوي من على طاولة السرير فتُحدِثُ قعقعةً على الأرض. ولكنْ لا منديل. ثم أتذكّر أنّ كلّ مناديلي في الغسل، لذلك أجهد في البلع تاركًا للمادّة اللزجة أن تنزلق عبر بلعومي، وأنا أقول في سرّي، للمرّة الخمسين خلال الخمسين يومًا الأخيرة، إنّني يجب أن أُقلع عن التدخين، وهو ما أعرف أنّه لن يحصل، لكنّني أقولها في أيّة حال، لمجرّد اضطهاد نفسي بنفاقي الذاتي.

أبدأ التفكير في دوكلوز مرّةً أخرى، متسائلاً عن إمكانيّة إثارة قصّة من هذه القضيّة المهولة، لا عن دوكلوز وفرانسواز بالضرورة، ولا الخمسة عشر عامًا من التواري والانتظار، ولا ما أعرفه الآن، بل عن أمرٍ أستطيع ابتداعَه إذا استشرفتُ الآتي. الابنة، على سبيل المثال، القفزة الزمنيّة من ١٩٨٩ حتى ٢٠٠٧. ماذا لو أنّها كبرتْ لتصبح صحافيّةً أو روائيّة، من أولئك الذين يدوّنون أشياءَ من هذا

القبيل، وبعد موت أمّها تقرّر أن تؤلّف كتابًا عن والديها؟ لكنّ الرجل الذي أفشى سرَّ والدها إلى الروس لا يزال حيًّا، وحين يتنسّم خبرًا عمّا هي بصدده، يحاول إيقافها ـ أو ربّما قتلَها . . .

هذا أقصى ما بَلَغْتُه. بعد وهلة، أسمع وقعَ خطوات من جديد في الطابق الثاني، لكنّها هذه المرّة ليست متّجهةً إلى الحمّام. إنّها تنزل الدرج، وأنا أتخيّل أنّ ميريام أو كاتيا في طريقها إلى المطبخ للبحث عن شراب أو لفافة تبغ أو وجبةٍ خفيفةٍ من البرّاد. أدرك أنّ الخطوات تسير في هذا الاتّجاه، أيْ أنّ إحداهما تقترب من غرفتي. أسمع نقرًا على الباب ـ لا، ليس نقرًا بكلّ معنى الكلمة، بل خربشة واهية بأظافر الأصابع على الخشب ـ ثم أسمع كاتيا وهي تهمس: هل أنت مستيقظ؟

أطلبُ منها الدخول، وحين يُفتح الباب أستطيع أن ألاحظ محيط قامتها وهي تواجه الظلام، وضوءًا ضاربًا إلى الزرقة من خلفها. تبدو أنّها ترتدي تي ـ شيرت عليه شعار الـ Red Sox وسروالاً رماديًّا ضيّقًا، وشعرُها الطويل معقودٌ إلى الخلف على طريقة ذيل الحصان.

ـ هل أنت على ما يرام؟ تسأل. سمعتُ شيئًا يسقط على الأرض، وبعده الكثير من السعال الفظيع.

ـ أنا على ما يرام كما المطر، أجيبُ. أيًّا كان معنى ذلك.

ـ ألم تنم على الإطلاق؟

ـ ولا طرفة عين. وأنتِ؟

ـ أنام وأفيق، لكنْ ليس كثيرًا.

ـ لماذا لا تغلقين الباب؟ من الأفضل أن يكون الظلامُ مطبقًا هنا. سأعطيك واحدةً من مخدّاتي، ويمكنك الاستلقاءُ إلى جواري.

يُغلق الباب. أزيحُ مخدّةً باتّجاه موضع سونيا القديم. وخلال لحظات ستكون كاتيا متمدّدة على ظهرها بجانبي.

ـ يذكّرني ذلك بكِ عندما كنتِ صغيرة، أقول. عندما كنّا، أنا وجدّتُك، نأتي لزيارتكم. لطالما حَبَوْتِ إلى السرير لتنامي معنا.

ـ أفتقدها لدرجة الجنون، كما تعلم. لا أستطيع أن أُدخل في رأسي فكرةَ أنّها ليست معنا أبدًا.

ـ أنت والجميع.

ـ لماذا توقّفتَ عن تأليف كتابك، يا جدّي؟

ـ قرّرتُ أنّ مشاهدة الأفلام معكِ أكثرُ متعةً.

ـ هذا في الفترة الأخيرة. لكنّك توقّفتَ عن كتابته منذ وقت طويل.

ـ غدوتُ أكثر تعاسةً. استمتعتُ بالعمل على الأجزاء الأولى، لكنْ فيما بعد مررتُ بظروفٍ عصيبة، وبدأتُ المكابدة. لقد أنجزتُ أشياء غبيّة مثله في حياتي، وليس عندي الجَلَد لكي أعيش التجربة نفسَها. ثم مرضتْ سونيا. وبعد أن ماتت، أُصبتُ بالاشمئزاز من فكرة العودة إليه.

ـ يجب ألاّ تكون قاسيًا تجاه نفسك.

ـ لستُ كذلك. أنا فقط أقول ما أشعر به.

ـ كان يفترض أن يكون الكتابُ مُهدًى إليّ، أتتذكّر؟

ـ لك ولأمّك.

ـ لكنّها تعرف الآن كلَّ شيء. أمّا أنا فلا. لذلك كنتُ أتطلّع بشوقٍ إلى قراءته.

ـ لعلّكِ ستشعرين بالسأم منه.

ـ بإمكان مخِّكَ أن يصبح «سميكًا» حقًّا، يا جدّي. أتعلم ذلك؟

ـ لماذا لا تزالين تنادينني بـ جدّي؟ توقّفتِ عن مناداة أمّك بـ *ماما* منذ سنين. لا بدّ أنّك كنتِ في المدرسة الثانويّة، ثم فجأةً أصبحت الـ *ماما أمّي*.

ـ لم أشأْ أن أبدو مثلَ طفلةٍ أكثر من ذلك.

ـ أناديكِ بـ كاتيا. فيمكنكِ أن تدعيني بـ أوغست.

ـ لم يطبْ لي هذا الاسم كثيرًا. يبدو جذّابًا على الصحيفة، لكنْ يَصْعب على الفم نطقُه.

ـ إذًا، ناديني بشيء آخر. ماذا عن *إدْ*؟

ـ إدْ؟ من أين جاء ذلك؟

ـ لا أدري، أقول، أفعل ما في وسعي لتقليد لهجة كوكني. خطر لي ذلك هذه اللحظة little ole'ed.[1]

---

(١) عبارة ترد في برنامج تلفزيوني يقدّمه كوكني.

تُطْلق كاتيا تنهيدةً قصيرةً على سبيل التهكّم.

ـ متأسّف، أتابعُ. لا أستطيع التحكّم بنفسي. وُلِدتُ بجيناتٍ تحمل النكاتِ السمجة، وليس لديّ ما أفعله حيال ذلك.

ـ أبدًا لا تأخذ الأمور على محمل الجِدّ، أليس كذلك؟

ـ أنا جادٌّ في كلّ شيء، يا حبيبتي. أنا فقط أتظاهر بالعكس.

ـ أوغست بريل، جدّي، المعروف حاليًّا بـ إدْ. ماذا كانوا ينادونك في صغرك؟

ـ غالبًا بـ أوغي. كنتُ أوغي في أيّامي الزاهرة، لكنّ الناس أطلقوا عليّ الكثيرَ من الأشياء الأخرى، أيضًا.

ـ يَصْعب عليّ تخيّلُ ذلك. أقصد وأنت طفل. لا بدّ أنّك كنتَ ولدًا غريبَ الأطوار. أراهن أنّك كنت تقرأ الكتب طوال الوقت.

ـ جاء ذلك لاحقًا. حتى الخامسة عشرة من عمري، كان الشيء الوحيد الذي اهتممتُ به هو البيسبول. كنّا نلعبها بلا توقّف، حتى يحين تشرين الثاني/ نوفمبر. ثم نتحوّل إلى كرة القدم لعدّة أشهر. ومع حلول شباط/ فبراير نعود إلى البيسبول من جديد. نحن العصابة القديمة من واشنطن هايتس. كنّا مجانين جدًّا، لدرجة أنّنا لعبنا البيسبول في الثلج.

ـ ماذا عن الفتيات؟ هل تتذكّر اسم حبّك الأكبر؟

ـ بالتأكيد. شيء كهذا لا يُنسى.

ـ مَن كانت؟

ـ ڤرجينيا بلاين. وقعتُ في غرامها عندما كنتُ طالبًا في الثانويّة، وفجأةً لم يعد البيسبول يعني لي شيئًا بعد ذلك. بدأتُ بقراءة الشعر، أدمنتُ التدخين، ووقعتُ في حبّ ڤرجينيا بلاين.

ـ هل بادلتك الحبّ؟

ـ لم أتأكّد من ذلك أبدًا. تأرجحتْ نحوي بين حارّةٍ وباردةٍ لستّة أشهر، ثم تركتني لتذهبَ مع شخص آخر. شعرتُ كأنّها كانت نهاية العالم، أُولى حسراتي الحقيقيّة.

ـ ثم التقيتَ بجدّتي. كنتَ فقط في العشرين، أليس كذلك؟ أصغر منّي الآن.

ـ أنتِ تُكْثرين من الأسئلة...

ـ إذا لم تكن عازمًا على إنهاء كتابك، فما هو السبيل الآخر للوصول إلى ما أريد معرفته؟

ـ لماذا هذا الاهتمام الفجائيّ؟

ـ ليس فجائيًّا. كنتُ أفكّر فيه منذ زمن طويل. الآن بالتحديد، عندما سمعتُ أنّك مستيقظ، قلتُ في نفسي، هذه فرصتي، فنزلتُ وطرقتُ بابك.

ـ خربشتِ بأظافرك على بابي.

ـ حسنًا، خربشتُ. ونحن هنا الآن، مستلقيَيْن في الظلام. إذا لم تجب على أسئلتي، فلن أدعك تشاهد الأفلام معي بعد الآن.

ـ لنتحدّثْ فيها. لقد خرجتُ بمثالٍ جديدٍ يدعم نظريّتك.

ـ عظيم. لكنّنا لا نتحدّث عن الأفلام الآن. إنّنا نتحدّث عنك.

ـ ليست حكاية مسلّية، يا كاتيا. فيها الكثير ممّا يبعث على الاكتئاب.

ـ إذْ، أنا فتاة ناضجة، أستطيع أن أتعاطى مع ما تقدّمُه.

ـ آمَل ذلك.

ـ حسب ما أعلم، الشيء الوحيد الذي تقول إنّه يبعث على الاكتئاب هو حقيقة أنّكَ خنتَ زوجتك وتركتَها لأجل امرأةٍ أخرى. آسفة، يا شريك، لكنّ ذلك تقليدٌ شائعٌ جدًّا هنا، أليس كذلك؟ أتظنّني أستطيع التعاطي مع ذلك؟ ها قد فعلتُ، مع والدي ووالدتي.

ـ متى تحدّثت إليه آخر مرّة؟

ـ مَنْ؟

ـ والدك.

ـ مَنْ؟

ـ كفاكِ، يا كاتيا. والدك، ريتشارد فورمان، زوج أمّك السابق، صهري السابق. احكي معي قليلاً، يا حبيبة قلبي. أَعِدُكِ بأنّني سأجيب عن أسئلتك، لكنْ أخبريني متى تحدّث معك والدُكِ آخر مرّة.

ـ منذ حوالى أسبوعين، كما أظنّ.

ـ هل أجريتما أيّة ترتيبات لكي يرى أحدكما الآخر؟

ـ دعاني إلى زيارة شيكاغو، لكنّني قلت له إنّي لست مهيَّأةً لها.
قال إنّه عندما ينتهي نصفُ السنة الدراسيّة الشهرَ القادم، سيأتي إلى نيويورك في عطلة نهاية الأسبوع. وقال إنّنا قد نمكث في فندق في مكانٍ ما ونأكل كثيرًا من الطعام الطيِّب. ربّما سأذهب، لكنّني لم أقرّر بعد. بالمناسبة، زوجته حامل. في بطن سوزي ووزي الحلوة ولدٌ.

ـ هل تعلم أمُّكِ بذلك؟

ـ لم أقل لها، حسبتُ أنّها قد تنزعج.

ـ سيحدث أنْ تعلم في نهاية المطاف.

ـ أعرف. لكنّها تبدو أفضلَ بقليلٍ الآن، ولم أشأ أن أهزّ المركب.

ـ يا لك من كُعيْكةٍ عسيرة، يا بنت.

ـ لا، لستُ هكذا. أنا قرصٌ مُحلّى كبير ليِّن مع جِلّلي. كلُّه مغطّس بالحلو.

أضمُّ يد كاتيا. ولنصف دقيقة أو ما يقاربها نرسل أنظارَنا في الظلام من دون أن ننبس بكلمة. أتساءل إنْ كانت ستروح في إغفاءة إذا لم أستأنف الحديث. لكنْ بعد أن فكّرت في ذلك لحظةً، كَسَرتِ الصمتَ بطرح سؤال آخر:

ـ متى رأيتَها للمرّة الأولى؟

ـ الرابع من نيسان/أبريل، سنة ألف وتسعمائة وخمس وخمسين
ـ الساعة الثانية والنصف بعد الظهر.

ـ حقًّا؟

ـ حقًّا.

ـ أين كنتَ؟

ـ على برودواي. تقاطُع برودواي مع الشارع مائة وخمسة عشر. كنتُ أتّجه شمالاً في طريقي إلى مكتبة بطلر. توجّهتْ سونيا إلى جويليارد، التي كانت قرب جامعة كولومبيا في ذلك الوقت، وكانت متوجّهةً نحو مركز المدينة. لا بدّ أنّي رأيتها عن بعد نصف كتلة بناء، ربّما لأنّها كانت ترتدي معطفًا أحمر ـ أحمر من النوع الذي يقفز ليهيمن عليك، خصوصًا في شارع مدينةٍ، لا شيء فيه إلاّ الآجرّ الرتيب والحجر في الخلفيّة. إذًا ألمح المعطفَ الأحمر آتيًا نحوي، ثم يتبيّن لي أنّ الشخص الذي يرتدي المعطف فتاةٌ قصيرة ذاتُ شعر فاحم. بشرى واعدة عن بُعد، لكنْ لا يزال من المبكّر جدًّا التأكّدُ من أيّ شيء. هذه هي الحال مع الشبّان، تعرفين ذلك: دائمًا ينظرون إلى الفتيات، دائمًا يتفحّصونهنّ، دائمًا يأملون أن يلتقوا بالجمال المزلزِل الذي سيَسْلبك أنفاسك ويجعل قلبك يتوقّف عن الخفقان. رأيت المعطف الأحمر إذًا، ورأيتُ أنّ مَن ترتديه فتاةٌ ذات شعر قصير يقاربُ طولُها خمسَ أقدام وخمسَ بوصات. والأمر التالي الذي ألاحظه أنّ رأسها يتمايل قليلاً، كأنها ترنّم لحنًا لنفسها، وأنّ هناك وثبةً خاصّةً في مشيتها، خفّةً في طريقة خَطوِها. وأقول في سرّي، هذه الفتاة سعيدة، سعيدة لكونها حيّةً وتسير في الشارع، مع تموّج الهواء النقيّ المشبع بشمس ربيع مبكّر. بعد عدّة ثوانٍ، يبدأ وجهها بالمزيد من التجلّي، وألمح أنّها تضع أحمرَ

شفاهٍ. ومع تضاؤل المسافة بيننا، أستوعب حقيقتين مهمّتيْن معًا. الأولى: أنّها تترنّم في نفسها ـ لحنًا لموتزارت، كما أظنّ، لكنّني غير متأكّد ـ وهي لا تترنّم وحسب، وإنّما تمتلك صوتَ مغنّيةٍ حقيقيّة. الثاني: أنّها تتمتّع بجاذبيّة فائقة، بل إنّها جميلة، وأنّ قلبي يوشك على التوقّف عن الخفقان. الآن، تبعد عنّي أربع أقدام أو خمسًا، وأنا، الذي لم أتوقّف في الشارع للتحدّث مع فتاة لا أعرفها، ولم أمتلك الجرأةَ أبدًا في حياتي لكي أخاطبَ غريبةً جميلةً أمام الملأ، أفتح فمي وأقول «مرحبًا». ولأنّني أبتسم لها، ابتسامةً لا شكّ في أنّها من النوع الذي لا يُضْمر تهديدًا أو عدوانيّة، فإنّها تتوقّف عن الترنّم، تبادلني الابتسامة، وتردّ تحيّتي. وهذا كلُّ شيء. أنا أكثر ارتباكًا من أن أضيف شيئًا آخر، لذلك أتابع السير. وهكذا تفعل الفتاةُ الجميلةُ ذاتُ المعطف الأحمر. لكنْ بعد ستّ خطوات أو سبع أندم على قلّة جسارتي، وأتلفّتُ حولي، آملاً في أنّه لا يزال ثمّة وقت لكي أبدأ حديثًا. غير أنّ الفتاة تسير مسرعة ولم تعد في المتناول. وهكذا، أرقبها وعيناي خلفها، وهي تَعْبر الشارعَ لتغيب في الزحام.

ـ أمرٌ مخيِّب، لكنْ يُمْكن تقبُّله. أمقتُ أن يتلقّفني الرجالُ في الشارع. لو أنّك أفرطتَ في الإقدام، لربّما انقلبتْ سونيا عليك، ولما كُتب لك الاستمرار معها.

ـ من السماحةِ بمكان أن ننظر إلى الأمر بهذه الطريقة. بعد أن اختفتْ، شعرتُ بأنّني أطحتُ بفرصة العمر.

ـ كم مضى قبل أن تراها مرّةً أخرى؟

ـ ما يقارب الشهر. جرت الأيّامُ بطيئةً، ولم أستطع التوقّف عن التفكير فيها. لو عرفتُ أنّها كانت طالبةً في جويليارد، لكنتُ وجدتُ سبيلاً لتعقّبها، لكنّني لم أعرف شيئًا. كانت محضَ تجلٍّ نَظَرَ في عينيّ ثانيتين معدودتين ثم تلاشى. كنتُ على قناعة بأنّني سوف لن أراها ثانيةً، وبأنّ الآلهة مكرتْ بي، وبأنّ الفتاة التي قُدّر لي أن أقع في حبّها ـ الشخص الوحيد الذي انوجد على هذه الأرض ليعطي حياتي معنًى ـ قد انخطف مني وأُلْقِيَ في بُعْدٍ آخر، في مكانٍ لا سبيل إلى بلوغه، مكانٍ لن يقيّضَ لي دخولُه. أتذكّر أنّي كتبتُ مطوّلةً شعريّةً، سخيفةً، عن العوالم المتوازية، الفرص الضائعة، خرائيّة القدر التراجيديّة، سنّ العشرين عامًا، وشعرتُ في ذلك الحين أنّي ملعون.

ـ لكنّ القدر كان إلى جانبك.

ـ القدر، الحظّ، سمِّهِ ما شئتِ.

ـ أين حدث ذلك؟

ـ في قطار الأنفاق. الشارع السابع IRT[1] المتّجه إلى مركز المدينة، في مساء السابع والعشرين من نيسان/ أبريل، سنة ألف وتسعمائة وخمس وخمسين. كانت عربة القطار مزدحمة، لكنّ المقعد المجاور لمقعدي كان شاغرًا. توقّفنا عند الشارع السادس والستّين. فُتحت الأبواب، ودخلتْ. وحيث إنّه لم تتوفّر مقاعدُ أخرى، فجلستْ إلى جواري.

---

(١) The Interborough Rapid Transit Company (IRT) كانت تلك الشركة تدير شبكة أنفاق نيويورك حين تأسّست سنة ١٩٠٤.

ـ هل تذكّرتْك؟

ـ ذكرى مبهمة. ذكّرتُها بلقائنا الصغير في برودواي في بداية هذا الشهر، وقد تذكَّرَتْه. لم يكن لدينا الكثيرُ من الوقت. كنتُ في طريقي إلى الـ Village للقاء بعض الأصدقاء، لكنّ سونيا كانت على وشك النزول عند الشارع الثاني والأربعين، لذلك تسنّى لنا أن نكون معًا في ثلاث محطّات فقط. استطعنا أن يقدِّم كلٌّ نفسَه إلى الآخر وأن نتبادل رقميْ هاتفيْنا. علمتُ أنّها كانت تدرُسُ في جويليارد. وعلمتُ أنّها كانت فرنسيّة غير أنّها أمضت السنوات الاثنتيْ عشرة الأولى من حياتها في أميركا. كانت إنكليزيّتها ممتازة، من دون لكنة على الإطلاق. عندما جرّبتُ فرنسيّتي المتوسّطةَ الإجادةِ معها، تبيّن أنّ فرنسيّتها ممتازة أيضًا. قد نكون تحدّثنا سبع دقائق، عشرَ دقائق على الأكثر. ثم نزلتْ، وأدركتُ أنّ شيئًا ما هائلاً قد حدث. بالنسبة إليّ، على الأقلّ. لم أستطع أن أعرف بماذا كانت سونيا تفكّر أو تحسّ، لكنْ بعد تلك الدقائق السبع أو العشر، أيقنتُ أنّي قد وجدتُ ضالّتي.

ـ أوّل موعد. أوّل قبلة. أوّل... تعرف ما أقصده.

ـ اتّصلتُ بها بعد ظهر اليوم التالي. اليدان ترتعشان... لا بدّ أنّي رفعتُ السمّاعة وأعدتُها مرّات ثلاث أو أربعًا قبل أن أجد الشجاعة وأدير القرصَ. في مطعم إيطالي رخيص، في وِستْ ڤيليج، لا يَحْضرني الاسم. لم يكن لديّ الكثيرُ من المال، وتلك كانت المرّة الأولى ـ لا أكاد أصدّق ـ المرّة الأولى التي دعوتُ فيها فتاةً إلى الخروج إلى *العشاء*. لا أستطيع أن أرى نفسي. ليس

لديّ أدنى فكرة عن نوع الانطباع الذي تركْتُه. لكنّني أستطيع أن أراها تجلس قبالتي في بلوزتها البيضاء، بعينيها الخضراوين الواثقتين، اليقظتين، المتوثّبتين، الجزلتين؛ والثغرِ الفاتنِ بشفتيه المكتنزتين، يبتسم، غالبًا يبتسم؛ وصوتِها الخفيض، صوت ذي رنينٍ آتٍ من مكانٍ ما عميقٍ من حجابها الحاجز، صوت مثيرٍ للغاية، كما شعرتُ، أبدًا شعرتُ؛ ثم ضحكتها، التي كانت مجلجلة أبدًا، حادّةً إلى حدّ ما في بعض الأوقات، الضحكة التي بدت كأنّها تنبعث من حنجرتها، بل من رأسها؛ ومتى دغدغها شيء ما حتى العظام ـ وأنا أتحدّث الآن عن مرحلة لاحقة، لا عن تلك الليلة ـ فستدخل في تلك النوبات من القهقهة العاصفة، الضحكِ المفرطِ، حتى إنّ الدموع تسيل من عينيها.

ـ أذكر. لم أرَ أحدًا يضحك مثلما تفعل. عندما كنتُ صغيرة، كنت أخاف من ضحكها أحيانًا. كانت لتستمرئ الضحك لفترة طويلة، حتى ظننتُ أنّها لن تتوقّف، وأنّها ستموت ضاحكة. ولاحقًا أحببتُ هذا الضحك.

ـ هناك كنّا إذًا، ولدين في العشرين من عمرهما، في ذلك المطعم على شارع بانك، شارع پيري، لا يهمّ أين كان يقع، في موعدنا الأوّل. تحدّثنا عن أشياء لا تُحصى، نسيتُ معظمها، لكنّني أذكر كم كنتُ مأخوذًا عندما أخبرتني عن عائلتها، وتاريخها. بدت قصّتي باهتةً مقارنةً بقصّتها، إذا أخذنا في الاعتبار والدي بائعَ المفروشات وأمّي معلّمة الصفّ الرابع، آل بريل من مانهاتن العليا، الذين لم يزوروا مكانًا آخر أو يفعلوا شيئًا عدا دفع الإيجار. أمّا

والد سونيا فكان بحّاثةً في البيولوجيا، أستاذًا جامعيًّا، أحدَ أهمّ العلماء في أوروبا. وُلِد ألكسندر وايل ـ قريبٌ بعيدٌ للمؤلِّف الموسيقيّ ـ في ستراسبورغ، وهو يهودي (كما تعلمين مسبقًا). ويا لها من نقلةٍ نوعيّةٍ عندما عَرضتْ عليه جامعةُ پرينستون مركزًا سنة ١٩٥٣، وقد فعل صوابًا بقبوله. لو كانت العائلة بقيت في فرنسا إبّان الحرب، فمن يدري ماذا كان سيحدث لهم؟ أمّا والدة سونيا، ماري ـ كلود، فوُلدتْ في ليون. نسيتُ ماذا كان والدُها يعمل، لكنّ جدّيْها كانا قسّين بروتستانتيّين، وهذا يعني أنّ سونيا لم تكن فتاتك الفرنسيّة النموذجيّة إلاّ بشقّ النفس. لا كاثوليك في أيّ موضع من المشهد، لا صلاة «السلامُ عليكِ يا مريم»، لا زيارات إلى صندوق الاعتراف. ماري ـ كلود التقت ألكساندْر عندما كانا طالبين في باريس، وتزوّجا في وقتٍ ما في بداية العشرينيّات، وأنجبا أربعة أولاد: ثلاثة صبيان، وبعد خمس سنوات من ولادة الأخير، جاءت سونيا، آخرُ العنقود، الأميرةُ الصغيرةُ، التي كانت في الشهر الأوّل من عمرها عندما هاجرت العائلةُ إلى أميركا. لم يعودوا إلى باريس إلاّ بحلول سنة ألف وتسعمائة وسبع وأربعين. كان ألكساندر قد حصل على مركز مهمّ في معهد پاستور ـ بصفة مدير، كما أظنّ ـ وسونيا استعدّت للذهاب إلى الليسيه فينيلون. كانت قد عَقدت العزمَ على أن تصبح مغنّية، ولم تشأ أن تُنهي البكالوريوس، لكنّ الوالدين أصرّا. لذلك درستْ في جويليارد بدلاً من المعهد العالي للموسيقى في باريس. كانت ناقمةً على والديها لأنّهما توصّلا إلى إقناعها بعد لأيٍ ثم ولّيا الأدبار. لكنْ تمّ الصفحُ عن كلّ شيء في نهاية المطاف. وخلال الوقت الذي التقيتُ فيه

سونيا، كان السلام يعمّ آلَ وايل. رحّبت العائلةُ بدخولي إليها. أظنّ أنّهم تأثّروا بحقيقة أنّي تحدّرتُ من عائلةٍ مختلطة، أنا الآخر ـ أمّ يهوديّة وأب يتبع الأسقفيّة البروتستانتيّة. وهكذا، بناءً على عرْفٍ صوفيّ، غير مدوَّن في الولاءات العشائريّة والقبليّة، خَلَصا إلى أنّني وسونيا سنكون زوجين ملائمَين.

ـ أنت تمضي قُدمًا في التحدّث عن نفسك. عُدْ إلى عام ألف وتسعمائة وخمس وخمسين. القبلة الأولى. لحظةَ أيقنتَ أنّ سونيا قد أحبّتك.

ـ ذكراها ماثلة، لأنّ التماسّ الجسدي وقع في الليلة ذاتها، أمام باب شقّتها. كانتْ قد تشاركتْ مكانًا يقع على شارع مائة وأربعة عشر مع فتاتين أُخريين تدرسان في جويليارد. وبعد أن أخذْنا القطارَ إلى مانهاتن العليا، رافقتُها إلى البناء الذي تقطنه، مسافة شارعين، من مائة وستة عشر إلى مائة وأربعة عشر. لكنْ خلال ذلك المشوار الوجيز، القريب جدًّا من البداية، ربّما على الدرجة العاشرة أو الثانية عشرة التي صعدناها، أرسلتْ جدّتك ذراعَها حول ذراعي. ورعشةُ تلك اللحظة تلبّثتْ في قلب جدّك حتى اليوم. سونيا هي التي بادرتْ. لم يكن في ذلك أيُّ شيء شهوانيّ صريح ـ مجرّد إعلان بأنّها مالت إليّ، بأنّها استمتعت بالمساء الذي قضيناه معًا، وبأنّها تضمر كلَّ النيّة في أن تراني ثانيةً. لكنّ تلك الحركة عَنَتِ الكثير... وملأتني بالحبور، حتى كدتُ أقع على الأرض. ثم الباب... تعبير «تصبح على خير» عند الباب، المشهد التقليديّ لأيّة علاقة عاطفيّة أوّل تفتُّحها. أن تقبِّل أو لا تُقبِّل؟ أن تومئ أو

تصافح؟ أن تمسح وجنتَها بأصابعك؟ أن تحتويها بين ذراعيك وتضمّها؟ احتمالاتٌ كثيرةٌ جدًّا، ووقتٌ قصيرٌ جدًّا لكي تختار. كيف لك أن تقرأ رغباتِ الآخر، كيف تدخل أفكار شخص تكاد لا تعرفه؟ لم أشأ أن أنفِّرها بحركةٍ أبكر ممّا يجب، لكنّي في المقابل لم أردْ أن تَفْهم أنّني كنتُ من النوع الخجول الذي لم يَعرف ما يريد. في منتصف الطريق، ارتجلتُ ما يلي: وضعتُ يديَّ على كتفيها، مائلاً للأمام مع انحناء (الانحناء لأنّها كانت أقصرَ منّي)، وضغطتُ بشفتيّ على شفتيها ـ إلى حدّ ما بقوّة. لا تدخُّلٌ للسانٍ، ولا احتواءٌ مغرقٌ في العناق، بل قبلةٌ مُحكَمةٌ طيّبةٌ عوّضتْ من كلّ ذلك. سمعتُ همهمةً تندّ من حنجرة سونيا، صوتَ «م» خافتَ الوجيف، م م م م، ثم تقَطُّعًا طفيفًا لأنفاسها، تغيُّرًا في طبقات الصوت، وشيئًا يُشْبه ضحكةً. تراجعتُ، رأيتُ أنّها كانت تبتسم، وأحطتُها بذراعيّ. بعد وهلة، كانت ذراعاها تحيطانني، ثم رحتُ في قبلةٍ حقيقيّةٍ، قبلةٍ فرنسيّة، قبلةٍ فرنسيّةٍ مع الفتاة الفرنسيّة التي غدتْ فجأةً صاحبةَ الحظوة الوحيدة منذ ذلك الحين. قبلةٍ واحدة، لكنّها طويلة. وبعدها، إذ لم أرد أن أشطّ أكثر، ألقيتُ تحيّة المساء واتّجهتُ نحو الدَّرج.

ـ Pas mal, mon ami.[1]

ـ قبلة لكلّ العصور.

ـ الآن أحتاج درسًا في علم الاجتماع. نحن نتحدّث عن سنة ألف وتسعمائة وخمس وخمسين. ومن خلال كلّ ما سمعتُ وما

---

(١) عبارة فرنسيّة، تعني بالعربيّة: مِشْ بَطّال، يا صديقي.

قرأتُ، لم تكن الخمسينيّاتُ الوقتَ الأمثلَ بالنسبة إلى الشباب. أنا أتحدّث عن الشباب والجنس. هذه الأيّام يبدأ الأولاد الجنس في مراهقتهم، وإلى أن يبلغوا العشرين، يغدون محترفين عتيقين فيه. وهكذا أنت في العشرين. انتهى لقاؤك بسونيا بقبلةٍ حرّى، ظافرة. من الواضح أنّ كلاًّ منكما شَعَرَ برغبةٍ محمومةٍ تجاه الآخر. لكنّ حكمة الزمن السائدة آنذاك كانت تقضي: لا جنس قبل الزواج، على الأقلّ بالنسبة إلى الفتاة. لم يتسنَّ لك الزواجُ إلاّ سنة ألف وتسعمائة وسبع وخمسين. لن تقول لي إنّك بقيتَ مكبوتًا طيلة السنتين. أحصل ذلك؟

ـ طبعًا لا.

ـ هذا يبعث على الارتياح.

ـ الرّغبة الجنسيّة ثابتٌ إنسانيّ، المحرِّكُ الذي يقود العالم. وفي تلك الأيّام نفسها، في الحقبة السوداء منتصفَ القرن العشرين، كان الطلبة يتناكحون كالأرانب.

ـ جدّي، يا لها من لغة!

ـ ظننتُ أنّك ستتفهّمينها.

ـ كذلك بالضبط، أتفهّمها.

ـ في المقابل، لن أدّعي أنّه لم يكن ثمّة الكثيرُ من الفتيات اللواتي آمنَّ بأسطورة العروس العذراء: إنّهنّ بناتُ الطبقة الوسطى في الغالب، ما يمكن أن يُسمَّينَ فتياتٍ صالحات. ولكن يجب ألاّ نبالغ. القابلةُ التي ولّدتْ أمَّكِ في سنة ألف وتسعمائة وستين كانت

طبيبة لعشرين عامًا؛ وبينما كانت تخيط الخزعَ المهبليّ بعد مولد ميريام، طمأنتني بأنّها ستقوم بعملها على أكمل وجه. قالت إنّها كانت خبيرةً باستعمال الإبرة، بسبب المران الطويل: رَتْقِ البنات استعدادًا لليلة الزفاف لكي تجعل الأزواج يعتقدون بأنّهم تزوّجوا من عذراوات.

ـ هذه الأشياء التي لا أعرفها...

ـ تلك كانت الخمسينيّات. الجنس في كلّ مكان، لكنّ الناس غضّوا الأبصارَ وأقنعوا أنفسَهم بأنّه لم يكن يحدث. في أميركا على أيّة حال. إنّ ما جعل الأمورَ تختلف معي ومع جدّتك هو كونها فرنسيّة. هناك نفاقٌ لا حدود له في الحياة الفرنسيّة، لكنّ الجنس ليس جزءًا منه. عادت سونيا إلى باريس في سنّ الثانية عشرة، وبقيت هناك حتى التاسعة عشرة. كانت تربيتها متطوّرةً بدرجات عن تربيتي، وكانت مؤهَّلة لفعل ما قد يَجْعل الفتياتِ الأميركيّاتِ يَزعقن ويُطاح بهنّ خارج الفراش.

ـ مثل ماذا؟

ـ استعملي خيالَكِ، يا كاتيا.

ـ لن يكون بمقدورك أن تَصْدمني، كما تعلم. ذهبتُ إلى سارا لورانس، هل تَذْكر؟ عاصمةِ الجنس في العالم الغربيّ. وقد فعلتُ ما يطيبُ لي في الجوار. صدِّقني!

ـ في الجسدِ عددٌ محدودٌ من الفتحات. فلنقلْ إنّنا قد استكشفناها جميعًا واحدةً واحدة.

ـ بمعنى آخر، كانت جدّتي بارعةً في الفراش.

ـ إنّه توصيفٌ قاصر، لكنْ فلأقلْ نعم، كانت بارعة. جَموحة، مطمئنّة في جسدها، حسّاسة إزاء ما يتعلّق بتقلّبات مشاعرها وانحرافاتها. في كلّ مرّة مارسنا فيها الحبَّ، بدا مختلفًا عن المرّة السابقة. ضاريًا ودراماتيكيًّا يومًا، هادئًا وكسولاً في التالي. الدهشة في كلِّ ما حمل، فوارق بسيطة لامتناهية...

ـ أتذكّر يديها، نعومةَ يديها عندما كانت تلمسني.

ـ يدان ناعمتان، نعم. لكنّهما قويّتان أيضًا. يدان حكيمتان. هكذا اعتدتُ أن أفكّر فيهما. اليدان اللتان يمكن أن تتكلّما.

ـ هل عشتما معًا قبل أن تتزوّجا؟

ـ لا، لا، لم يكن ذلك واردًا. كان علينا أن نختلس لقاءاتنا دائمًا. وكان لذلك جوانبُ مثيرةٌ، لكنّه في أغلب الأحيان كان محبِطًا. كنتُ لا أزال أعيش مع والديّ في واشنطن هايتس، لذلك لم يكن لديّ مكانٌ خاصٌّ بي. وكانت لسونيا شريكتاها في السكن. ومع أنّنا كنّا نذهب إلى هناك عندما تكونان في الخارج، فإنّ ذلك لم يكن يحصل بما يكفي لكي يرضينا.

ـ ماذا عن الفنادق؟

ـ تتجاوز إمكانيّاتِنا. وإنْ تمكّنّا من تأمين أجرتها، ففي الأمر مخاطرة. مع ذلك ففي نيويورك قوانينُ حَظّرتْ على كلّ شخصين غير متزوّجين أن يجتمعا في غرفةٍ واحدةٍ. كان هناك مفتّشٌ في كلّ فندق ـ مفتّش الدار ـ وإذا قُبِض عليك، فستُلقين في السجن.

ـ جميل.

ـ ما العمل إذن؟ عاشت سونيا في پرينستون طفلةً، ولم تزل تحتفظ ببعض الصداقات هناك. كان هناك ثنائيٌّ ـ آل غونتورسكي، لن أنساهما أبدًا ـ أستاذ فيزياء وزوجته، لاجئان من بولندا، أحبّا سونيا ولم يباليا بالتقاليد الجنسيّة الأميركيّة. أتاحا لنا البقاءَ في غرفة الضيوف كلَّ نهاية أسبوع. ومن ثم كان هنالك الجنسُ في الخارج، جنسُ الطقس الدافئ بين الحقول والمروج خارج المدينة. عامل مخاطرة كبير. أخيرًا اكتشَفَنا أحدُهم عارييْن بين الشجيْرات، فخفنا، ثم توقّفنا عن المجازفة. من دون آل غونتورسكي، كُنّا سنحيا في جحيم.

ـ لماذا لم تتزوّجا في تلك الأثناء، وأنتما لا تزالان طالبَين؟

ـ السَّحْبُ العسكري. لحظةَ تخرّجتُ من الجامعة، كنتُ في انتظار استدعائي إلى الفحص الطبّيّ، وقد كان في حسباننا أنّني قد أُلزم بقضاء سنتين في الجيش. كانت سونيا قد احترفت الغناءَ وأنا في سنتي النهائيّة، فماذا سيحْصل إذا أرسلوني إلى ألمانيا الغربيّة أو غرينلاند أو كوريا الجنوبيّة؟ لم يكن بوسعي أن أطلب إليها اللحاقَ بي. لن يكون في ذلك شيءٌ من الإنصاف.

ـ لكنّك لم تكن في الجيش قطّ، لم تكن فيه عندما كنت متزوّجًا في سنة ألف وتسعمائة وسبع وخمسين.

ـ أخفقتُ في الفحص. تشخيص كاذب، كما تبيّن ـ لكنْ لا يهمّ؛ فقد أصبحتُ طليقًا، وبعد ذلك بشهر كنّا متزوّجين. لم نكن نملك الكثير من المال، بالطبع، لكنّ الوضع لم يكن بائسًا تمامًا.

كانت سونيا قد تركتْ جويليارد وبدأتْ تمارس مهنتها، وحين أنهيتُ الجامعة كنتُ قد نشرتُ ما يقارب الاثنتي عشرة مادّةً بين مقالٍ ومراجعة كتاب. استأجرنا شقّةً قرب سكّة حديد في تشلسي بعقدٍ باطنيّ. تعرّقنا في الصيف النيويوركي. ومن ثم، اختير باتريس، المهندسُ المدنيّ، وأخو سونيا الأكبر، لبناء سدّ في مكانٍ ما في أفريقيا، وعرض علينا شقّته الباريسيّة بلا مقابل. طرنا فرحًا. ولحظةَ تلقّينا البرقيّةَ منه، بدأنا بحزم حقائبنا.

ـ لستُ مهتمّةً بالعقارات، وأنا بطبيعة الحالِ ملمّةٌ بأعمالك. أريدك أن تخبرني الأشياء المهمّة. ماذا كانت تُشْبه؟ كيف كنتَ تشعر أثناء زواجك بها؟ إلى أيّ درجةٍ انسجمتما؟ هل حدث وتشاجرتما؟ [أريد] المشاكل والحلول، يا جدّي، لا سلسلة الوقائع الظاهريّة وحدها.

ـ حسنًا، فلأنتقلْ من هذا الهراء ولأفكّرْ للحظة. ماذا كانت سونيا تشبه؟ ما الذي اكتشفتُه فيها بعد زواجنا ممّا لم يكن معروفًا قبله؟ تناقضات. تعقيدات. قتامٌ تكشَّفَ ببطءٍ مع مرور الوقت جعلني أعيد النظرَ في مَن كانت. أحببتُها بجنون، يا كاتيا، عليكِ أن تفهمي ذلك، وأنا لا أنتقدُها لأنّها كانت ما كانت. كان يجب عليّ فقط أن أعرفَها بشكلٍ أفضل. لقد توصّلتُ إلى إدراك حجم الألم الذي اختزنتْه داخلها. من أيّة زاوية نظرتِ إلى جدّتك، وجدتها شخصيّةً استثنائيّةً، رقيقة، طيّبة، وفيّة، متسامحة، مفعمة بالروح، ذات طاقة هائلة على الحبّ. لكنّها كانتْ تنقلب بين الفينة والأخرى، أحيانًا في منتصف المحادثة، لتَنظر ساهمةً في الفراغ،

بذلك التعبير الحالم في عينيها، وكأنّها لم تعد تعرفني. باديَ الأمر، تخيّلتُ أنّها كانت تمعن في التفكير في مسألة عويصة، أو تتذكّر شيئًا حدث معها. لكنْ عندما سألتُها أخيرًا عمّا كان يدور في خَلدها في تلك اللحظات، ابتسمتْ لي ولم تقل شيئًا. كأنّما وجودُها برمّته كان سيَؤُول إلى فراغ، وستفقد التّماسّ مع ذاتها ومع العالم. كانت كلُّ غرائزها ودوافعها في ما يخصّ البشر الآخرين عميقةً، خارقةَ العمق، لكنّ علاقتها بذاتها ضحلةٌ بشكلٍ يدعو إلى الاستغراب. كانت تتمتّع بذكاءٍ جيّد، لكنّها لم تتمتّع بأرضيّةٍ ثقافيّة، وكانت تجد صعوبةً في تتبّع سلسلة الأفكار، ولم تستطع التركيز على أيّ شيء لفترة طويلة، باستثناء موسيقاها، التي كانت أهمّ شيء في حياتها. آمنتْ بموهبتها، وفي الوقت نفسه عَرفتْ حدودَ مقدرتها، فرفضتْ تحدّي المقطوعات التي شعرتْ بأنّها تتجاوز قدرتَها على تأديتها بشكلٍ لائق. أُعجبتُ بصدقها، لكنْ كان هناك شيءٌ ما محزنٌ في هذا الصدق، كأنّها اعتبرت نفسها في الدرجة الثانية، محكومًا عليها أن تكون مجرّدَ درجةٍ أو في المرتبة الثالثة من بين الأفضل. لذلك لم تؤدِّ أيّة أوبّرا. أدّتْ الليدَر، العمل ضمن مجموعة المغنّين في المقطوعات الكوراليّة، التي لم تتطلّب الإنشادَ الأنثويّ المنفرد ـ لكنّها لم تطمحْ إلى أكثر من ذلك. هل تشاجرنا؟ طبعًا تشاجرنا. كلُّ الأزواج يتشاجرون، لكنّها لم تكن أبدًا شرسةً ومتصلّبةً حين يقع الخصام. كانت في أغلب الوقت، وعليّ الاعتراف، على حقّ في انتقاداتها لي. وكامرأةٍ فرنسيّة، انتهت إلى أن تكون طبّاخةً متواضعةً نوعًا ما، لكنّها أحبّت الطيّبَ من الطعام، ولذلك كنّا نأكل في المطاعم في كثير من

الأحيان. ربّةُ منزلٍ من الدرجة الوسطى، بلا أدنى ميلٍ إلى المقتنيات ـ أقول ذلك على سبيلِ الإطراء. ولكنّها كانت شابّةً جميلةً، ذات جسدٍ أخّاذٍ. لم تعتنِ بملبسها بشكل مميّز. أحبّت الملابس، ولم يبدُ أنّها اختارت اللائق منها. ولأكن صريحًا، كنت أحسّ أحيانًا بالوحدة معها، وحيدًا في العمل، إذ كنتُ أقضي جلّ وقتي في القراءة والكتابة عن الكتب. لم تكن تقرأ الكثير، وما قرأتْه وجدتْ صعوبةً في الحديث عنه.

ـ أخْلصُ إلى انطباع أنّك شعرتَ بالخيبة.

ـ لا، ليس شعورًا بالخيبة. إنّه أمرٌ بعيد كلَّ البعد عن ذلك. عروسان يتكيّف كلٌّ منهما تدريجيًّا مع نقاط ضعف الآخر؛ إنّها مكاشفاتُ الحميميّة. إجمالاً، كانت أيّامًا سعيدة بالنسبة إليّ، بالنسبة إلينا معًا، من دون شكاوى تُذكر من قبل الجانبين. وبعدها انتهى بناءُ السدّ في أفريقيا، وعدنا إلى نيويورك وسونيا حاملٌ في شهرها الثالث.

ـ أين سكنتما؟

ـ ظننتُ أنّك لستِ معنيّةً بالعقارات.

ـ هذا صحيح، لست معنيّةً. أسحبُ السؤال.

ـ أماكن عديدة على مدى سنوات. لكنْ عندما وُلدتْ أمّكِ، كانت شقّتُنا تقع غربيَّ الشارع الرابع والثمانين، على مقربةٍ من جادّة ريفرسايد، أحدِ أكثرِ الشوارع تعرّضًا للريح في المدينة.

ـ أيّ نوعٍ من الأطفال كانت؟

ـ سهلة وصعبة. تزعق وتضحك. كانت متعة كبيرة، وألمًا مبرّحًا في الشرج.

ـ بمعنًى آخر، طفل.

ـ لا، بل طفلةُ الأطفال. لأنها كانت *طفلتَنا*، و*طفلتُنا* لم تشبه أيَّ طفلٍ آخر في العالم.

ـ كم بقيتْ جدّتي على حالها قبل أن تعود إلى الغناء؟

ـ أخذتْ إعفاءً من السفر لمدّة سنة، لكنّها عادت إلى الغناء من جديد عندما كانت ميريام لا تتجاوز الأشهر الثلاثة. تعرفين كم كانت أمًّا طيّبة ـ لا بدّ أنّ أمّك أنتِ قد قالت لك ذلك مائة مرّة. لكنّها كانت مرتبطة بعملها، الذي كانت قد خُلقتْ لتقوم به. ولم أحلم أبدًا بأن أحاول ثنيَها. وعلى الرّغم من ذلك، كانت لديها شكوكُها، خصوصًا في البداية. ذات يوم، عندما كانت ميريام في الشهر السادس تقريبًا، خطوتُ باتّجاه غرفة النوم. هناك كانت سونيا جاثيةً على ركبتيها لصقَ الفراش. الكفّان ملتصقتان، الرأس مرفوع، تدمدم في نفسها بالفرنسيّة. كانت فرنسيّتي حينها جيّدة جدًّا، وفهمتُ كلَّ ما قالته. ويا لدهشتي، فقد تبيّن لي أنّها كانت تصلّي! إلٰهي الحبيب، أشِرْ إليّ بما أنا فاعلة بابنتي الصغيرة. إلٰهي الحبيب، املإِ الخواءَ في داخلي وأَرْشِدني كيف أحِبُّ، وكيف أتجمّل بالصبر، وأَهَبُ نفسي للآخرين. بدت مثل طفلة، طفلة صغيرة، بسيطة، ويجب أن أقول إنّني كنتُ إلى حدّ ما مقصودًا بها ـ لكنْ أيضًا مُحرَّضًا، مُحَرَّضًا بعمق. كانت كما لو أنّ بابًا قد انفتح، فإذا بي أنظر إلى سونيا جديدةٍ، شخصيّةٍ مختلفةٍ عن التي

عرفتُها طوال السنوات الخمس الماضية. حين انتبهتْ إلى وجودي في الغرفة، استدارت وأولتني ابتسامةً مليئةً بالإحراج. آسفة، قالت، لم أكن أريدك أن تَعْلم. دنوتُ من السرير وجلستُ. لا تتأسّفي، قلتُ لها. أنا فقط في حيرة، لا أكثر. بعد ذلك تحدّثنا مطوّلاً، لساعة على الأقلّ، جلسنا جنبًا إلى جنب على السرير، نناقش خفايا روحها. شرحتْ لي سونيا كيف بدأ ذلك في نهايات حملها، أواسطَ الشهر السابع. كانت تسير في الشارع ذاتَ ظهيرةٍ في طريق عودتها إلى البيت، عندما رفَّ شعورٌ بالغبطة في داخلها على حين غرّة، غبطة غامرة، لا يُفهم كنهُها، كأنّ الكون بكلِّيّته كان يندفق إلى جسدها، قالت. وفي تلك الوهلة وعتْ بأنّ كلّ شيء مرتبطٌ بكلّ شيء آخر، أنّ كلّ إنسان في العالم مرتبط بكلّ إنسان آخر في العالم، وأنّ تلك القوّة المُلْزِمة، تلك الطاقة التي أَحكمتْ كلَّ شيء وكلَّ إنسان معًا هي الله. تلك كانت الكلمةَ الوحيدةَ التي وردتْ إلى ذهنها. الله. ليس الله اليهوديّ أو المسيحي، ليس إلٰه أيّ دين، بل الله كحضور يبثّ النبضَ في سائر الحياة. منذ ذلك الحين بدأتْ تخاطبه، قالت، مؤمنةً بأنّه يمكن أن يسمع ما كانت تقوله. وهذه المناجاة، هذه الصلوات، هذه الابتهالات ـ سمِّيها ما شئتِ ـ طالما بعثتِ الطمأنينةَ فيها، طالما أعادتها وذاتَها إلى الصراط المستقيم مرّةً تلو الأخرى. كان ذلك يجري طوال الأشهر التي مضتْ، لكنّها لم تشأ أن تخبرني مخافةَ أن أظنّ أنّ بها مسًّا. كنتُ أكثرَ ذكاءً ممّا كانت، بالغَ السموّ تجاهها حينما تعلّق الأمرُ بالمسائل الذهنيّة ـ والكلام لها، لا لي. كما كانت قلقةً أن أنفجر بالضحك على زوجتي الجاهلة لو قالت

لي إنّها وجدت الله. لم أضحكْ. أنا الوثنيّ، لم أضحكْ. لسونيا طريقتها الخاصّة في التفكير وطريقتُها الخاصّةُ في فعل الأشياء. ثمّ مَن أنا لكي أسخَر منها؟

ـ عرفتُها طوال حياتي، لكنّها لم تتطرّقْ إلى الله، ولا مرّةً واحدة.

ـ ذلك لأنّها توقّفت عن الإيمان. عندما انهار زواجُنا، شعرتْ بأنّ الله قد تخلّى عنها. كان ذلك منذ أمدٍ طويل، يا ملاكي، قبل أن تولدي بزمن طويل.

ـ جدّتي المسكينة.

ـ نعم، جدّتك المسكينة.

ـ لديّ رأي في زواجكما. أنا وأمّي تكلّمنا عنها، وهي تميلُ إلى رأيي، لكنّني أريد التأكّد، أريد الخلاصةَ الجوّانيّةَ من فم الحصان. ما يكونُ ردُّك إذا قلتُ: إنّ الطلاق بينك وبين جدّتي وقع بسبب مهنتها؟

ـ سيكون ردّي: هراء.

ـ حسنًا، لم أقصدْ مهنتَها في حدّ ذاتها، بل واقعُ أنّها كانت تُكثر من السفر.

ـ سأقول إنّكِ كدتِ تلامسين العلّة ـ لكنْ كسببٍ غير مباشر، كعاملٍ ثانويّ.

ـ تقول أمّي إنّها كرهتْ سفرَ جدّتي. كانت تنهار وتبكي، قد

تصرخ، قد تتضرّع إليها أن لا تسافر. مشاهدُ هستيريّة... غمٌّ خالص... هجرٌ يليه هجر...

ـ حصل ذلك مرّةً أو اثنتين، لكنّني لم أضخّم الأمرَ أكثرَ ممّا يجب. عندما كانت ميريام صغيرة، فلنقلْ بين السنة الأولى والسادسة، لم تغب سونيا أكثرَ من أسبوع في المرّة الواحدة. وكانت والدتي تنتقل لتمكث معنا وترعاها. ومضت الأمورُ بسلاسةٍ إلى حدّ ما. كانت لوالدة جدّك موهبةٌ في التعامل مع الصغار. ولقد تفانت في حبّ ميريام ـ التي كانت حفيدتَها الوحيدة ـ ولم تكن ميريام تصدّق متى تأتي. الآن أستعيدُ كلَّ شيء... الأشياءَ الخفيفةَ الظلّ التي كانت تقوم بها أمُّكِ. عندما كانت في الثالثة أو الرابعة، أصبحتْ مأخوذةً بثديَيْ جدّتها. عليّ أن أقول، كانا ضخمين جدًّا. ففي حين تحوّلتْ أمّي إلى امرأة مكتنزة نوعًا ما حينذاك، كانت سونيا نحيلةً من الأعلى، بثديَيْ مراهقة صغيريْن امتلآ عندما كانت تُرضع ميريام. لكنْ بعد أن فُطِمتْ أمّك، عادا أصغرَ ممّا كانا عليه قبل الحمل. كان الفرق صارخًا جدًّا، ولم تستطعْ ميريام إلاّ أن تَلْحظه. كان لأمّي صدرٌ مهول، أكبرَ بعشرين مرّةً من صدر سونيا. في صباح أحد أيّام السبت، كانت تجلس وميريام على الصوفا تتفرّجان على الرسوم المتحرّكة. ظهر إعلانٌ عن البيتزا، وانتهى بكلمات: «الآن، هذه هي البيتزا!» بعد لحظة، استدارت أمُّكِ نحو أمّي، وعضّتْ بفمها صدرَ جدّتها الأيمن وهي تصرخ: «الآن، هذه هي البيتزا!» ضحكتْ أمّي بشدّة. أفلتتْ ضرطةً، ضرطةً كنفخ مدوٍّ من بوق. وهذا ما جعل ميريام تضحك بجنون، حتى بالتْ في سروالها. نطّت عن الصوفا وبدأتْ تجري في أنحاء الغرفة، تهتف

بأعلى صوتها: «ضرطة ـ بَول، ضرطة ـ بَول، وي، وي، وي»!

ـ أنت تخترع ذلك.

ـ أبدًا، لقد حدث ذلك بالفعل، أقسم إنّه حدث. السبب الوحيد الذي جعلني أذكرهُ هو لكي أبرهن لكِ أنّ الغمّ لم يكن دائمًا سيّد البيت عندما كانت تغيب سونيا. لم تكن ميريام تنقِّبُ المكانَ وهي تشعر بأنّها مُهْمَلَة على طريقة أوليڤر تويست. في معظم الأوقات كانت على ما يُرام.

ـ وماذا عنك؟

ـ تعلّمتُ أن أتعايش مع ذلك.

ـ يبدو جوابًا مراوغًا.

ـ كانت هناك أوقاتٌ مختلفة، وأطوارٌ مختلفة، ولكلّ منها طبيعتُه الخاصّة. في البداية، كانت سونيا غامضة نسبيًّا. أدّتْ بعضَ الغناء في نيويورك قبل انتقالنا إلى باريس، لكنْ كان عليها أن تبدأ من الصفر في فرنسا، وبعدها ـ بالضبط عندما بدأتِ الأمورُ تتحسّن نسبيًّا ـ عدنا إلى أميركا، وكان عليها أن تبدأ بدايةً جديدة. في نهاية المطاف، كان كلُّ شيء يصبّ في صالحها، من حيث إنّها كانت معروفةً هنا وفي أوروبا. لكنّها استغرقتْ وقتًا طويلاً لكي تصل إلى مكانة مرموقة. جاءت نقطةُ التحوّل في سنة سبع وستّين أو ثمانٍ وستّين، عندما وقّعتْ عقدًا لإتمام تلك التسجيلات مع نونسَتْش، لكنْ حتى ذلك الحين لم تكن تُكْثر من السفر إلى هذه الدرجة. كنتُ مشتّتًا حيال ذلك. فمن جهة، كنتُ سعيدًا لأجلها

كلّما حجزتْ تذكرةَ سفرٍ للغناء في مدينة جديدة. ومن جهة أخرى ـ تمامًا مثلَ أمّك ـ كرهتُ أن أراها تسافر. كان الخيار الأوحد أن أتعوّد التعايشَ مع الوضع. تلك ليست مراوغةً، بل واقعٌ.

ـ كنتَ وفيًّا. . .

ـ كلّيًّا.

ـ ومتى بدأتَ تنزلق؟

ـ *أتُوْهُ* هي الكلمةُ التي تُقال في هذا السياق.

ـ أو *تزلُّ*. هناك دلالةٌ روحيّةٌ تقترن بهذا الفعل وهي ما يجعله الأنسب.

ـ حسنًا، *أزلُّ*. في ألف وتسعمائة وسبعين، كما أظنّ. لكنْ لم يكن هناك أيُّ شيء ذي بُعدٍ روحيّ. الجنس كان كلّ ما في الأمر، الجنس الصّرف ببساطة. حلّ الصيفُ، وسافرتْ سونيا في جولة ثلاثة أشهر إلى أوروبا ـ مع أمّك، بالمناسبة. وها صرتُ وحيدًا، في الخامسة والثلاثين من عمري. الهرموناتُ تجأر بإلحاح، بلا امرأة في نيويورك. اشتغلتُ بأقصى طاقتي كلّ يوم، لكنّ الليالي كانت خاويةً، راكدةً، وبلا لون. بدأتُ أخرج مع شلّةٍ من صحافيّي الرياضة، معظمُهم ممّن يُكْثرون الشرب، نلعب البوكر حتى الثالثة فجرًا، نقصدُ البارات، لا لأنّني أحببتُ أيًّا منهم على وجه التخصيص، بل لأنّه كان هناك شيءٌ أفعله، كما أنّي احتجتُ إلى رفقةٍ صغيرةٍ بعد قضاء اليوم بطوله وحيدًا. ذاتَ ليلة، بعد جلسة سُكْرٍ في بار، كنتُ متّجهًا إلى البيت من وسط البلدة إلى غربيّ

مانهاتن العليا، فوقع نظري على مومس تقف في مدخل بناية. وحدثَ أنّها فتاة جذّابة جدًّا، وكنتُ ثملاً بما يكفي لأن أَقْبل عرضَها بقضاء وقتٍ ممتع. أأزعجكِ الآن؟

ـ بعض الشيء.

ـ لم يكن في نيّتي أن أعطيك أيّةَ تفاصيل. فقط المجرى العامّ.

ـ لا بأس. إنّها غلطتي أنا. لقد حوّلتُها إلى *ليلة الحقيقة في قلعة اليأس*، وها نحن بدأنا الآن، ولذلك علينا أن نمضي حتى النهاية.

ـ إلى الأمام إذًا.

ـ نعم، أكملِ القصّة.

ـ وهكذا نلتُ الوقتَ الممتع، الذي لم يكن وقتًا ممتعًا البتّة، لكنْ بعد النوم خمسة عشر عامًا مع المرأة نفسِها وجدتُ فتنةً في أن ألمسَ جسدًا آخر، أن أتحسّس جلدًا مختلفًا عن الذي عرفتُه. كان ذلك هو الاكتشاف في تلك الليلة: جِدَّة أن أكونَ مع امرأةٍ أخرى.

ـ هل شعرتَ بالذنب؟

ـ لا. اعتبرتُها تجربة. فلأَقُلْ، درسًا تعلّمْتُه.

ـ رأيي صحيح إذًا. لو كانت جدّتي في البيت في نيويورك، لما كنتَ دفعتَ للفتاة لكي تنامَ معك.

ـ في تلك الحالة الخاصّة، نعم. لكنْ كان وراء فشلنا ما هو أبعدُ من الخيانة، أبعدُ من تغيّب سونيا المتكرّر. فكّرتُ في ذلك لسنوات، والتفسيرُ الوحيد نصفُ المنطقيّ الذي خرجتُ به هو أنّ

ثمّة خللاً بي، صَدْعًا في تكويني، جزءًا معطوبًا يعوِّق مجملَ أدائي. أنا لا أتكلّم عن النقيصة الأخلاقيّة. أنا أتكلّم عن العقل، بنيتي الذهنيّة. أشعرُ أنّي الآن أفضل، كما أظنّ؛ فلقد بدا أنّ المشكلة أخذتْ في التضاؤل كلّما تقدّمتُ في العمر. لكنْ في ذلك الحين، في سنّ الخامسة والثلاثين، الثامنة والثلاثين، الأربعين، كنتُ أجولُ وإحساسٌ يداخلني بأنّ حياتي لم تكن أبدًا تنتمي إليّ بشكل حقيقيّ، بأنّني لم أسكنْ نفسي أبدًا بشكل حقيقيّ، بأنّني لم أكن أبدًا حقيقيًا. ولأنّني لم أكن حقيقيًّا، فإنّني لم أستوعب الوقعَ الذي أتركه في الآخرين، الأذى الذي قد أتسبّب فيه، الألَمَ الذي قد أُلحقه بالناس الذين أولوْني الحبَّ. كانت سونيا البَرَّ بالنسبة إليّ، ارتباطي الوحيدَ الصّميمَ بالعالم. أن أكون معها جعلني في حالٍ أفضل ممّا كنتُ عليه في الواقع ـ أكثرَ عافيةً، أقوى، أعقل. وبما أنّنا بدأنا حياتنا المشتركة عندما كنّا في أوّل الشباب، فقد تخفّى الصَّدْعُ طوال تلك السنوات، وحسبتُ أنّني غدوتُ مثلَ الآخرين. لكنّني لم أكن كذلك لحظةَ بدأتُ أنفرُ منها، سقطتِ الضمادةُ عن جرحي، ومنذ ذلك الحين لم يتوقّف النزيف. سعيتُ وراء النساء الأخريات لأنّني شعرتُ أنّ ثمّة شيئًا ما قد فاتني وأنّ عليّ تعويضَ الوقت الذي ضاع. أنا أتحدّث الآن عن الجنس، الجنس، لا أيّ شيء آخر. لكنْ لا يمكنكِ أن تتهتّكي كما فعلتُ ثم تأملي أن يكون زواجُكِ متماسكًا. لقد خدعتُ نفسي حين فكّرتُ أنّ ذلك ممكن.

ـ لا تَقْسُ على نفسكَ إلى هذه الدرجة، يا جدّي. لقد استعادَتْك، ألا تتذكّر؟

ـ أعرف. . . لكنْ كلّ هاتيك السنوات التي هُدرتْ! يؤسيني أن أفكّر فيها. عبثي واندفاعي الأعميان. ماذا أجديا؟ قليلاً من الإثارة الرخيصة، لا شيء ذا أهمّيّة. لكنْ لا مناص من أنّهما مَهّدا الدربَ أمام ما جاء لاحقًا.

ـ أوونا ماكنالي.

ـ كانت سونيا مغاليةً في ثقتها بي، وأنا كنت مغاليًا في تحفّظي. استمرّت حياتنا معًا بلا أيّة أزماتٍ مفصليّة. هي لم تدرِ، وأنا لم أقل لها، ولم يخطرْ لي لثانيةٍ واحدةٍ أن أتركها. وفي سنة ألف وتسعمائة وأربع وسبعين، كتبتُ عَرضًا عن «حَدْس»، وكانت أوّل روايةٍ لكاتبةٍ أميركيّةٍ شابّة، بقلم المذكورة أعلاه أ.م. شعرتُ أنّه كان كتابًا مدهشًا، مبدعًا متعاليًا كُتبَ بسطوةٍ هائلة، وفَتْحًا قويًّا، واعدًا. لم أكن أعرف شيئًا عن الكاتبة ـ باستثناء أنّها كانت في السادسة والعشرين وتقيم في نيويورك. قرأتُ الكتاب على صفائح الطباعة. وحيث إنّ صفائح الطباعة في السبعينيّات لم تكن تحمل صورة الكاتبة، فإنّني لم أعرف ولو شكلَها. بعد حوالى أربعة أشهر، ذهبتُ لحضور قراءة شعريّة في سوق كتب غوثام (من دون سونيا التي بقيتْ في البيت مع ميريام). وعندما انتهت القراءة وبدأنا جميعًا نزولَ الأدراج، أمسكني أحدهم من ذراعي. أوونا ماكنالي. أرادت أن تشكرني على العرض الذي قدّمتُه لروايتها. كان ذلك نطاق المعرفة، غير أنّي كنتُ مأخوذًا بتقاسيمها ـ طويلة ورشيقة، وجه رائع، الثانية بعد ڤرجينيا بلاين ـ لدرجةِ أنّني دعوتُها إلى احتساء شرابٍ في الخارج. كم مرّةً كنتُ قد خنتُ سونيا حتى ذلك

الحين؟ ثلاث نزواتٍ ليليّةٍ أو أربعًا، وعلاقةً غراميّةً طفيفة لم تكد تدوم أسبوعين. ليست علاقاتي لائحةً على هذا القدْرِ من الشناعة، مقارنةً برجالٍ آخرين، لكنّها كانت تكفي لكي أدرك أنّي مستعدٌّ لاقتناص الفرص متى سنحتْ. غير أنّ تلك الفتاة كانت مختلفة. لا يَسَعُ المرء أن ينام مع أوونا ماكنالي ثم يقول لها «إلى اللقاء» صباح اليوم التالي، بل سيقع في حبّها، وسيريدها أن تكون جزءًا من حياته. لن أبعثَ السأمَ فيكِ بذكر الحيثيّات التافهة، العشاءات السرِّيّة، الأحاديث المسهبة في البارات الخلفيّة، الإغواء المتبادل. لم تُلقِ بنفسها بين ذراعيَّ بهذه السرعة. كان عليّ أن ألاحقَها، أن أكسبَ ثقتها، أن أقنعَها بأنّه يمْكن رجلاً أن يحبّ امرأتين في الوقت ذاته. لم تكن نيّةُ ترك سونيا واردة. أردتُ الاثنتين معًا: زوجتي لسبعة عشر عامًا، رفيقةَ دربي، الساكنةَ في أعمق مكانٍ في قلبي، والدةَ طفلتي الوحيدة؛ وتلك المرأةَ الشابّة الجامحةَ بذكائها المتوقّد، هذه الساحرةَ الشهوانيّةَ، هذه المرأةَ التي استطعتُ أخيرًا مشاركتَها في عملي والتحدُّثَ معها عن الكتب والأفكار. بدأتُ أشبهُ شخصيّةً في روايات القرن التاسع عشر: زوَاجٌ محكَمٌ في صندوق، وآنسةٌ مفعمةٌ بالحياة في صندوق آخر، وأنا، ـ السيّدَ الساحرَ ـ واقفٌ بينهما، متحلّيًا بمهارةٍ ومكرٍ أن لا أفتح الصندوقين في الوقت نفسه. أفلحتُ في تدبّر هذا الأمر لأشهر عديدة. ولم أكن ساحرًا صرفًا؛ كنتُ أيضًا بهلوانًا، أتخطّرُ على امتداد حبليَ العالي، مُراوِحًا كلَّ يومٍ بين النشوة والألم، مُستنبتًا اليقينَ أكثرَ فأكثرَ بأنّني لن أقع.

ـ وبعد ذلك؟

ـ كانون الأوّل/ ديسمبر سنة ألف وتسعمائة وأربع وسبعين، بعد عيد الميلاد بيومين.

ـ وقعتَ.

ـ وقعتُ. في تلك الليلة قدّمتْ سونيا تلاوةً منفردةً من شوبيرت على تقاطع الثاني والتسعين مع جادّة Y، وعندما عادت إلى البيت أبلغتني أنّها عرفتْ.

ـ كيف اكتشفت الأمرَ؟

ـ لم تقل. لكنّ كلّ قرائنها كانت صحيحة، ولم أرَ ما يدعو إلى نكرانها. الشيء الذي أتذكّره على أكمل وجه عن هذه المحادثة هو شدّة تماسكها ـ على الأقلّ حتى النهاية، حين توقّفتْ عن الكلام. لم تبكِ أو تصرخ، لم تنفعل، لم تلكمْني أو تقذفْني بأشياء عبر الغرفة. «عليك أن تختار، قالت. أنا مستعدّة لأن أسامحك، لكنْ يجب أن تذهبَ إلى هذه الفتاة وتقطعَ العلاقَة الآن. لا أدري بالضبط ما الذي سَيَحْدث معنا، لا أدري إنْ كنّا سنعود من جديد كما كنّا. الآن، أشعرُ وكأنّكَ طعنتني في الصميم واجتثثتَ قلبي. قد قتلتَني، يا أوغست. أنت تنظر إلى امرأةٍ ميتةٍ، والسببُ الوحيدُ لنيّتي التظاهرَ بالحياة هو أنّ ميريام تحتاج أمَّها. لقد أحببتكَ دائمًا، دائمًا ظننتُ أنّكَ رجلٌ ذو روح عظيمة. لكنْ يظهر أنّك مجرّد خراءٍ، كذّابٍ آخر. كيف سمحتَ لنفسكَ أن تفعلها، يا أوغست؟»... ثم تهدّج صوتها، ووضعتْ رأسَها بين يديها وأخذتْ بالبكاء. جلستُ إلى جوارها على الصوفا وأحطتُ كتفَها بذراعي، لكنّها دفعتني عنها. لا تلمسْني، قالت. لا تَقْربني ما لم

تتكلّمْ مع تلك الفتاة. إذا لم تعد الليلة، لا تتعبْ نفسَكَ في أن تعود أبدًا ـ على الإطلاق.

ـ هل عدتَ؟

ـ أخشى أن أقول لا.

ـ بذلك يصبح الأمرُ مثيرًا للاشمئزاز، أليس كذلك؟

ـ سأتوقّف إذا أردتِ. يمكننا دائمًا أن نجد شيئًا آخرَ نتحدّث عنه.

ـ لا، أكملْ. لكنْ دعنا نتخطَّ هذا الموضع، لا بأس؟ ليس عليك أن تحدّثني عن زواجك من أوونا. أعرفُ أنّك أحببتَها. أعرف أنّك مررتَ بأزمةٍ عاصفةٍ خلال زواجك. وأعرف أنّها تركتكَ لتذهب مع الرسّام الألمانيّ، كلاوس، لا أعرف ماذا.

ـ بيرمان.

ـ كلاوس بيرمان. أعرف كم كان ذلك قاسيًا عليك. أعرف أنّكَ شهدتَ فترةً عصيبة.

ـ الفترة الكحوليّة. الويسكي في المقام الأوّل، الويسكي المُمَلَّت مرّةً واحدة.

ـ ولستَ مُرْغَمًا على التحدّث عن مشاكلك مع أمّي. لقد أخبرتني عنها. أمرُها منتهٍ، ولا مبَرّرَ لأن تعيدَها من جديد، هل من مبرّر؟

ـ ليكن ما تقولين.

ـ الشيء الوحيد الذي أريد أن أسمعه هو كيف عدتما بعضكما إلى بعض، أنت وجدتي.

ـ كلّ ما تسمعينه يدور حولها، أليس كذلك؟

ـ هذا ما يجب أن يكون. لأنّها الطرفُ الذي لم يعد هنا.

ـ تسع سنوات من الانفصال، لكنّني لم أنقلبْ ضدَّها. لوعةُ ندمٍ وتبكيت، ازدراءُ الذات، سُمُّ الشكّ الأكّال: كانت تلك هي الأشياء التي قوّضتْ سنواتي مع أوونا. كانت سونيا جدّ لصيقةٍ بي؛ وحتى بعد الطلاق، كانت لا تزال موجودةً لأجلي، لا تزال تتحدّث معي في رأسي: إنّها المرأةُ الحاضرةُ أبدًا الغائبة، كأنّني أناديها أحيانًا في حاضري. طبعًا كنّا على اتّصال، كان يجب أن نكون كذلك، لأجل ميريام: منطق الحضانة المشتركة، ترتيبات نهاية الأسبوع، عطلات الصيف، مناسبات المدرسة والجامعة. وبينما كانت تتكيّف ببطء مع ظروفنا الجديدة، شعرتُ أنّ غضبها تجاهي قد تحوّل إلى نوع من الرثاء. أوغست المسكين، بطل الحمقى. التقتْ رجالاً آخرين. فليمرّ هذا من دون اللجوء إلى قول ***n'est-ce pas?***، أليس كذلك؟ كانت في الأربعين فقط عندما تركتُها. كانت ما تزال متألّقة، ما تزال الصبيّةَ المشرقةَ كما كانت على الدوام. وأظنّ أنّ إحدى ورطاتها تعقّدتْ إلى درجةٍ بالغة الخطورة، علمًا بأنّ أمّكِ ربّما تعرف أكثر منّي عنها. عندما رقصتْ أوونا الفالس مع رسّامها الألماني، شيء ما أوصدني. إشارتُكِ اللبقة إلى *الفترة العصيبة* لن تكفي في وصفِ كم كانت عصيبة. لستُ الآن بصدد التنقيب في تلك الأيّام، أَعِدُكِ؛ لكنْ حتى في ذلك الحين، في

وقت كنتُ أعيش فيه وحدةً مطبقة، لم يحدث لي أن التجأتُ إلى سونيا. كان ذلك في سنة ألف وتسعمائة وإحدى وثمانين. في سنة ألف وتسعمائة واثنتين وثمانين، قبل زفاف والديكِ بشهرين، أَرسلتْ إليّ رسالةً، لا تتعلّق بنا، بل بأمِّك، وفيها تعبّر عن قلقها لأنّ ميريام كانت أحدثَ عمرًا من أن تندفع إلى الزواج، وأنّها على وشك الوقوع في الخطإ الذي ارتكبناه في بدايات العشرين من عمرنا. بصيرة ثاقبة، بالتأكيد، رغم أنّ جدّتك كانت تتدخّل في أشياء كهذه. كتبتُ ردًّا على رسالتها قائلاً إنّها ربّما كانت على حقّ، ولكنّها حتى لو كانت على حقّ، فإنّه لم يعد بوسعنا أن نفعل شيئًا حيال الأمر. لا يمكنك التدخُّلُ في مشاعر الآخرين، وإنْ كانت مشاعرَ ابنتك، والحقيقة أنّ الأبناء لا يتّعظون من عثرات ذويهم. علينا أن نتركهم على مشيئتهم، ونتركهم يشقّون طريقهم في العالم ويقعون في أخطائهم. ذلك كان ردّي، ومن ثم اختتمتُ الرسالةَ بملحوظةٍ مبتذلةٍ نسبيًّا: «الشيء الوحيد الذي يمْكننا فعلُه هو أن نأملَ لهما الأفضل». يومَ الزفاف، خَطَتْ سونيا صوبي وقالت: «آمل لهما الأفضل». لو كان عليّ أن أقتطف ومضةً من بدء صلحنا، لاقتطفتُها، ولعلّقت عليها لحظةَ خاطبتني جدّتُك بتلك الكلمات. كان يومًا مهمًّا بالنسبة إلينا ـ زفاف ابنتنا ـ وكان الهواء مفعمًا بالمشاعر: سعادة، قلق، حنين، مدًى مكتمل من الأحاسيس. ولم يكن أحدُنا في مزاج مَن يحمل الضغائن. كنتُ لا أزال حطامًا في تلك المرحلة، لمّا أتعافَ تمامًا من انكساري مع أوونا، لكنّ سونيا كانت تمرّ في وقتٍ عصيب هي الأخرى؛ فقد كانت تقاعدتْ عن الغناء مؤخّرًا تلك السنة، وكما تبيّن لي لاحقًا

من أمّك (إذ إنّ سونيا لم تشركني أبدًا في سرّ من أسرار حياتها الخاصّة)، فقد كانت انفصلتْ منذ عهد قريب عن رجل ما. وفوق ما حمله كلٌّ منّا، كنّا ذلك اليوم، في حالة جَزْرٍ عميقٍ، وكان للقائنا أن يبعث بعضَ العزاء. محاربان عتيقان خاضا الحرب ذاتها، يَرْقبان ابنتَهما في طريقها إلى أن تخوض هي الأخرى حربَها. رقصنا معًا، تحدّثنا عن الأيّام الخوالي، ولبضع دقائق ربّما تشابكتْ أيدينا. ثم انتهت الحفلة، ومضى كلٌّ إلى بيته. لكنّني أتذكّر ما فكّرتُ به أثناء عودتي إلى نيويورك، وهو أنّ وجودي معها ذلك اليوم كان أجملَ شيء حدث معي منذ وقت طويل. لم أخرج بقرارٍ واعٍ في ما يتعلّق به، غير أنّي - ذات صباح بعد شهر من تاريخه - استيقظتُ وأدركتُ أنّني أريد أن أراها ثانيةً. لا، بل أكثر من ذلك. أردتُ أن أحظى بعودتها. عرفتُ أنّ فُرصي قد تكون واهية، لكنّني عرفتُ أيضًا أنّ عليّ المحاولة. ولذلك اتّصلتُ بها.

- هكذا بكلّ بساطة؟ فقط رفعتَ السمّاعة واتّصلتَ؟

- لم يكن ذلك من دون وجل، أو من دون غصّة في حلقي، وتشنُّجٍ في بطني. كان الاتّصال تكرارًا لامتحان اتّصالي الأوّل بها - منذ سبعة وعشرين عامًا. كنتُ في العشرين مرّةً أخرى، غرًّا متيَّمًا، مضطربًا، يستنجد بشجاعته لكي يتّصل بفتاة أحلامه ويطلبَ إليها الخروج في لقاءٍ غراميّ. لا بدّ أنّني مكثتُ أحدّق في الهاتف لعشر دقائق، لكنْ عندما طلبتُ الرقم أخيرًا، لم تكن سونيا هناك. فُتح المُجيبُ الآليّ. كنتُ بالغَ الارتباك أمام رنين صوتها حتى إنّي أطبقتُ السمّاعة. استرخِ، قلتُ في سرّي، أنت تتصرّف كأبله،

لذلك أعدتُ طلبَ الرقم من جديد وتركتُ رسالةً. لا شيء محدّدًا، مجرّد أنّني وددتُ التحدّث إليها حول أمرٍ ما، أنّني كنتُ أتمنّى أن تكون على ما يرام، وأنّني سأكون موجودًا في البيت طوال اليوم.

ـ هل ردّت على اتّصالك؟ أو هل كان عليك أن تحاول من جديد؟

ـ اتّصلتْ. لكنّ ذلك لم يدلّ على شيء. لم تكن لديها فكرة عمّا أردتُ التحدّث بشأنه. كُلّ ما ظنّته أنّ الأمر يتعلّق بميريام ـ أو بأمرٍ عمليّ، عديمِ الأهمّيّة. على أيّة حال، لاح صوتها هادئًا، متحفّظًا بعض الشيء، لكنْ من دون حدّة. قلتُ لها إنّني كنتُ أفكّر فيها وأردتُ أن أطمئنّ إلى أحوالها. ما زلتُ كما كنتُ، في مكاني، قالت ذلك، أو بكلمات مشابهة الانطباع. قلتُ: كانت فرصةً طيّبةً أن رأيتُكِ في العرس. نعم، أجابت، كان يومًا مميّزًا، وأضافت أنّها أمضتْ وقتًا رائعًا. هكذا راوَحْنا، بمسحة حذرٍ من الجانبين، بكياسةٍ وتحفّظ، من غير أن نتجرّأ على قول المزيد في أيّ أمر. ثم رميتُ فجأةً بسؤالها إنْ كانت تَقْبل دعوتي لها إلى العشاء في أيّة ليلة من ليالي ذلك الأسبوع. *العشاء*؟ وإذ ردّدتِ الكلمةَ، استطعتُ سماعَ عدم التصديق في صوتها. صمتٌ طويل أعقب ذلك، وبعدها قالت إنّها ليست متأكّدة، ستفكّر في الأمر أكثر. لم ألحّ. كان من المهمّ أن لا أوغل في التعجيل. عرفتُها بما فيه الكفاية، ولو بدأتُ الضغطَ عليها، لكانت احتمالاتُ صدِّها واردة. هكذا تركنا الأمر معلَّقًا. قلتُ لها أن تعتني بنفسها وودّعتُها.

ـ ليست بدايةً مبشّرةً إلى هذه الدرجة.

ـ لا. لكنْ كان يمكن أن تكون أسوأ. لم ترفض الدعوة، فقط لم تعرف إنْ كان يتحتّم عليها قبولُها أم لا. بعد نصف ساعة رنّ الهاتفُ مرّةً أخرى. بكلّ تأكيد سأتناول العشاءَ معك، قالت سونيا. اعتذرتْ عن تردّدها، لكنّني تصيّدتها في لحظة غفلةٍ منها، ووقعتْ في ذهولٍ مطبق. هكذا اتّفقنا على موعد عشائنا، وكانت بداية رقصة مديدة ناعمة، دقيقة رغبةٍ، وجلٍ، واستسلام امتدّ ما يزيد عن ثمانية عشر شهرًا. استغرق الأمر كلّ ذلك الوقت قبل أن نبدأ العيش معًا. لكنّنا نجحنا في إضافة إحدى وعشرين سنةً أخرى. رفضت سونيا أن تتزوّجني مرّة ثانية. لا أدري إنْ كنتِ على علم بذلك. لقد عشتُ وجدّتَك في الخطيئة حتى يوم مماتها. قالت إنّ الزواج ربّما قد جلب النحسَ إلى حياتنا. «جرّبناه مرّةً، فانظرْ إلى ما حلَّ بنا، لماذا لا نجرّب أسلوبًا آخر؟». كنتُ سعيدًا بأن ألتزم بقواعدها، بعد أن عانيتُ الأمَرَّين في سبيل استعادتها. تقدّمتُ طالبًا يدها كلَّ عام في عيد ميلادها، لكنّ تلك الالتماسات لم تكن أكثرَ من رسائل مشفّرة، علامةٍ تُفيد بأنّها يمكن أن تمنحني ثقتَها من جديد، أنّها يمْكن أن تواصل ثقتها بي على الدوام. كان هناك الكثيرُ ممّا لم أفهمه فيها، الكثيرُ ممّا لم تفهمه هي في ذاتها. تلك العِشرةُ الثانيةُ كانت مهمّةً شاقّة: رَجُلٌ خطب ودَّ زوجته السابقة، والزوجةُ السابقة لعبتْ بكلّ قواها لكي تكسب، من دون أن تتقدّم قيدَ أنملة، غيرَ مدركةٍ ما كانت تريده، في مدٍّ وجزْرٍ، بين إقبالٍ وإحجام، حتى حصل وسلّمتْ. استغرق الأمرُ نصف سنة قبل أن ننتهي إلى الفراش. المرّة الأولى التي مارسنا فيها الحبَّ، ضحكتْ

حين فرغنا، ثم انهارتْ في واحدةٍ من نوبات قهقهاتها المجنونة التي امتدّتْ طويلاً حتى أُصبتُ بالفزع. المرّة الثانية التي مارسنا فيها الحبَّ، بكتْ، وبقيتْ تَنْشج على المخدّة لأكثر من ساعة. أشياء كثيرة تغيّرتْ فيها. فقدَ صوتُها ميزتَه العصبيّةَ عن التعريف التي جعلتْ منه صوتَها هي، ذلك التّوقَ البلّوريّ، الرقيقَ، للإحساس الذي لا يُكبح، الإلٰه الخبيء الذي تكلّمَ بلسانها ـ كلّ ذلك قد ذهب الآن. وقد أدركتْ ذلك. غير أنّ تركَها لمهنتها كان ضربةً قاصمة، مع أنّها توصّلتْ إلى حلّ وسط في ذلك، إذ قامت بالتدريس حينها، فأعطت دروسًا خصوصيّةً في الغناء في شقّتها. ومرّتْ أيّامٌ كثيرة لم ترغب خلالها في لقائي. لكنّها في أيّام أخرى، ستّتصل في فورةِ يأسٍ: «تعال الآن، يجب أن أراك الآن». ثم ها نحنٍ عاشقان من جديد، ربّما أكثر قربًا واحدنا إلى الآخر ممّا كنّا عليه في المرّة الأولى. لكنّها أرادت أن تبقى حياتنا غير مشتركة. أردتُ أكثر من ذلك، لكنّها لم تكن لتمنحه. كان ذلك هو التّخمَ الذي لم تشأ أن تتعدّاه، وبعد سنة ونصف، حدث شيء ما، وتغيّر كلّ شيء.

ـ ما هو؟

ـ أنتِ.

ـ أنا؟ ماذا تقصد بـ *أنا*؟

ـ يومَ وُلِدْتِ. استقلَلْنا القطار، أنا وجدّتك، إلى نيو هيڤِن، وكنّا هناك لحظةَ دخلتْ أمُّكِ غرفةَ التوليد. لا أريد أن أبالغ أو أبدو عاطفيًّا أكثر ممّا يجب، لكنْ عندما حملتكِ سونيا على ذراعيها

للمرّة الأولى، رمقتني بنظرةٍ سريعة. ولمّا رأيتُ وجهها ـ ها أنا أتلعثمُ هنا، متلمِّسًا الكلمات ـ وَجهها... كان وضّاءً. كانت الدموعُ تتدحرج على وجنتيها. كانت تبتسم، تبتسم وتضحك، وبدا كأنّها كانت مفعمةً بالنور. بعد بضع ساعات، حين رجعنا إلى الفندق الذي أقمنا فيه، وإذ توسّدنا الفراش في الظلمة، حَضَنَتْ يدي وقالت: أوغست، أريدكَ أن تنتقل لتسكن معي. حالما نعود إلى نيويورك، أريدك أن تنتقل وتبقى معي إلى الأبد.

ـ لقد فَعَلْتُها.

ـ فَعَلْتِها. كنتِ أنت مَنْ أعادنا بعضنا إلى بعض مرّةً أخرى.

ـ حسنًا، على الأقلّ أنجزتُ شيئًا ما في حياتي. لسوء حظّي كان عمري خمسَ دقائق، ولم أكن أعرف ماذا كنتُ أفعل.

ـ أوّل الفِعال العظيمة، والمزيدُ منها آتٍ.

ـ لماذا الحياة فظيعة إلى هذه الدرجة، يا جدّي؟

ـ لأنّها كذلك، باختصار. إنّها كذلك وحسْب.

ـ مع كلّ الأيّام المُرّة التي مررتَ وجدّتي بها، كلّ الأيّام المرّة التي مرّت بها أمّي وأبي، يبقى أنّكما أحببتما واحدكما الآخر، وحظيتما بفرصتكما الثانية. على الأقلّ أحبّتْ أمّي والدي ما يكفي لأن تتزوّجه. أمّا أنا فلم أقع في حُبِّ أحد.

ـ ما الذي تقولينه؟

ـ حاولتُ أن أحبّ تايتوس، لكنّني لم أنجح. هو أحبّني، غير

أنّني لم أستطع أن أبادله الحبّ. لماذا تظنّه التحق بتلك الشركة اللعينة وغاب؟

ـ لكي يجني المالَ. كان في نيّته أن يقضي سنةً ليكسبَ بعدها ما يقرب مائة ألف دولار. إنّه مبلغ هائل من المال بالنسبة إلى فتًى في الرابعة والعشرين. تحدّثتُ معه مطوّلاً قبل مغادرته. لقد أدرك أنّه مُقْدم على مجازفةٍ خطيرة، لكنّه اعتبر أنّ الأمر كان يستحقّ هذه المجازفة.

ـ غادرَ بسببي. ألا تفهم ذلك؟ قلتُ له إنّني لا أريد أن أكون معه، وبذلك طار صوابه وغادر، ثم أودى بنفسه إلى القتل. ماتَ بسببي أنا.

ـ لا يمكنك أن تفكّري بتلك الطريقة. مات لأنّه كان في المكان غير المناسب في الوقت غير المناسب.

ـ وأنا مَن أوصله إلى هناك.

ـ لم يكن في يدك حيلة. كاتيا، توقّفي عن تقريع نفسك. مضى ما يكفي من الزمن على ذلك.

ـ لا أقدر على النسيان.

ـ ها قد مضت الآن تسعةُ أشهر على بقائك مسمّرةً هنا، ولم يتحسّن شيء معك. أظنّ أنّه حان وقت التغيير.

ـ لا أريد أن يتغيّر أيّ شيء.

ـ هل فكّرتِ في العودة إلى المعهد في الخريف؟

ـ بين أخذٍ وردّ. لستُ متأكّدة من جاهزيّتي لذلك.

ـ هنالك أربعةُ أشهر أخرى.

ـ أعرف. لكنْ إذا أردتُ العودة، فيجب أن أُعْلِمَهم خلال فترةٍ أقصاها الأسبوع المقبل.

ـ أَعْلِميهم. وفي حال شعورك بعدم قدرتك على الاستمرار، يمكنك دائمًا أن تغيّري رأيَكِ في الدقيقة الأخيرة.

ـ سنرى.

ـ وإلى أن يحدث ذلك، نحن في حاجة إلى تحريك الأشياء الساكنة من حولنا. هل تستثيرُ فكرةُ الترحال اهتمامَكِ؟

ـ إلى أين نذهب؟

ـ إلى أيّ مكان تشائين، وللفترة التي تشائين.

ـ ماذا عن أمّي؟ لا نستطيع أن نتركها هنا هكذا.

ـ تنتهي فصولُها الدراسيّة الشهرَ المقبل. بإمكاننا نحن الثلاثة أن نذهب معًا.

ـ لكنّها تشتغل على كتابها. كانت تودّ أن تَفْرغ منه هذا الصيف.

ـ تستطيع الكتابةَ ونحن على الطريق.

ـ الطريق؟ لا يمكنك القيامُ برحلة في السيّارة. ستؤلمك ساقُك كثيرًا.

ـ كنتُ أفكّرُ في شيء على غرار حافلة التخييم. لا أعرف

بالضبط كم تكلّف هذه الأشياء، لكنّني أمتلك مبلغًا ماليًّا لا بأس به في المصرف. من عائدات بيع شقّتي في نيويورك. أنا متأكّد من إمكانيّة شراء واحدة. إذا لم تكن جديدة، فلتكن مُسْتَعْمَلة.

ـ ما الذي تقوله؟ تقصد أنّنا سنقضي، نحن الثلاثة، الصيفَ في قيادة حافلة التخييم؟

ـ هذا صحيح. ميريام تشتغل على كتابها، وكلَّ يوم سنتناوب، أنتِ وأنا، حسب الحاجة.

ـ وما الذي سنبحث عنه؟

ـ لا أعرف. أيّ شيء. أفضل هامبرغر في أميركا. نُعِدُّ لائحةً بأفضل مطاعم الهامبرغر في البلاد، ومن ثم نسافر من واحد إلى آخر، ونقوم بتصنيفها وفق جدولٍ مُعقّد من المعايير: الطعم، العصارة، الحجم، نوعيّة الخبز، وغيرها.

ـ إذا أكلتَ الهامبرغر بشكلٍ يومي، فقد تصاب بنوبةٍ قلبيّة.

ـ إذًا، السمك. سنبحث عن أفضل شريحةِ سمكٍ في الولايات الثماني والأربعين.

ـ تجُرُّني من رجلي، صحيح؟

ـ أنا لا أجرّ من الأرجل. الرجال ذوو الأرجل المعطوبة لا يفعلونها. إنّها تنافي ديانتنا.

ـ ستكون حافلةُ التخييم مزدحمة. وفوق ذلك، أنت تتناسى أمرًا مهمًّا آخر.

ـ ما هو؟

ـ أنت تشخر.

ـ أَهْ. أنا أشخر إذًا. حسنًا، سنحيل الحافلةَ إلى خردة. ماذا عن رحلة إلى باريس؟ يمكنك أن تلتقي أبناءَ أخوالك، تمرّنين لغتك الفرنسيّة، وتكتسبين منظورًا جديدًا إلى الحياة.

ـ أشكرك، لا أريد. أفضّل البقاءَ هنا ومشاهدة أفلامي.

ـ تعلمين؟ إنّها تتحوّل إلى مخدّر. أظنّ أنّه يجب أن نخفّضها، بل أن نتوقّف عنها لبعض الوقت.

ـ لا أستطيع ذلك. أحتاج الصورَ على الشاشة. أحتاجُ ما يلهيني عن التفرّج على الأشياء الأخرى.

ـ أشياء أخرى؟ لا أفهم. أشياء مثل ماذا؟

ـ لا تكن أبْلَهَ إلى هذا الحدّ.

ـ أعرف أنّي مغفّل، لكنّني لا أفهم ما تقصدين.

ـ تايتوس.

ـ لكنّنا شاهدنا ذلك الفيديو مرّةً واحدة ـ منذ أكثر من تسعة أشهر.

ـ هل نسيتَه؟

ـ لا، طبعًا لا. أفكّر فيه عشرين مرّةً في اليوم.

ـ تلك وجهة نظري. لو لم أشاهده، لكان كلُّ شيء مختلفًا.

يذهب الناسُ إلى الحرب، وأحيانًا يموتون. تتلقّى برقيّةً أو اتّصالاً هاتفيًّا، ليخبرك أحدُهم أنّ ابنك أو زوجك أو حبيبك السابق قد قُتل، لكنّك لا تشهد كيف حدث ذلك. تتخيّل صورًا في ذهنك، لكنّك لا تعلم الوقائعَ الحقيقيّة. ولو نُقلتْ إليك القصّةُ من قِبَل أحد كان هناك، فإنّ ما تُرِك لك هو الكلماتُ، والكلماتُ مبهمةٌ، مفتوحةٌ على التأويل. شاهدناه. شاهدنا كيف قتلوه. وما لم أبدّد هذا الڤيديو في الصور الأخرى، فسيبقى الشيءَ الوحيدَ الذي أراه أبدًا. ولا أستطيع أن أتخلّص منه.

ـ لن نتخلّص منه. يجب أن تتقبّلي ذلك، يا كاتيا. تقبّليه، وحاولي أن تعيشي حياتك من جديد.

ـ أبذُل جهدي.

ـ لم تحرّكي ساكنًا لما يقارب السنة. هناك عناصرُ إلهاءٍ أخرى إلى جانب مشاهدة الأفلام طوال اليوم. اشتغلي، في أمر ما. مشروع، شيء ما تُنْشِبين فيه أسنانَكِ.

ـ مثل ماذا؟

ـ لا تضحكي عليّ، لكنْ بعد مشاهدة كلّ هذه الأفلام معك، يَخْطر لي أنّه يجب علينا أن نكتب فيلمَنا الخاصّ.

ـ لستُ كاتبةً. لا أعرف كيف أؤلّف القصص.

ـ ماذا كنتِ تظنّينني أفعل الليلة؟

ـ لا أعرف. تفكّر. تتذكّر.

ـ أقلّ ما أستطيعه. أكون أفضل حالاً حين أدّخر تفكيري وتذكّري للنهار. في معظم الأوقات، أقصّ على نفسي قصّةً. ذلك ما أفعله حين يجافيني النومُ. أستلقي في الظلام وأقصّ على نفسي القصص. لا بدّ أنّه تجمّع لديّ العشراتُ منها إلى الآن. يمكننا تحويلُها إلى أفلام. كتّاب مساعدون، مبدعو قصص مساعدون. بدل أن نشاهد خيالات الناس الآخرين، لماذا لا نُبدِعُ شيئًا من إنتاجنا؟

ـ أيّ صنف من القصص؟

ـ كافّة الأصناف. هزليّات، تراجيديّات، من آثار الكتب التي أحببتِ، دراما تاريخيّة، أيّ نوع من القصص التي يُمْكنك تخيّلُها. لكنْ إذا قبلتِ عرضي، أظنّ أنّنا يجب أن نبدأ بالكوميديا.

ـ لستُ في وارد الضحك هذه الأيّام.

ـ تمامًا. لهذا السبب علينا أن نبدأ بشيء ما خفيف ـ تافه وسطحيّ، بأكبر قدْرٍ ممكن من العبث والإلهاء. إذا فكّرنا في الأمر جدِّيًا، فقد نحظى ببعض المرح.

ـ مَن يريد المرح؟

ـ أنا. وأنتِ أيضًا، حبيبتي. فلقد تحوّلنا إلى شخصين مزريَيْن مترعَيْن بالحزن. وكلُّ ما ألتمسه هو شفاءٌ، علاجٌ يدرأ الكآبة.

أبدأ بقصّة وضعتُ خطوطها الأساسيّة الأسبوع الفائت ـ **المغامرات الرومانسيّة لـ دوت وداش [نقطة وخطّ]**. نادلةٌ سمينة وطاهيةُ وجبات سريعة يبقّع وجهَها نمشٌ رماديّ، تعملان في مطعم في مدينة نيويورك. لكنْ خلال أقلّ من خمس دقائق من الشروع في القصّة، تغطّ كاتيا في النوم، ويأتي حديثُنا إلى نهايته. أُصغي إلى تنفّسها البطيء، الرتيب، سعيدًا بأنّها استطاعت أن تستسلم للنوم أخيرًا، ومتسائلاً عن الوقت الآن. لقد تجاوزت الرابعةَ بكثير، ربّما، وقد تكون الخامسة. ساعة أو بعضها لبزوغ الفجر: تلك اللحظةِ العصيّةِ على الإدراك، عندما يأخذ السوادُ يترقّق، وطائرُ الأُخيضر الذي يعيش على الشجرة قرب نافذتي يرسل أولى سقسقاته لهذا اليوم. وإذ أقلّبُ الأشياءَ المختلفة التي قالتها لي كاتيا، تتحوّل أفكاري تدريجيًّا إلى تايتوس، وسرعان ما أجد نفسي داخل قصّته مرّةً أخرى، أعيش من جديد الكارثة التي كُنت أجهد في تجنّبها طوال الليل.

تلقي كاتيا باللوم على نفسها لما حدث، وتربط نفسَها زيفًا

بسلسلة الأسباب والنتائج التي أدّت في نهاية المطاف إلى مقتله. غير أنّ على المرء ألاّ يترك لنفسه التفكيرَ بهذه الطريقة، لأنّني لو سلّمتُ بمنطقها المغلوط، فسنكون، أنا وسونيا مسؤولَين أيضًا، لأنّنا نحن اللذان قدّماها إلى تايتوس في المقام الأوّل، وذلك في عيد الشكر منذ خمس سنوات، مباشرةً بعد طلاق والديها. فقد سافرتْ وميريام إلى نيويورك لقضاء عطلة نهاية الأسبوع الطويلة معنا. ويومَ الخميس قمنا، أنا وسونيا، بطهو ديك روميّ يكفي اثني عشر شخصًا. من بين الضيوف كان تايتوس ووالداه، ديڤيد سمول وإليزابيث بلاكمان، وكلاهما رسّام، وصديق لنا. بدا أنّ تايتوس ابنَ التاسعة عشرة، وكاتيا ابنةَ الثامنة عشرة، قد أُغرما أحدهما بالآخر. هل مات لأنّه عشق حفيدتَنا؟ تتبّعِ الفكرةَ حتى النهايّة، وبمنتهى اليسر ستلوم والديه. فلو لم يلتقِ ديڤيد وليز، لما وُلد تايتوس.

كان فتًى متألّقًا، برأيي، صريحًا، ولدًا فوضويًّا، ذا شعر حرون أحمر، وساقين طويلتين، وقدمين كبيرتين. التقيتُه عندما كان في الرابعة. ومنذ أن درجنا، أنا وسونيا، على زيارتهم بشكلٍ متكرّر، شعر بأريحيّة تجاهنا، معتبرًا أنّنا بديلان من عمٍّ وعمّةٍ له أكثرَ من كوننا صديقيْ عائلة. أحببتُه لأنّه يقرأ الكتب؛ إنّه ولدٌ نادرٌ متعطّش للأدب. وحين بدأ في كتابة القصص القصيرة في الخامسة عشرة من عمره، كان يرسلها إليّ لإبداء الرأي فيها. لم تكن جيّدة جدًّا، لكنّني تأثّرتُ للجوئه إليّ في طلب النصح. وبعد فترة بدأ يزورنا في شقّتنا حوالى مرّة في الشهر ليتحدّث عن آخر محاولاته. كنتُ أقترح عليه كتبًا لكي يقرأها، فكان يدرسها باجتهاد، بنوع من الحميّة

المندفعة، المشتّتة. وبالتدريج تطوّرتْ كتابتُه بعض الشيء، لكنّها كانت تختلف كلَّ شهر، حاملةً مؤثّرات كلّ كاتبٍ حدث أن قرأه في تلك الأثناء ـ تلك سمةٌ طبيعيّةٌ لدى المبتدئين، وإشارةُ تطوّر. بدأ وميضُ الموهبة يتألّق من خلال نثريّاته المتكلّفة، المنمّقة، لكنْ كان لا يزال من المبكّر جدًّا الحكمُ إنْ كان واعدًا بشكل أصيل. عندما أوشك على التخرّج من الثانويّة عبّر عن نيّته في البقاء في المدينة ودخول جامعة كولومبيا. كتبتُ خطابَ تزكيةٍ لأجله. لا أدري إذا كانت الرسالة قد حقّقتْ غرضها، لكنّ جامعتي قبلَتْه، وتتالت زياراتُه الشهريّة.

كان في سنته الثانية عندما حضر إلى عشاء عيد الشكر والتقى كاتيا. وأظنّ أنّهما شكّلا ثنائيًّا عجيبًا وفاتنًا: تايتوس المتخبّط ذو الابتسامة العريضة والملوّح بيده، وابنة ابنتي الداكنة الشعر، الصغيرة، الهيفاء. كان معهد سارة لورانس في برونكسفِل على بعد رحلة قطار قصيرة إلى المدينة، ولذلك مكثتْ كاتيا معنا معظمَ الوقت خلال فترة ما قبل تخرّجها، معظمَ عطلات الأسبوع في الحقيقة، فرارًا من حياة المهجع المشترك إلى فراشٍ مريح في شقّة جدَّيها والتسكّع الليليّ في نيويورك. إنّها تدّعي الآن أنّها لم تحبّ تايتوس، لكنّهما كانا معًا طوال السنوات السابقة، وكان لهما العشراتُ والعشراتُ من مناسبات العشاء في شقّتنا ـ نحن الأربعة في العادة ـ ولم أشعرْ إلاّ أنّ التعلّق هو ما كان بينهما. ربّما كنتُ أعمى، وربّما افترضتُ أكثرَ ممّا ينبغي. لكنْ باستثناء بعض الخلافات الفكريّة العارضة، وانقطاعٍ واحد استمرّ لأقلّ من شهر، فقد أثارا انبهاري كثنائيٍّ مزهوٍّ، سعيدٍ. وعندما جاء تايتوس وحيدًا

لزيارتي، لم يلمّحْ إلى أيّة مشكلة مع كاتيا، مع أنّه كان ولدًا مهذارًا، يقول كلَّ ما يجول في باله. ولو كانت كاتيا أعلنتْ له بأنّها تريد إنهاءَ العلاقة، لكان ذَكَرَ لي ذلك بكلّ تأكيد. وربّما لم يكن ليفعل: فلعلّ معرفتي به لم تكن كافيةً بالقدر الذي ظننتُ.

عندما بدأ يتحدّث في السفر والعمل في العراق، دخل والداه في دوّامة من الذعر. صرخ ديڤيد، وهو في العادة أكثرُ الرجال وداعةً وتفهُّمًا، في وجه ابنه، ونعَتَه بأنّه معتلٌّ باثولوجيًّا، هاوٍ أجوف، مهووس انتحاريّ، بكتْ ليز، أُخذتْ إلى فراشها، وشَرعتْ تخفّف عن نفسها بجرعاتٍ قويّةٍ من مهدّئات الأعصاب. كان ذلك في شباط/فبراير من السنة الفائتة. كانت سونيا قد توفّيت في تشرين الثاني/نوڤمبر، وكنتُ في حالٍ يُرثى لها في ذلك الحين، أشرب حتى السلوان كلَّ ليلة، غيرَ مؤهّلٍ للتواصل البشريّ، وقد أطار الفقدُ صوابي. لكنّ ديڤيد، الذي كان في أوج اضطرابه، اتّصل بي رغم ذلك، والتمس منّي أن أتحدّث بما يعيد الصبيَّ إلى رشده. لم أستطع أن أرفض. لقد عرَفت تايتوس منذ أمد طويل، وفي واقع الأمر شعرتُ بأنّني معنيٌّ بالأمر أنا الآخر. لذلك استجمعتُ قواي وبذلتُ جهدي الذي لم يُجدِ، لم يُجدِ على الإطلاق.

كنتُ فقدتُ التواصلَ مع تايتوس بعد مرض سونيا، وبدا أنّه قد تغيّر في الأشهر الحرجة. فقد انقلب المتفائلُ الزَّلِقُ اللسانِ، الساذجُ، إلى متجهّمٍ، مستعدٍّ للعراك دومًا، وكنتُ أعرف منذ البداية أنّه لن يكون هنّاك تأثيرٌ لكلماتي فيه. وفي الوقت نفسه، لا أظنّ أنّه كان نادمًا على رؤيتي، وحينما تحدّث عن سونيا ووفاتها،

كانت هناك مواساةٌ حقيقيّةٌ في صوته. شكرتُ له كلماته. صببتُ قدحين من الويسكي الفاخر، ثم دعوتُه إلى غرفة الجلوس، التي كان لنا فيها الكثيرُ من الأحاديث في الماضي.

ـ لستُ جالسًا هنا لكي أجادلك، بدأتُ. الأمرُ لا يعدو أنّني حائرٌ بعضَ الشيء، فحبّذا لو توضح لي بعضَ الأشياء. هل تسمح؟

ـ حسنًا، قال تايتوس. لا مشكلة.

ـ لا تزال الحربُ تدور منذ ما يقارب السنوات الثلاث، قلتُ. عندما بدأ الغزو، قلتَ لي إنّك ضدّه. «مروّع» كانت الكلمة التي استخدمتَها، فيما أظنّ. قلتَ إنّها حربٌ مختلَقة، ملفّقة، أفدحُ خطإٍ سياسيّ في التاريخ الأميركيّ. هل أنا محقّ، أمْ أنّ الأمر اختلط عليّ بينك وبين أحدٍ آخر؟

ـ الذي تقوله هو عينُ الصواب. ذلك بالضبط ما شعرتُ به.

ـ لم نلتقِ كثيرًا في الآونة الأخيرة، لكنْ في آخر مرّة كنت هنا، أتذكّر أنّك قلتَ إنّه ينبغي أن يُلقى بوش في السجن ـ بالإضافة إلى تشيني، ورمسفيلد، وباقي عصابة المحتالين الفاشيّين الذين كانوا يَحْكمون البلادَ. متى كان ذلك؟ منذ ثمانية أشهر؟ منذ عشرة أشهر؟

ـ الربيع الماضي. نيسان/ أبريل أو أيّار/ مايو، لا أتذكّر تمامًا.

ـ هل غيّرتَ تفكيرَكَ منذ ذلك الحين؟

ـ كلاّ.

ـ على الإطلاق؟

ـ ولا بشعرة واحدة.

ـ لماذا تريد الذهابَ إلى العراق من دون أصقاع الأرض الأخرى؟ لماذا تُسْهم في حربٍ تمقتها؟

ـ أنا لست ذاهبًا إلى هناك لكي أخدمَ أميركا. أنا ذاهبٌ لأجلي أنا.

ـ لأجل المال. أهذا هو الأمر؟ تايتوس سمول، المرتزقُ المطلقُ العنان.

ـ لستُ مرتزقًا. المرتزقة يحملون السلاح ويقتلون الناس. أنا ذاهب لأقودَ شاحنة، هذا كلُّ ما في الأمر. أنقل المؤنَ من مكانٍ إلى آخر: أغطية ومناشفَ، صابونًا، حلوى، غسيلاً وسخًا. إنّه عمل خرائيّ، لكنّ الراتب هائل. BRK ـ هو اسم الشركة. توقِّع عقدًا لسنة، لتعودَ إلى الوطن وفي جيبكَ تسعون ألف دولار أو مئة ألف.

ـ لكنّك بذلك ستدعم شيئًا أنتَ ضدّه. كيف تسوِّغ لنفسكَ ذلك؟

ـ لا أنظر إلى الأمر من هذه الزاوية. بالنسبة إليّ، ليس قرارًا مرتبطًا بالأخلاق. إنّه يتعلّق باكتساب شيء ما، يتعلّق ببدء نوعٍ جديدٍ من المعرفة. أدركُ كم هو مريعٌ ومحفوف بالخطر أن تكونَ هناك، لكنّني لأجل ذلك أريد الذهاب. كلّما كان أكثرَ هولاً، كان أكثر روعة.

ـ كلامُكَ لا معنى له.

ـ طوال حياتي، تمنّيتُ أن أكون كاتبًا. أنتَ تعرف ذلك، يا

أوغست. كنتُ أُريكَ قصصي الصغيرة الهزيلة على مدى سنوات، وقد كان كرمًا منك أن تقرأها وتُبدي التعليقَ عليها. لقد شجَّعتَني، وأنا شديد الامتنان لك لأجل ذلك. لكنّنا، كليْنا، نعلم حقَّ العلم بأنّني لستُ جيّدًا. نتاجي جافٌّ وثقيلٌ ومضجِر. لغوٌ. كلُّ كلمةٍ كتبتُها حتى الآن لغوٌ. تخرّجتُ من الجامعة منذ قرابة السنتين، وأنا أمضي أيّامي جالسًا في مكتب، أجيب على هاتفِ وكيلٍ أدبيّ. أيُّ نوعٍ من الحياة هذه؟ إنّها حياةٌ لعينةٌ وادعةٌ أكثرَ ممّا ينبغي، لعينةٌ مملّة جدًّا، لا أستطيع أن أحتملها أكثر من ذلك. أوغست، أنا لا أعرف أيَّ شيء. ولم أنجزْ أيَّ شيء. لذلك سأرحل. لأخوضَ تجربةَ شيءٍ ما لا يتمحور حولي. لأُلقى في العالم الواسع النتن، ولأكتشفَ كيف يشعر المرءُ في أن يكون جزءًا من التاريخ.

ـ الذهابُ إلى الحرب لن يكون سبيلَكَ لأن تصبح كاتبًا. أنتَ تفكّر على طريقة ولد في المدرسة، يا تايتوس. ففي أحسن الأحوال، ستعود ورأسُك مثقلٌ بذكرياتٍ لا يُمكن احتمالُها. وفي أسوإ الاحتمالات، لن تعودَ على الإطلاق.

ـ أُدركُ أنّها مخاطرة. لكن عليّ المضيّ فيها. عليّ أن أغيِّر حياتي ـ *وبأقصى سرعة*.

بعد أسبوعين على تلك المحادثة، جلستُ خلف مقود سيّارة تويوتا كورولا مؤجّرة متوجِّهًا إلى فيرمونت لأقضي بعضَ الوقت مع ميريام. فكانت الرحلة التي انتهتْ بالحادث الذي أودى بي إلى المشفى. ومع خروجي منها، كان تايتوس قد غادر إلى العراق. لم تكن هناك فرصةٌ لأن أقول له كلمةَ وداع أو أتمنّى أن يحالفَه الحظّ

أو أن يعيدَ النظرَ في قراره للمرّة الأخيرة، أو ما يشبه هذا الهراء الرومانسي... اللعاب الطفولي. غير أنّ الولد كان يعيش مرارةَ طموحاته المنهارة، ويواجه حقيقةَ أنّه لم يكن مؤهَّلاً في داخله لكي يحقّق الغايةَ التي كان دائمًا يَنْشدها، فهرب في محاولة محمومة لكي يستردّ الاعتبارَ إلى نفسه في عينيه هو.

انتقلتُ للسكن مع ميريام في أوائل نيسان/أبريل. بعد ثلاثة أشهر، اتّصلتْ كاتيا من نيويورك، كانت تنتحب على الهاتف. افتحِ التلفازَ، قالت. وهناك كان تايتوس في نشرة أخبار المساء، جالسًا على كرسيّ في ما يشبه غرفةً غيرَ محدّدةٍ بجدرانٍ من الطوب، محاطًا بأربعة رجال ملثّمي الرؤوس، والبنادقُ في أيديهم. كانت نوعيّةُ الفيديو رديئةً، فكان من العسير أن تقرأ التعبير على وجه تايتوس. لاح مذهولاً أكثرَ ممّا هو خائف، كما شعرتُ. لكنْ بدا جليًّا أنّه ضُرب، من خلال ما استطعتُ أن أميّزه بصعوبة، وظهر ما يشبه كدمةً كبيرةً على جبهته. لم يكن هناك صوت، غير أنّ مذيع الأخبار كان يقرأ نصَّه الذي حُضِّر مسبقًا، وورد كما يأتي، وربّما زاد أو نقص قليلاً:

«في صباح هذا اليوم، تمّ اختطافُ تايتوس سمول، في الرابعة والعشرين من عمره، نيويوركيّ الأصل، ويعمل سائقَ شاحنةٍ لصالح شركة BRK للتعهّدات، أثناء جولة له في إحدى الطرق المؤدّية إلى بغداد. يطالِبُ مختطفوه، الذين لم يُفْصحوا عن المنظّمة الإرهابيّة التي ينتمون إليها، بعشرة ملايين دولار مقابلَ إطلاق سراحه، بالإضافة إلى تجميد شركة BRK لسائر أنشطتها في العراق فورًا.

وقد أَنذروا بإعدام رهينتهم ما لم تتحقّقْ مطالبُهم في غضون اثنتين وسبعين ساعة. هذا وأعلن جورج رينولدز، المتحدِّث باسم ***BRK*** *، أنّ شركته تبذل كلَّ طاقتها لضمان سلامة السيّد سمول».*

وصلتْ كاتيا إلى بيت أمّها في اليوم التالي. بعد ذلك بليلتين شغّلنا كمبيوترها المحمولَ وشاهدنا الڤيديو الثاني والأخير الذي سجّله الخاطفون، والذي لا تُمْكن رؤيته إلاّ على الإنترنت. علمنا مسبقًا أنّ تايتوس قد مات. كانت BRK قد قدّمتْ عرضًا سخيًّا نيابةً عنه، لكنّ الشركة، كما كان متوقَّعًا (لماذا نتصوّر ما لا يمكن تصوُّره عندما تكون الأرباحُ على المحكّ؟)، رفضتْ إيقافَ أعمالها في العراق. نُفِّذ الذبحُ كما ورد في التهديد، تمامًا بعد اثنتين وسبعين ساعةً من انتزاع تايتوس من شاحنته وإلقائه في تلك الغرفة ذات الجدرانِ المبنيّةِ من الطوب. لا أزال أجهل لماذا كنّا، نحن الثلاثة، منقادين إلى مشاهدة هذا الشريط ـ وكأنّه كان فرضًا، واجبًا مقدّسًا. أيقنّا كلُّنا بأنّه سيبقى يَسْكننا حتى آخر حياتنا، على الرّغم من أنّنا ـ بمعنى ما ـ شعرنا أنّه كان ينبغي أن نكون هناك مع تايتوس، أن نُبقي أعينَنا مفتوحةً نصرةً له، ليتنفّسَ عبرنا ونحضنه هناك ـ في دواخلنا، ذلك الموت التّعس، الموحش، في دواخلنا. الوحشيّة، التي أحاقت به في تلك اللحظات الأخيرة، أحاقتْ بنا، لا بأحدٍ آخر سوانا. وبذلك فإنّنا لا نُسْلمه إلى العتمةِ الظالمةِ التي ابتلَعَتْه.

رأفةً بنا، لم يكن هناك صوت.

رأفةً بنا، ألبَسوه غطاءً حَجَبَ الرأس.

إنّه يجلس على كرسيٍّ، ويداه موثقتان وراءه، بلا حراك، ومن دون أدنى محاولةٍ للتملّص. الرجالُ الأربعة من الڤيديو السابق يقفون حوله: ثلاثة منهم يحملون البنادق، ورابعهم يقبض على بلطةٍ في يده. بلا سابق إنذار أو دون إيماءة من الآخرين، ينهال الرابعُ فجأةً بالنصل على عنق تايتوس. يرتجُّ تايتوس ويميل على يمينه، يتلوّى أعلى جسده، ومن ثم يبدأ الدمُ يرشح عبر غطاء الرأس. ضربةٌ أخرى من البلطة، هذه المرّة من الخلف. ينثني رأسُ تايتوس إلى الأمام، ويتدفّق الدمُ الآن من كلّ الجهات. مزيدٌ من الضربات: من الأمام والخلف، ومن اليمين واليسار. النصل الكليل يوغل في الحزّ طويلاً بعد لحظة الموت.

يركن أحدُ الرجال بندقيّته ويُحْكم تثبيت رأسَ تايتوس بين يديه مُسندًا إيّاه بينما يتابع رجلُ البلطة عمله. كلاهما مضرَّجٌ بالدم.

عندما ينفصل الرأسُ أخيرًا عن الجسد، يُلقي الجلاّدُ بالبلطة أرضًا. ينزع الرجلُ الآخرُ الغطاءَ عن رأس تايتوس، ثم يمسك رجلٌ ثالثٌ بشعر تايتوس الأحمر الطويل ويحمل الرأسَ ليقرِّبه إلى الكاميرا. الدم يتقطّر في كلّ مكان. لم يعد تايتوس مكتملَ الآدميّة. لقد تحوّل إلى فكرة نَفْسٍ، نفْسٍ وليستْ نفسًا، شيءٍ ميتٍ ينزف: *une nature morte*.

يتقهقر الرجلُ الذي يحمل الرأس مبتعدًا عن الكاميرا. يدنو الرابع بسكّينه. واحدةً بعد الأخرى، يعمل ضرباته بسرعةٍ كبيرةٍ ودقّة، ويطعنُ عينَي الصبي.

تجول الكاميرا لثوانٍ قليلة أخرى، ثم تتحوّل الشاشة إلى السواد.

إنّه لمن المستحيل أن تعي كم طال ذلك. خمس عشرة دقيقة. ألف عام.

أسمع ساعةَ المنبّه تتكّ على الأرض. للمرّة الأولى منذ ساعات، أُطبق جفنيَّ، متسائلاً إنْ كان يمكنني النومُ بالرّغم من ذلك. تتحرّك كاتيا، تُطْلق همهمةً صغيرةً، ثم تنقلب على جنبها. أفكّر أن أضع يدي على ظهرها وأمسّده لثوانٍ، لكنّني أُقلع عن الفكرة. النوم بضاعةٌ نادرةٌ في هذا البيت، لا أريد المجازفة وإقلاقها. نجومٌ لامرئيّة، سماءٌ لامرئيّة، عالمٌ لامرئيّ. أرى يديْ سونيا على مفاتيح البيانو. تعزف شيئًا ما لهايدن، لكنّني لا أستطيع أن أسمع أيّ شيء؛ فالنقر على المفاتيح لا يصدر صوتًا. ثم تستدير وهي على كرسي البيانو، وميريام تهرع إليها وتلقي نفسها بين ذراعيها: ميريام ابنةُ الثلاث سنوات، صورةٌ من الماضي الموغل، ربّما كانت حقيقيّة، وربّما كانت مُتَخيَّلة، لم أعد أستطيع التفريق. الحقيقي والمتخيَّل. الأفكار حقيقيّة، بما فيها الأفكارُ المتعلّقةُ بالأشياء غير الحقيقيّة. نجومٌ لامرئيّة، سماءٌ لامرئيّة. صوت أنفاسي، صوت أنفاس كاتيا. صلواتُ ما قبل النوم، طقوسُ الطفولة، وطأة الطفولة. *إنْ كان لي أن أموتَ قبل أن أفيق.* ما

أسرعها وهي تمضي. البارحة طفلاً؛ اليوم هرِمًا؛ ومنذ ذاك الأمد حتى اللحظة، كم من خفقات القلب، كم من الأنفاس، كم من الكلمات قيلت وسُمعتْ؟ يا واحدًا من الناس، تلمَّسْني. امسحْ وجهي براحتك وحدِّثني...

لستُ واثقًا، لكنّني أحسب أنّي غفوتُ لوهلة، لا أكثر من دقائق قليلة، ربّما مجرّد ثوانٍ. لكنّ شيئًا ما يحفّز انتباهي فجأةً. صوت، كما أعتقد، نعم، في الواقع سلسلةُ أصوات، طَرْقٌ على الباب، طرقٌ خافتٌ ومتلاحق، ثم أفتح عينيّ وأطلب إلى ميريام الدخول. حالما يُفتح الباب، أستطيع رؤية وجهها بوضوح أكيد، وأفهم أنّنا لم نعد في الليل، أنّنا في لحظة انبلاج الفجر. العالم رماديٌّ في غرفتي الآن. كانت ميريام قد ارتدتْ بعض الملابس (جينزًا أزرقَ وبلوزةً بيضاء فضفاضة). ولحظةَ أَطبقتِ البابَ وراءها، أَطلقَ الأُخيضرُ أولى زقزقاته لهذا اليوم.

ـ يا للفَرَج، تهمسُ، وهي تنظر إلى كاتيا النائمة. للتوّ تفقّدتها. ولمّا لم تكن في فراشها، فقد خفتُ قليلاً.

ـ نزلتْ منذ بضع ساعات، أهمسُ مجيبًا. ليلٌ مُمِضٌّ آخر، لذلك استلقينا في الظلام وتحادثنا.

تخطو ميريام باتّجاه السرير. تَطْبع قبلةً على وجنتي، وتجلس إلى جواري. تسأل، هل أنتَ جائع؟

ـ قليلاً.

ـ ربّما عليّ أن أُعدّ القهوة.

ـ لا، اجلسي هنا وحدّثيني قليلاً. هناك أمر أحتاج أن أعرف عنه.

ـ بشأن ماذا؟

ـ كاتيا وتايتوس. أخبرتني أنّها انفصلتْ عنه قبل أن يرحل. هل هذا صحيح؟ يَلُوح أنّها تظنّ أنّه غادر بسببها.

ـ كان لديك الكثيرُ ممّا يشغل ذهنك. لم أشأ أن أضايقك بالأمر. سرطان الماما... طيلة تلك الأشهر... ثم حادث السيّارة. لكنْ نعم، لقد انفصلا.

ـ متى؟

ـ دعني أتذكّر... كان عيد ميلادك السبعين في شباط/فبراير، شباط عام ألفين وخمسة. كانت ماما مريضةً في ذلك الحين. حدث [الانفصال] بعد عدّة أشهر من ذلك. في أواخر الربيع أو بدايات الصيف.

ـ لكنّ تايتوس لم يغادر حتى حلول شباط من السنة الجديدة، ألفين وستّ.

ـ ثمانية أشهر أو تسعة من انفصالهما.

ـ إذًا كاتيا على خطإٍ إذًا. لم يذهب إلى العراق بسببها.

ـ إنّها تقتصّ من نفسها. هذا كلُّ ما في الأمر. إنّها تريد توريطَ نفسها في ما وَقَعَ له، لكنْ في الحقيقة لم يكن لها يدٌ في ذلك. تحدثتَ إليه قبل أن يذهب، وقد شَرَحَ لكَ الأسباب.

ـ لم يذكر اسم كاتيا، ولا مرّةً واحدة.

ـ أرأيتَ؟

ـ ذلك يجعلني أشعر أفضل قليلاً. وأيضًا أسوأ قليلاً.

ـ إنّها في طور التعافي الآن. أشتَمُّ ذلك. شيئًا فشيئًا فشيئًا. الخطوة التالية هي أن تقنعَها بالعودة إلى المعهد.

ـ قالت إنّها تنظر في الأمر.

ـ الذي كان منذ شهرين غير قابل للنقاش.

أُمسك بيد ميريام وأقول: كدتُ أنسى. قرأتُ بعضًا من مخطوطك الليلة الفائتة...

ـ و؟

ـ أظنّ أنّك أنجزتِه. لا مزيد من الشكوك، اتّفقنا؟ أنت تقومين بأداءٍ من الدرجة الأولى.

ـ أأنت على ثقة بما تقول؟

ـ قد قلتُ أكاذيبَ كثيرةً في حياتي، لكنّني لم أكذب أبدًا بشأن الكتب.

تبتسم ميريام، مُدركةً الإحالات المئتين والتسع والخمسين الخفيّة الدفينة في طيّات الملاحظة. وأبتسم لها. ابتسمي دائمًا، أقول. تبدين جميلة حين تبتسمين.

ـ فقط حين أبتسم؟

ـ على الدوام. في كلّ دقيقة من دقائق اليوم.

ـ أكذوبة أخرى من أكاذيبك، لكنّني سأَقْبلُها. تُربّتُ على وجنتي وتقول: قهوة وخبز محمَّص؟

ـ لا، ليس لهذا اليوم. أفكّر أنّ علينا جميعًا أن نخرج هذا

الصباح، لنتناول بيضًا مخفوقًا ولحمًا مقدّدًا، وخبزًا فرنسيًّا محمّصًا، وفطائرَ مُحلاّة. كامل المائدة.

ـ إفطارُ فلاّحٍ.

ـ تمامًا، إفطارُ فلاّح.

ـ سأُحضر لك عُكّازَكَ، تقول، وهي تنهض وتتوجّه نحو المشجب المثبّت على الحائط قرب سريري.

ألاحقها بعينيّ للحظة، ثم أقول: لم تكن روز هاوثورن شاعرةً على قدْرٍ من الأهمّيّة، أليس كذلك؟

ـ في الواقع كانت شاعرةً رديئةً جدًّا.

ـ لكنْ هناك سطر... سطر واحد عظيم. أظنّ أنّه يضاهي أيّ شيء قرأتُه أبدًا.

ـ أيّ سطر؟ تسأل، تستدير لتنظر إليّ.

ـ *كأنّما العالم الغريب يهيم دون مُسْتَقَرٍّ له*.

يَفْترّ ثغرُ ميريام عن ابتسامة عريضة. عرفتُه، تقول. عندما كنتُ أطبعُ الاقتباسَ، قلتُ في سرّي، إنّه سيحبّه. كأنّه قد كُتِب لأجلك.

ـ كأنّما العالمُ الغريبُ يهيم دون مُسْتَقَرٍّ له، يا ميريام.

ـ تتناول العكّاز، تتّجه عائدةً نحو السرير وتجلس قربي. نعم يا بابا، تقول، وهي تتفحّص ابنتَها ونظرةُ قلقٍ في عينيها، كأنّما العالمُ الغريبُ يهيم دون مُسْتَقَرٍّ له.

«وحدي في الظلام، أقلِّب العالمَ في رأسي، فيما أنا أصارعُ نوبةً أخرى من الأرق، وليلةً بيضاءَ أخرى في العراء الأميركيّ العظيم».

هكذا يبدأ پول أوستر ـ الروائيُّ الأميركيُّ وصاحبُ **ثلاثيّة نيويورك** ـ روايتَه اللامعة عن الحقائق الكثيرة التي تلفُّنا حين تندلع الحروبُ من حولنا. أوغست بريل، البالغُ من العمر اثنين وسبعين عامًا، في بيت ابنته في ڤرمونت يتعافى من حادث سيْر. وحين يجافيه النومُ يستلقي على السرير ويحكي لنفسه قصصًا، محاولاً أن يُبْعد الأمورَ التي يفضّل أن ينساها: موتَ زوجته الأخير، ومقتلَ صديق حفيدته، تايتس... ويتخيّل ناقدُ الكتب المتقاعد عالمًا موازيًا لهذا العالم، لا تكون فيه أميركا في حربٍ على العراق، بل مع نفسها. في «أميركا الأخرى» هذه، لم يَسقط البرجان الشهيران، وتشلّعت الولاياتُ المتّحدةُ عقب حربٍ أهليّةٍ دامية!

ـ أوستر هو واحدٌ من أكثر كتّابنا الثقافيّين أناقةً.

The Washington Post Book World

ـ يمتلك أوستر موهبةً هائلةً في خلق عوالمَ فانتازيّةٍ وقابلةٍ للتصديق في الوقت نفسه.

San Franscico Chronicle



ISBN: 978-9953-89-142-2
9 789953 891422

دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨ - ٨٦١٦٣٣
ص ب ٤١٢٣-١١ بيروت

تصميم الغلاف: نجاح طاهر